نساء في محراب الحب الإلهي

بسم الله الرحمن الرحيم

نساء في محراب الحب الإلهي

رسالة علمية نالت بها المؤلفة درجة الماجستير

رغداء الحمصي

دار المكتبي

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

المقدّمة

من تفاوت الناس بالعلم والتقوى رأيت أن أبحث في طبقات النساء الصوفيات ، وقد يكون من المفيد أن نتحدث عن أهمية التصوف النِسْوي لأن المرأة أسهمت في تطوير التصوف وإغنائه ، ولم تُعطَ حقها من البحث ، وبيان أثرها في هذا المجال ، ولما كانت المرأة شفافة بطبعها وكان الحب الإلهي يحتاج إلى هذه الشفافية ، فإن من أوائل من سن سنة العشق الإلهي في أدبنا العربي امرأة ، وهي من روّاد التصوف في الأدب العربي ، تلك العاشقة هي رابعة العدوية التي أحبت الله تعالى ، وتعلقت روحها ببارئها ، وعاشت خاضعة له ترشف من رحيق الحب الذي لا ينضب . ومن ثمرة هذا الحب أتحفتنا رابعة بشعر صوفي على جانب عالٍ من الصدق والروحانية ، ثم أتى من بعدها شواعر متصوفات مشين على طريق رابعة ، فأتحفن أدبنا بالكثير من الشعر النابض بالحب الإلهي ، فمن هؤلاء الشواعر رابعة الشامية وعائشة الباعونية .

وإني أرجو في هذا البحث أن أوفق في إعطاء فكرة واضحة عن الشواعر المتصوفات ، فالتصوف من المواضيع الشائقة الشاقة الرائع بحثها

---

(١) سورة يوسف ٧٦/ ١٢ .

فمع التصوف يحقق الإنسان وجوده ، ويؤدي المهمة التي أناطه الله بها في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[1] .

ولعل لانغماس المجتمع في الماديات ، وابتعاده عن الروحانيات ، ما جعلني أتجه هذا الاتجاه لعلي أصل الحاضر بالماضي ، واستشف بعض الروحانيات من أدبنا العربي ، ولا سيّما أن تراثنا الصوفي الإسلامي مليء بالمثل العليا ، التي ينبغي أن يُلقى عليها الضوء لتكون قدوة ، لما فيها من قيم روحية إسلامية سامية .

ونظراً لأهمية دور المرأة الذي قامت به في المجتمع الإسلامي، ولتنامي هذا الدور في وقتنا الحاضر بوصفها تشكل نصف المجتمع ، وتشكل دعاماته ، لا بد من همسة دافئة في أذنيها لكي لا يأخذها بهرج الدنيا ، ولتلتزم بالتعاليم الروحانية ، حتى تسمو بالمجتمع إلى عالم القيم العليا .

وثمة باعث آخر ذاتي وهو أني لما كنت رابعة إخوتي ، وعانيت بعض ما عانت رابعة من لواعج الحب الإلهي ، أحببت أن أقف على نبع ثرّ فاض به أدبنا الصوفي أرشف منه ما يشفي ظمأ الروح إلى الملأ الأعلى؛ من خلال الخوض في غمار هذا الحب ، لنرى قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف الإسلامي .

وأخيراً أتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى في أن أوفق في تقديم هذا العمل المتواضع ، لينال رضا الله وقَبُول الجميع وأدعوه سبحانه وتعالى أن أوفق مستقبلاً في تقديم ما هو أحسن ، والله المستعان .

---

(١) سورة الذاريات ٥٦ ـ ٥٨/ ٥١ .

التمهيد

خطوات البحـث

بداية قمت بجمع كل ما حصلت عليه من أشعار النساء المتصوفات وأخبارهن ، ونسقتها في ديوان منظم ورتبته حسب التسلسل الزمني للشواعر ، مع ترجماتهن وألحقته في آخر الدراسة .

أما البحث فقد جعلته في ثلاثة أبواب :

الباب الأول في التصوف :

تتبعت فيه معاني كلمة التصوف ، وأقوال المتصوفة فيه ، ثم قمتُ بإعطاءِ لمحة موجزة عن تاريخ نشأة التصوف وأئمته ومدارسه والمناهج فيها ، ثم انتقلت إلى الحديث عن مكانة المرأة المسلمة ، وأوردت شواهد عن نساء كن خير مثال للزاهدات الصالحات اللواتي اهتدين إلى هدي الإسلام عن ثقافة ووعي ، بعد أن غذين أرواحهن بتعاليمه وإرشاداته .

الباب الثانـي موضوعات شعرهن الصوفي :

هو القسم الأول الدراسة الأدبية : قمت فيه بتقسيم القصائد الصوفية إلى أغراض مختلفة كما يلي :

١ ـ الحب الإلهي والمقامات العليا :

الحب الإلهي من أكثر الأغراض تداولاً بين الشواعر الصوفيات ، وهنا

اهتممت برائدة الحب الإلهي رابعة العدوية ، لكونها إمامة في هذا المجال ، ثم بحثت في الحب الإلهي عند شواعر أخريات ممن عاصرن رابعة كريحانة وميمونة وحيونة ، وشواعر كان بينهن وبين رابعة فاصل زمني ، كعائشة الباعونية وعائشة التيمورية .

٢ ـ الخمريات الصوفية :

وقمت بدراستها لكونها حالة ذاتية عالية لدى المتصوفة تقع لدى حدوث التجلي الأعظم لجمال الخالق وجلاله ، وأوردت شواهد لشواعر سكرن بشراب الحب عند رفع الحجب عنهن ، فعبرن عن ذلك شعراً .

٣ ـ الرمز الصوفي :

وهنا تتبعت مدلول الحب والخمر عند المتصوفات ، فوجدتهن رمزن به لمعان صوفية لها دلالاتها ، من هنا لاحظت أن الشعر الصوفي شعر رمزي ، يتجاوز ظاهرة الكلمة ليتغلغل في أعماق المعنى .

٤ ـ النبويات الصوفية :

وهي الأشعار التي قيلت في مدح الرسول الكريم ﷺ ، وتقسم قسمين : قسم المولد النبوي وتفصيل قصة مولده ، وقسم المدح النبوي : وهو سيرته وفضائله والثناء عليه .

الباب الثالث وفيه فصلان أولهما ـ الصور الفنية عند الشواعر الصوفيات :

حاولت في هذا الفصل إبراز جمالية الصورة الفنية للشواعر الصوفيات ، وتأثرها العميق بالقرآن الكريم ، وحاولت أن أضفي عليها شيئاً من روح عصرنا الأدبية ، وأن أجعلها تتنفس بنسائم الدراسات النقدية الحديثة للصورة الفنية ، مستلهمة من تراث أجدادنا الأوائل قبساً من نور يهديني سواء السبيل .

وثانيهما ـ المذاهب الفنية والبنى الجمالية :

وأخيراً توجت عملي بدراسة فنية للبنى الجمالية ، والهيكلية عند الشواعر المتصوفات ، وعرجت فيه على دراسة الأوزان الشعرية ، والقوافي في قصائدهن ، والمقطوعات مبتدئة باللفظة ومنتهية بالتركيب .

* * *

الباب الأول
في التصوف

الفصل الأول

التصوف معناه والمؤثرات فيه

المعنى اللغوي لكلمة الصوفي .

أقوال المتصوفة في التصوف .

المؤثرات في التصوف .

مدارس التصوف .

التصوف حياة روحية .

المعنى اللغوي لكلمة (صوفي)

إن علماء اللغة لم يشيروا إلى أصل هذه الكلمة باستثناء صاحب تاج العروس الذي أشار إلى أن (نسبتها إلى الصوف هي النسبة المشهورة)[1] ، وقد بحثت كتب المتصوفة في هذا الأصل وتعددت أقوالهم في ذلك ، وفيما يلي تفصيل ذلك :

١ ـ الصفاء :

وهذا ما استبعده القشيري في رسالته ، فرأى أن اشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة[2] ، أما الكلاباذي فقد ذكر في ذلك قوله : (قالت طائفة : إنما سميت صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها)[3] ولعلنا نجد في هذا المعنى (الصفاء) شيئاً من الروحانية التي تحتاج إليها الصوفية .

٢ ـ الصف الأول :

وهذا ما ذكره الكلاباذي حيث قال : (وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم إليه ،

---

(١) الزبيدي ، تاج العروس

(٢) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص ٥٧٩ .

(٣) الكلاباذي ، التعرف ، ص ٥٧٩ .

وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بين يديه)[1] ، وقد ذكر القشيري كذلك أن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف[2] .

٣ ـ بنو صوفة :

قد نسب إلى بني صوفة طائفة من المتصوفين ، و(صوفة) هو الغوث بن مر ، فقد كان قومه من سدنة الكعبة القدماء ، وهم كما يقول السمعاني : (جماعة من عرب كانوا يزهدون ويتقللون من الدنيا)[3] .

٤ ـ أهل الصفة :

وذكر الكلاباذي (إنما سميت الصوفية كذلك لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة . . فلما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة فيما ذكرنا ، ولبسهم زيهم زي أهلها سموا صفية ، وصوفية)[4] .

والصفة هم جماعة عاشوا في عهد الرسول ﷺ كانوا يقيمون في صفة مسجد رسول الله ﷺ .

٥ ـ صاف :

بمعنى (صاف السهم عن الهدف يصوف ، أي : مال يميل ، وذلك لأن الصوفية يميلون عن الرذائل والسيئات إلى الفضائل والطاعات)[5] .

٦ ـ سوفيا :

وقد أشار بعضهم إلى أن نسبة صوفي العربية قد تكون من سوفيا اليونانية ، وهي كلمة تعني (الحكمة) وكان أول من قال بهذه النسبة هو

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ .
(٢) راجع الرسالة القشيري ، ص ٥٧٩
(٣) السمعاني ، الأنساب ، ص ٥٦٦ .
(٤) الكلاباذي ، التعرف ص ٢٣ .
(٥) الشرباصي ، الغزالي والتصوف الإسلامي ، ص١٤٨ .

البيروني في كتابه : (الفلسفة الهندية) مع مقارنة فلسفة اليونان بالتصوف الإسلامي حيث رأى البيروني (أن عند العرب المسلمين قوماً سلكوا طريق الحكمة ، فلذلك نسبوا إلى هذه الكلمة (سوف) التي سمي بها حكماء الهنود)[1] .

* * *

(١) البيروني . الفلسفة الهندية . ص ٣٢ .

أقوال المتصوِّفة في التصوّف

هي كثيرة منها[1] :

١ ـ قول أبي فيروز الكرخي (المتوفى سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ هـ ـ ٨١٥ ـ ٨١٦ م) وهو الأخذ بالحقائق واليأس ممَّا في أيدي الخلائق .

٢ ـ سُئِلَ الجنيد عن التصوّف فقال : (هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة) .

٣ ـ وقال أيضاً : (التصوف عنوة لا صلُح فيه) .

٤ ـ وقال أيضاً : (هم آل بيت واحد ، لا يدخل فيهم غيرهم) .

٥ ـ وقال أيضاً : (الصوفي كالأرض يطرح منها كلُّ قبيح ولا يخرج منها إلاَّ كلُّ مليح) .

٦ ـ وقول رديم بن أحمد البغدادي : وهو في الطبقة الثانية المتوفى (٣٠٣ هـ ـ ٩١٥ م) (إنه استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده) .

٧ ـ وقال أيضاً : (إنه مبني على ثلاث خصال ، التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقّق بالبذل ، وترك الاختيار) .

٨ ـ وقول أبي محمد الجريري في الطبقة الثالثة المتوفى (٣١١ هـ ـ ٩٢٣ م) (وهو الدخول في كل خُلق سني ، والخروج من كلّ خُلق دني) .

---

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١٢٧ ، وانظر أيضاً اللمع للسراج ، ص ٢٥ .

٩ ـ وقول أبي بكر الشبلي في الطبقة الرابعة المتوفى (٣٣٤ هـ ـ ٩٤٥ م) (التصوف هو الجلوس مع الله بلا هم) .

١٠ ـ وقول أبي تراب النخشي في الطبقة الأولى المتوفى (٢٤٥ هـ ـ ٨٥٩ م) (الصوفي لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء) .

١١ ـ وقول أبي الحسن النوري في الطبقة الثالثة المتوفى (٢٥٩ هـ ـ ٩٠٨ م) (نعت الصوفي السكون عند العدم ، والإيثار عند الوجود) .

١٢ ـ وقول الحسين بن منصور الحلاج في الطبقة الثالثة المتوفى (٣٠٩ هـ ـ ٩٢١ م) (الصوفي وحداني الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحداً) .

١٣ ـ وقول أبي بكر الشبلي (الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق) .

١٤ ـ وقول أبي الحسن علي بن إبراهيم الحصري في الطبقة الرابعة المتوفى (٣٧١ هـ ـ ٩٨١ م) (الصوفي لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدم بعد وجوده) .

١٥ ـ وقال عبد الواحد بن زيد : (الصوفية هم القائمون بعقولهم على همومهم ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيّدهم من شرّ نفوسهم)[١] .

١٦ ـ وسُئل ذو النون المصري عن الصوفي فقال : (هو الذي لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سلب) .

١٧ ـ وأخيراً يجمع السراج هذه الأقوال بقوله : (هم العلماء بالله ،

---

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١٢٦ .

وبأحكام الله ، العاملون بما علَّمهم الله تعالى ، المتحققون بما استعملهم الله عزَّ وجل ، الواجدون بما تحققوا ، الفانون بما وجدوا ، لأنَّ كل واحد قد فني بما وجد)[1] .

* * *

(١) اللمع ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

المؤثرات في التصوف

(التصوف نشأ إسلامياً ولكنه في تطوره تأثر بعوامل خارجية)[1] ويمكن إجمال ما أثر في نشأة التصوف بما يلي :

١ ـ المؤثر الديني :

فالمؤثر الأول للتصوف إسلامي ، فللقرآن وللحديث يرجع المتصوفة المسلمون جميع حركاتهم ، وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم ، التي تستند إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة . ويذهب جولد يستهر : إلى أن فكرة التصوف في القرن الهجري الأول (قد ارتبطت بالمبالغة في الشعور بالخطيئة ، والرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله ، وعذاب الآخرة)[2] . لما ورد في القرآن من قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] ، و﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[4] .

٢ ـ المؤثرات السياسية والاجتماعية :

فقد كان للأحوال السياسية والاجتماعية أثرها في نشأة التصوف ، وهو

---

(١) تاريخ التصوف الإسلامي ، د . عبد الرحمن بدوي ، ص ٤٤ .
(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، رينولد نيكولسون ، ص ٢١ .
(٣) سورة آل عمران ٣/ ١٧٥ .
(٤) سورة الرحمن ٥٥/ ٤٦ .

ما يذهب إليه نيكولسون إذ رأى أن الحروب الأهلية الطويلة الدامية ، والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية ، وازدياد التراخي ، والاستهانة بالمسائل الخلقية ، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين ، عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها ، وحولت أنظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها)[1] .

فقد كان للخلافات السياسية التي نشأت بين المسلمين منذ أواخر عصر الخليفة عثمان بن عفان (بداية عصر الاضطرابات السياسية أثره الكبير في نشأة التصوف ، فقد مزقت الحروب الأهلية التي أعقبت هذه الفتنة المسلمين شر ممزّق ، ولم يلتئم بعد الجرح الذي أحدثته هذه الحروب)[2] .

واستشعر بعض الصحابة خطورة هذا الجو المشحون بالخلافات والاضطرابات السياسية ، وآثروا أن يقفوا من الفرق المتنازعة موقف الحياد ، ولعلَّهم فعلوا ذلك إيثاراً للسلامة ، وابتعاداً عن الفتنة ، وحباً في حياة العزلة ، وهم بهذا كانوا يتجهون إلى نوع من الزهد . ويشير النوبختي إلى ذلك قائلاً : (ومن الفِرَق التي افترقت بعد ولاية علي رضي الله عنه ، فرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد بن حارثة ، فإن هؤلاء اعتزلوا عن علي رضي الله عنه . وامتنعوا عن محاربته ، والمحاربة معه والدخول ببيعته والرضا بها فسمّوا المعتزلة ، وصاروا أسلاف المعتزلة إلى الأبد ، وقالوا لا يحلّ قتال علي ولا القتال معه ، والأحنف بن قيس قال لقومه : اعتزلوا الفتنة أصلح لكم)[3] .

وعند حدوث الفتنة بين الحسن بن علي والأمويين وتنازل الحسن

---

(١) راجع في التصوف الإسلامي وتاريخه ، رينولد نيكولسون ، ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٤، وقارن أيضاً ابن حزم الفصل، ج ٤، ص ٥٣١ .

لمعاوية آثر بعض أنصار الحسن الاعتكاف في منازلهم ، والاشتغال بالعلم والعبادة ، هؤُلاء أيضاً كانوا أسلافاً للمعتزلة من المتكلِّمين وإلى ذلك يشير الملطي بقوله : (وهم سمّوا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن علي ـ عليه السلام ـ معاوية ، وسلَّم إليه الأمر ، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس ، وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي ، ولازموا منازلهم ومساجدهم ، وقالوا : نشتغل بالعلم والعبادة ، فسمّوا بذلك معتزلة)[1] .

فأنت ترى في هذه النصوص أنّ اضطراب الأحوال السياسية ، كان من شأنه في ذلك العصر أن يدفع بعض المسلمين منذ وقت مبكر إلى إيثار حياة العزلة والعبادة تورُّعاً عن الانغماس في الفتن السياسية .

هذا ما يؤكد أنَّ التصوُّف نشأ إسلامياً بحتاً ، وقد بينَّ نيكلسون[2] أن افتراض كون التصوف مستعاراً من الخارج هو افتراض لا يمكن قبوله ، وقد لخَّص لنا الدكتور عبد الرحمن بدوي عوامل نشأة التصوّف فيما يلي :

١ ـ أن التصوف الإسلامي نشأ من التأمل المتواصل للقرآن ، والأحاديث النبوية ، وهكذا تكون نشأته إسلامية خالصة من داخل الإسلام نفسه .

٢ ـ أنه من تطور التصوف والاتصال بالأفكار الأجنبية ، أضيف إلى التصوف الأول قسمات من أصول أجنبية كانت بمنزلة زخارف وتنويعات .

٣ ـ وأنه إلى جانب الأصول الإسلامية العقائدية (القرآن والحديث) ما أثر في إيجاد النزعات عوامل اجتماعية أو فردية وأزمات نفسية .

---

(١) التنبيه في الرد على أهل الهوى ، والبدع ص ٢٨ ـ ٢٩ .
(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ص ٤٩ .

٤ ـ إن أبرز هذه السمات الأجنبية الأصل هي تلك المستمدة من التراث الفلسفي اليوناني ومعظمها مصطلحات ، ثم من الرهبانية المسيحية وهي مجرد عادات في التقوى .

ولن نطيل في هذا المجال وإنما أردنا إعطاء لمحة موجزه عن نشأة التصوف .

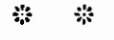

مدارس التصوف[1]

لا بد لكل ظاهرة أدبية من إرهاصات ، وإذا عدنا إلى التصوف وجدنا أن هناك مدارس نشأ التصوف وترعرع بها ، كمدرسة البصرة والمدينة والكوفة ومصر ، والمتتبع لهذه المدارس لا يجد هذا التباين الكبير بين هذه المدارس ، فكلها تركز على الزهد في الدنيا والخوف من الآخرة والعمل لها .

أ ـ مدرسة البصرة :

إذا عدنا إلى البصرة في العصر الأول والثاني للهجرة ، وهي مهد التصوف نجد أن هذا العصر كان عصر ألقها وازدهارها ، فقد فتحت مصراعيها للعلم والمعرفة ، وكانت مدينة عامرة بالمساجد والمعاهد ، وكان مسجدها الكبير مثل جامعة صغيرة تلتقي فيها الحلقات والدراسات ، وانقسم جماعتها قسمين : قسم يهتم باللغة والأدب والرواية ، قسم عكفوا على الفقه والحديث والجدل .

أما سكان البصرة فكانوا طبقات ، فمنهم الموفورون ومنهم المحرومون ، وفيهم العرب والموالي وفيهم الروم والأعاجم . وكانت تتولد إذ ذاك في نفوس البصريين معاني الثورة على الحياة والمجتمع فكان

---

(١) انظر مدخل إلى التصوف ، للغنيمي التفتازاني ، ص ٧٢ .

منهم : الثائرون ، والزهاد والعباد المتعففون ، باعوا بدنياهم آخرتهم وقد أثرت الفتن التي برزت في البصرة بين الخوارج والمتشيعين في تبلور التيار الصوفي .

ومن أبرز أولئك في الزهد الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ (وهو الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد ، ولد في المدينة المنورة سنة ٢١ هـ ، وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ ، ونشأ نشأة صالحة وتفقه في الدين ، وأخذ عن بعض الصحابة ، وتروي بعض الروايات أن الإمام علياً قد شهد له بالعلم وأعجب به)[١] ، وقد وصف خالد بن صفوان « الحسن البصري » فقال عنه : (كان أشبه للناس علانية بسريرة ، وسريرة بعلانية ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمره به غيره ، ياله من رجل استغنى عما في أيدي الناس من دنياهم ، واحتاجوا إلى ما في يديه من دينهم)[٢] .

وكان الحسن البصري إلى جانب علمه بالدين معروفاً بالزهد والورع ، وكان لا بد في رأيه من اقتران العلم بالزهد ، ومن أقواله في الزهد : (الدنيا دار عمل من صحبها بالبغض لها والزهد فيها سعد بها ، ونفعته صحبتها ، ومن صحبها برغبة ومحبة شقي بها ، وأسلمته إلى ما لا صبر له عليه)[٣] وهذا رأي المتصوفة من بعده ، وكان زهد الحسن البصري قائماً على أساس الخوف من الله ، ولذلك يقول عنه الشعراني في « الطبقات » : (وكان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده)[٤] .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ .
(٢) العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .
(٣) انظر الطبقات ، للشعراني ، ج ١ ، ص ٢٥ .
(٤) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦ .

ومنهم أيضاً عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ ، وقد نقل ابن الجوزي عنه في كتاب صفة الصفوة قوله :

(يا إخوتاه ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل ؟ ألا إنه من بكى شوقاً إلى سيده لم يحرمه النظر إليه ، يا إخواتاه ألا تبكون خوفاً من النار ؟ ألا إنه من يبكي خوفاً من النار أعاذه الله منها . . يا إخوتاه ألا تبكون ؟ بلى . . فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله أن يسقيكموه في حظائر القدس مع خير الندماء ، والأصحاب والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)[١] .

وكل ما نلاحظ على زهاد البصرة هو شيء من المبالغة في الزهد والخوف ، وهذا ما أشار إليه « ابن تيمية » .

ب ـ مدرسة المدينة المنورة :

ففي المدينة ظهر زهاد كثيرون مذ وقت مبكر ، وتمسكوا بالقرآن والسنة ، وجعلوا الرسول ﷺ قدوتهم في زهدهم ، وظلوا كذلك بعد انتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق ، وكان من أبرز هؤلاء : أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو ذر الغفاري المتوفى سنة ٢٢ هـ ، وسلمان الفارسي المتوفى سنة ٣٢ هـ ، وعبد الله بن مسعود المتوفى سنة ٣٣ هـ ، وحذيفة بن اليمان المتوفى سنة ٣٦ هـ ، من الصحابة ، وسعيد بن المسيب وسالم بن عبد الله المتوفى سنة ١٠٦ هـ ، من التابعين[٢] .

وقد ترجم الشعراني لبعضهم وأورد أقوالاً لهم في الزهد ، ومن ذلك قولُ أبي عبيدة بن الجراح : (ألا ربّ مبيض لثيابه مدنس لدينه ، ألا ربّ مكرم لنفسه وهو لها مهين ، فبادروا ـ رحمكم الله ـ السيّئات القديمات

---

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ٣/ ٣٢١ .
(٢) وفيات الأعيان ، ٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

بالحسنات الحديثات ، فلو أنَّ أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لَعلَت فوق سيّئاته حتى تغيّرهنّ)[1] .

ومنهم عبد الله بن مسعود الذي يقول : (حبذا المكروهان الموت والفقر) وقوله : (ما أصبحت قط على حالة فتمنيت أن أكون على سواها)[2] .

ومن تابعي المدينة المشهورين بالزهد سعيد بن المسيب ، وقد وصفه ابن خلكان بأنه : (سيِّد التابعين من الطراز الأول ، جمع بين الحديث والفقه والزُّهد والعبادة والورع)[3] .

وممَّا روي عن زُهْده في المال أنه عُرض عليه نيّف وثلاثون ألفاً ليأخذها فقال : (لا حاجة لي فيها ، ولا في بني مروان حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينكم)[4] .

وكان سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد المشهورين بالزهد في المدينة ، وكان متقللاً في مأكله ومشربه ، فقال عن نفسه : (دخلت على الوليد بن عبد الملك فقال : ما أحسن جسمك فما طعامك ؟ قلت الكعك والزيت ، قال : وتشتهيه ؟ قلت : أدعه حتى أشتهيه فإذا اشتهيته أكلته)[5] . وكان يلبس الصوف ويعمل بيديه .

ج : ـ مدرسة الكوفة :

كانت من أصل يمني وتنزع نزعة مثالية بطبعها ، ويستهويها الشواذ في النحو والخيال والشعر ، والظاهر في الحديث ، وكان أصحابها ذوي

---

(١) الطبقات الكبرى ١/ ١٩ .
(٢) المرجع السابق ، ١/ ٢٠ .
(٣) وفيات الأعيان ، ١/ ٢٨٣ .
(٤) المرجع السابق ، ١/ ٢٨٣ .
(٥) المرجع السابق ، ٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

نزعة إلى التشيّع ، ولا غرابة في ذلك ، فقد ظهر التشيّع في الكوفة أول ما ظهر .

ومن شيوخ الزُّهْد في القرن الأول الهجري بالكوفة الربيع بن خيثم (المتوفى سنة ٦٧ هـ) في عهد معاوية ، وذكر له الشَّعراني أقوالاً في الزُّهد نها قوله : (كن وصيّ نفسك يا أخي وإلا هلكْتَ ، وكل ما لا يبغي رحمة الله يضمحل) . وكان يغلب عليه الخوف من الآخرة ، فيذكر الشَّعراني أنَّه كان إذا وجد غفلة من الناس يخرج إلى المقابر فيقول : (كنَّا وكنتم ، ثم يُحيي اللَّيل كلَّه ، فإذا أصبح كأنه نُشِر من قبره)[١] .

ومِنْ زُهّاد هذه المدرسة سعيد بن جُبير الذي مات مقتولاً سنة ٩٥ هـ وهو من التابعين ، وقد قتله الحجاج ، وقد أورد ابن خلكان حواره مع الحجاج ، ويتبين منه زُهده وورعه فقد سأله الحجّاج : (ما قولك في عليٍّ ، أهو في الجنّة أم هو في النار ؟) .

قال : « لو دخلْتها وعرفت منْ فيها عرفتَ أهلها » .

قال : « وما قولك في الخلفاء ! » .

قال : « لستُ عليهم بوكيل » .

قال : « أيهم أعجب إليك ؟ » .

قال : « أرضاهم لخالقي » .

ومنهم طاوس بن كيسان (المتوفى سنة ١٠٦ هـ) وهو من التابعين ، ويقول عنه ابن خلكان إنه كان (فقيهاً جليل القدر ، نبيه الذكر ، وكان محبوباً من أهل البيت ، ومن أقواله : (أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه)[٢] .

---

(١) الطبقات للشعراني ٢/ ١٧٥ .

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٢ ـ ٤٣٤ .

ومن أبرز زهَّاد الكوفة سفيان الثوري (المتوفى سنة ١٦١ هـ) وقد أجمع الناس على دينه وورعه وزُهْدِه وتقشفه وثقته ، وله أقوال في الزهد ، ويذكر أنَّ الجنيد الصُّوفي كان على مذهبه في الفقه وأراد المهدي تَوْليته القضاء ، فهرب منه زهداً وتورعاً .

ومن زُهاد الكوفية سفيان بن عيينة (المتوفى سنة ١٩٨ هـ) ، وكان إماماً عالماً ثبتاً وزاهداً ورِعاً ، تُوفي في مكة ، ومن أقواله : (خصلتان يعسر علاجهما تَرْكُ الطمع فيما في أيدي الناس ، وإخلاص العمل لله)[١] .

ويتحدث أبو العلا العفيفي[٢] عن أثر الثقافات في زهاد الكوفة ، فيرى أنهم تأثروا بالثقافة الآرامية التي كانت امتداداً للفكر الفلسفي الشرقي ، ولكن هذا لا يظهر بوضوح في أقوال زهاد الكوفة ، فلا يبدو تأثرهم بالفلاسفة الأجانب ، وإنما تغلب الصبغة الإسلامية على زهدهم .

د ـ مدرسة مصر :

وهنالك مدرسة للزهد في القرنين الأول والثاني هي مدرسة مصر ، وهي مدرسة سلفية كمدرسة المدينة ، ويذكر من زهاد مصر في القرن الأول الهجري سليم بن عتر التجيبي (المتوفى سنة ٧٥ هـ) ، وقد حكى الكندي في كتاب (الولاة والقضاة)[٣] أنه كان كثير العبادة وتلاوة القرآن ، وأنه كان يصدق فيه قول الله تعالى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾[٤] وقد ولي القضاء بمصر .

ومنهم عبد الرحمن بن حجيرة (المتوفى سنة ٨٣ هـ) الذي ولي القضاء سنة ٦٩ هـ وكان زاهداً في الدنيا عابداً ناسكا ، وعرف له ابن

---

(١) المرجع السابق ، ١/ ٢٦٤ .
(٢) العفيفي ، أبو العلا ، التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، ص ٨٨ .
(٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة ، للكندي ، ص ٣٠٦ .
(٤) الذاريات ٥١/ ١٧ .

عباس علمه ، فقد روىٰ ابن المغيرة أن رجلاً سأل ابن عباس عن مسألة ، فقال : تسألني وفيكم ابن حجيرة ؟ ! .

ومن أقواله : (أن القاضي إذا قضىٰ بالهوى احتجب الله عز وجل منه واستتر)[1] .

ومن الزهاد الذين أقاموا بمصر عبد الله بن عمر المتوفى سنة ١١٧ هـ وهو من كبار التابعين ، وقد بعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم السنن فأقام بها زاهداً ناسكاً[2] .

ومن أبرز زهاد مصر في القرن الثاني الهجري الليث بن سعد[3] (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) وكان مشهوراً بالزهد والنسك ، وهو مصري ولد بقلقشندة ، وكان فقيهاً مشهوراً صاحب مذهب . وخلف هؤلاء في القرن الثالث ذو النون المصري (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) وكان له مذهبه في الزهد والتصوف .

* * *

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٤ .
(٢) وفيات الأعيان ، ٢/١٩٨ .
(٣) المرجع السابق ، ١/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥ .

التصوف حياة روحية

قال رسول الله ﷺ :

(اتركوا الدنيا لأهلها فإنه من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه)[1] .

فالنبي ﷺ كان من أزهد الناس بالدنيا ، وقد حثَّ على الزهد بها ، تؤكد ذلك الروايات التي يوردها ابن عجيبة في ذلك : (أنَّ علياً ، رضي الله عنه ، أخذ علم التصوّف عن النبي ﷺ وأخذه عن علي الحسن البصري ، وأخذه عن الحسن حبيب العجمي ، وأخذه عن حبيب العجمي أبو سليمان داود الطائي (المتوفى سنة ١٦٠ هـ ـ ٧٧٧ م) وأخذه عن داود أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، وأخذه عن معروف أبو الحسن سري بن المفلس السقطي (المتوفى سنة ٢٥١ هـ ـ ٨٦٥ م) وأخذه عن السري أبو القاسم محمد بن الجنيد الخزار الذي تفقَّه على أبي ثور وصحب الشافعي كما صحب خاله السري وأبا الحارث المحاسبي. (توفي الجنيد سنة ٢٩٧ هـ ـ ٩١٠ م) ثم انتشر التصوّف في أصحابه)[2] .

---

(١) موسوعة الحديث النبوي الشريف/ ٣٥١ .

(٢) أحمد بن عجيبة ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ط ١ ، ١/ ٥ ـ ٦ .

يفصّل السهروردي[1] ما دعا إليه الصوفية من أخلاق وهي :

١ ـ أنَّ من أخلاق الصوفية : التواضع ، وقد قال النبي ﷺ : (إن الله تعالى أوصى إلي أن تواضعوا ولا يبغي بعضكم على بعض) . وكان من تواضع رسول الله أن يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو أنَّ جرعة لبن ، ويكافىء عليهما ، ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين . ومن أخلاقهم المداراة واحتمال الأذى من الخلق ، وبلغ عن مداراة رسول الله ﷺ أنه وجد قتيلاً من أصحابه بين اليهود فلم يحن عليهم بل فداه بمئة ناقة من قبله ، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد . ومن أخلاقهم الإيثار والمواساة ، ويحملهم على ذلك فرط الشفقة ، والرحمة طبعاً وقوة اليقين شرعاً .

٢ ـ ومن أخلاقهم التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : (رأيت قصوراً مشرفة على الجنة فقلت يا جبريل : لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) .

٣ ـ ومن أخلاقهم البشر وطلاقة الوجه ! الصوفي بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس ، وقال النبي ﷺ (كلّ معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق).

٤ ـ ومن أخلاقهم الإنفاق من غير إقتار وترك الادخار ، وروي عن النبي ﷺ أنه نهى خادمه عن الادخار قائلاً : (ألم أنهك أن تخبىء شيئا لغد ؟ فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد) .

٥ ـ ومن أخلاقهم التودد والتآلف ، والموافقة مع الإخوان ، وترك

---

(١) السهروردي ، عبد القاهر ، عوارف المعارف ، ص ٢٣٩ .

المخالفة وقال عليه الصلاة والسلام : (المؤمن آلف مألوف لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)[1] .

هكذا فالزهد طريق له خصائص لحياة روحية سامية ، فهو إعراض (عن جميع ما في الدنيا ، وأن يخلي المتصوف قلبه مما خلت منه يداه ، وأن تفقد الدنيا في عينيه كل قيمة ، ويشترط ألا يكون الزهد خوفاً من النار أو رجاء للجنة ، بل ميلاً وطيداً هادئاً عن الدنيا حتى يستطيع المتصوف أن ينصرف بكليته إلى الله) .

من هنا نجد أن من المواضيع التي ركز عليها المتصوفة :

١ ـ ذم الدنيا والسعي وراء الآخرة : من ذلك قول الحسن البصري : (احذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاتلة؛ التي تزينت بخدعها وغرت بغرورها ، وقتلت أهلها بأملها ، وتشوفت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ! العيون إليها نافذة ، والنفوس لها عاشقة ، والقلوب إليها ولهة ولألبابها دافقة ، وهي لأزواجها كلهم قاتلة فلا الماضي منهم معتبر ، ولا الآخر بما رأى سن الأول مزدجر ، ولا اللبيب بكثرة التجارب منتفع ، ولا العارف بالله والمصدق له حين أخبر عنها مدكر ، فأبت القلوب لها إلا حباً ، وأبت النفوس بها إلا ضناً) .

٢ ـ الدعوة إلى الزهد في الدنيا ، والتقشف والتقليل من متعها ، وساق لبيان ذلك الحسن البصري نماذج من سير الأنبياء ، فأما سيدنا محمد ﷺ فشد الحجر على بطنه من الجوع ، وأما موسى عليه السلام فرئيت خضرة البقل من صفاق بطنه من هزاله ، وما سأل الله تعالى ، يوم أوى إلى الظل ـ إلا طعاماً يأكله من جوعه . ولقد جاءت الروايات عنه أن الله تعالى أوحى إليه أن : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل : مرحباً

---

(١) الشرقاوي ، رابعة العدوية ، ص ١٧ .

بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى قد أقبل فقل : ذنب عجلت عقوبته ـ وإن شئت ثلثت بصاحب الروح ، والكلمة (عيسى بن مريم ففي أمره عجيبة كان يقول : أدمي الجوع وشعاري الخوف ، ولباسي الصوف ودابتي رجلي ، وسراجي بالليل القمر ، وصلاتي في الشتاء الشمس ، وفاكهتي وريحاني ما أنبتت الأرض للسباع والأنعام . أبيت وليس لي شيء ، وليس أحد أغنى مني)[1] .

٣ ـ كلهم يدعون إلى محاسبة النفس والشعور بالمسؤولية ، وذلك من قوله تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[2] .

يقول الحسن البصري : (رحم الله رجلا خلا بكتاب الله ، فعرض عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعتب وأناب ، وراجع من قريب)[3] .

٤ ـ الدعوة إلى إصلاح النفس قبل إصلاح عيوب الآخرين : يقول : (لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمرهم بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح عيب آخر ينبغي له أن يصلحه ، فإذا فعل بعيب ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره)[4] .

* * *

(١) حلية الأولياء ، ٢/ ١٣٥ ـ ١٣٧ .
(٢) سورة الإسراء ١٧/ ١٣ ، ١٤ .
(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ٣/ ٦٩ .
(٤) المرجع السابق ٣/ ٧٠ .

الفصل الثاني

المرأة في الإسلام

مكانة المرأة في الإسلام .

نساء صوفيات .

مكانة المرأة في الإسلام

بلغت المرأة العربية في الإسلام مكانة مرموقة ، وتربعت على عرش مجتمعها بوصفها الأم والابنة والأخت والزوجة ، وقد أثرت المرأة في المجتمع الإسلامي أكبر تأثير فكانت (العضد الأقوى والساعد الأشد في نشر آيته ، وبلوغ غايته .

ولقد وضح صبح الإسلام فظهرت المرأة العربية في مشرق نوره ، مملوءة اليدين من حق موفور وفضل مأثور . فياضة النفس بما شئت من وجدان وإيمان ثم أبصرت فإذا مجال القول متسع ، ومستبق العمل فسيح ، فانطَلَقَتْ تَسْتَنُّ ملء عنانها ، وهنالك ، في أبعد شأن الفضيلة ركزت لواءها ، واعتمدت بناءها ، فتساقطت الألوية ، وانتقضت الأبنية دونها .

ففي تصريف الحوادث ، وفي تكوين الرجال ، وفي نشر مطارف العلم ، ونثر طرائف الأدب ، تجد أثرها أشبه ما يكون بأثر الغدير الهادىء الفياض ، في زهر الرياض .

ونحن أولاء مرسلو القول في كل آثارها ، مستعينين بمعونة الله ، وحسن توفيقه ، فهو وحده مرجع الأمر ، ووليّ التوفيق .

تتابعت في الإسلام حوادث عظام ، وتناوبته شدائد ثقال . وهي على عظمتها ، وفداحة أمرها ، لم تقع بمنجاة عن المرأة ، ولا بمعزل عن تصريف زمامها وتدبير الرأي فيها .

وهي إن تولت بالنقد في بعض تلك المواطن ، فتلك سنة التاريخ في كل عمل عظيم ، من عامل عظيم . ونحن مجملون لك القول في تلك الحوادث ، ومبلغ رأي النساء فيها ، واستمكان أثرها منها)[1] .

فمنذ بداية الدعوة الإسلامية لمعت امرأة من أعظم النساء ، كانت داعمة وواقفة وقفة الأقوياء إنها السيدة **خديجة بنت خويلد** فمنذ ساعات النبوة الأولى عندما نزل الروح الأمين على الرسول الكريم عاد إلى زوجه خديجة فزعاً ممّا سمع فقالت : اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك ، وما هو بشيطان ، ثم جمعت ثيابها وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان رجلاً عليماً ، فقال لها ورقة : قدُّوس قدُّوس . . . ! والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبيُّ هذه الأمة فقولي له : فليثبت .

(على ذلك النسق البديع الفريد ، سارت خديجة أم المؤمنين في تثبيت قلب النبي ، وترويح نفسه وتأييد أمره فلم ير شيئاً يحزنه من رد عليه ، وتكذيب له وسخرية به ونفور منه إلا فرجت صدره ، وأذهبت حزنه وأثلجت قلبه وهوّنت الأمر عليه)[2] .

والمرأة الثانية التي برزت في الدعوة الإسلامية **رُقية بنت صفي** التي استشفت خبر قريش يوم ائتمروا بالنبي ليقتلوه ليلاً في داره ، فذهبت تدرج حتى انتهت إلى رسول الله ﷺ ، فحذرته مبيته في داره ، وأشارت عليه بالنقلة والرحيل ، وحدثته حديث القوم ، ففارق لساعته وطنه الأعز ، مدرج طفولته ، ومعقد أُلفته ، ومهبط نبوته ، ومرتقى مناجاته ، وعبادته إلى دار هجرته ، وموطن أنصاره وشيعته[3] .

---

(١) المرأة العربية ، ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٢) المرأة العربية ، ٢/١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

هل ذكر أحد منا أن وراء هجرة الرسول الكريم امرأة مناصرة له ومرشدة .

واسم آخر يلمع في سماء الإسلام ، إنه اسم أسماء بنت أبي بكر ، الصبية الناشئة التي كانت تذهب إلى غار في جبل ثور (تمسيهما كل ليلة بالزاد والماء ، وبما عسى أن تكون قد سمعته أو رأته من حديث القوم وخبرهم)[1] .

أما المرأة التي أخذنا عنها نصف الدين فهي السيدة **عائشة أم المؤمنين** العالمة في الحديث والفقه .

عندما لحق النبي ﷺ ربه (كانت عائشة أمُّ المؤمنين لم تخط التاسعة عشرة : على أنها ملأت أرجاء الأرض علماً ، فهي في رواية الحديث نسيج وحدها ، ولم يكن بين أصحاب رسول الله ﷺ من كان أروى منها ، ومن أبي هريرة على أنها كانت أدق منه وأوثق ، وكانت من أنفذ الناس رأياً في أصول الدين ، ودقائق الكتاب المبين ، وكان زعماء الصحابة إذا شككت عليهم الفرائض فزعوا إليها ، فحسرت حجبها ، وكشفت سحبها . ولم يكن نفاذ رأيها ورجاحة كفتها وقفاً على الدين وحده .

وكذلك كان نفاذها في الطب وعلم الكواكب والأنواء والأنساب ، وما إلى كل ذلك ، فذلك عروة بن الزبير فقيه المسلمين يقول : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر سن عائشة من الإحاطة بحوادث الأمم ومشكلات التاريخ)[2] .

أما ما قدمه الإسلام للمرأة فيمكن تلخيصه فيما يلي :

قاوم الإسلام تشاؤم العرب من البنات وكراهتهن ، وكان في سيرة

---

(١) المرجع السابق ، ٢/ ١٢٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ، ٧/ ٣٩ ـ ٥٦ .

الرسول عليه الصلاة والسلام أكبر دليل على ذلك فقد قال ﷺ : (أنا أبو البنات) .

كما منع الإسلام وأد البنات ، تلك العادة المنتشرة قبل الإسلام وفي القرآن الكريم تحذير من ذلك : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1] .

وعبر عن ذلك وقرنها بالحوادث الجلل في قوله : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[2] .

كما واجه الإسلام الرجل المرأة على حد سواء ففرض عليهما واجباته ، وجعل مسؤولياتهما في ذلك سواء ، (وللنبي اجتماعات غير منقطعة بالنساء للتبشير بالإسلام)[3] .

ومن اهتمام الإسلام بالمرأة أنه أفرد لها في القرآن سورة كاملة اسمها (سورة النساء) لتبين ما لهنَّ وما عليهنَّ .

وقد أعطى الإسلام المرأة حق التملك الشخصي كما في الآية : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾[4] . (وأعطاها أهلية التصرف الكامل في مالها بيعاً وشراء في تجارة أو غيرها متى بلغت الرشد . . ولها أيضاً حق الولاية على القاصرين التركات بالوصاية والتقديم ، وترعى الأبناء وتقوم على ضبط الأموال ، وليس من

---

(١) سورة النحل ١٦/ ٥٨ ـ ٥٩ .
(٢) سورة التكوير ٨١/ ١ .
(٣) الحداد ، طاهر ، امرأتنا في الشريعة ، ص ١٦ .
(٤) سورة النساء ٤/ ٣٢ .

المعقول أن يعطيها الإسلام كل هذه الحقوق التي يؤيدها أغلب فقهائه ، وهو جازم بنقصها الذاتي ، وعدم قابليتها لاستعمالها في حق نفسها وحق من تتولاه)[1] .

والواقع فقد (أسفر نور الإسلام فافتر ثغر الدهر لنساء العرب عن جو مشرق ، وأمل بعيد ، وأسلوب من الحياة جديد . لقد كان للمرأة في عهد الجاهلية فضائلها المكسوبة ومواهبها الموروثة ، وحقوقها التي تم لها بعضها ، وسلب الجهل وسوء نظام الاجتماع بقيتها ، فأما وقد رسخت أصول الإسلام وورفت ظلاله ، وخفقت على الخافقين أعلامه ، ونعمت هي تحت ظله بوثوق الإيمان ، وتقلبت بين أعطاف الملك ونهلت من معين العلم ، وضربت بسهم في التشريع ، وشرع لها من الحقوق ما لم يشرع لأمة من الأمم في عصر من العصور ، فقد أمعنت في سبيل الكمال طلقة العنان ، حتى أخجلت مَنْ بين يديها ، وأعجزت مَنْ خلفها ، فلم تشبهها امرأة من نساء العالمين في جلال حياتها ، وسناء منزلتها) .

والسؤال الذي يفرض نفسه هو ما مدى تأثير هذا الدين الجديد في المرأة ؟ . .

(إن إيمان المرأة لا مثار فيه للريب ، ولا مجال للشبهات فهي لا تعتصم بالتأويل ، ولا تفزع إلى الحيلة . . فإذا أشربت ذلك الإيمان منذ أول عهدها ، ولدونة عودها وجدت الله ملء سمعها وبصرها ، قلبها ، وسريرتها ، فلا تشعر إلا به ، ولا تعمل إلا له ولا تقدم على ما عساه يستنزل سخطه)[2] .

(فللمرأة من دقة الحسن ، وقوة العاطفة ، وبعد الخيال فوق

---

(١) عفيفي ، عبد الله ، المرأة العربية ، ٢/ ١٣ .
(٢) المرجع السابق ، ٢/ ١٣ .

ما للرجل ، فهي لا تبرح الدهر بين خاطر متوثب ، ووجدان متأثر ، لا تكاد تستمع خبراً أو تلمح منظراً ، أو تطيف بها ذكرى حتى ينال ذلك من أعماق نفسها ، وأسرار وجهها وشؤون عينيها . وربما ألمت بالحديث وهي تعلمه ضرباً من الخيال فلا تزال رغم ذلك بين دم يتصعد ثم يتحدر ، وقلب يثب ثم يطمئن ، ووجه يربد ثم يشرق ، وعبرة تطفو ثم تنحسر ، حتى تنتهي منه وقد استبقى أثراً لا تملك أن تمحوه . ذلك خلق المرأة وتلك شيمتها فطرة طيبة ، وسريرة صافية وقلب دائم الخفقان)[1] .

من هنا نجد أن سيدتنا خديجة ، رضي الله عنها ، أول من صدقت الرسول ﷺ .

(فأول قلب خفق بالإسلام وتألق بنوره قلب امرأة من نساء العرب ، وما كانت تلك المرأة في سواء النساء بل لقد هيّأ لها من جلال الحكمة وبعْد الرأي ، إلى ذكاء الحسب ، وذكاء القلب ما عزَّ على الأكثرين من الرجال فلم تأخذ الدين مشايعة ، ولم تتلقَّه مجاملة بل أخذته عن تأثر به ، وظمأ إليه)[2] .

(ومن اللواتي استعذبن العذاب سمية أم عمار بن ياسر كان بنو مخزوم إذا اشتدت الظهيرة ، والتهبت الرمضاء ، خرجوا بها هي وابنها وزوجها إلى الصحراء ، وألبسوها دروع الحديد ، وهالوا عليهم الرمال المتَّقدة ، وأخذوا يرجمونهم بالحجارة)[3] وهي ثابتة صامدة في سبيل الإسلام .

(وما كان ثبات المرأة وقوة نفسها ، وسبوغ يقينها ، واستهانتها بالموت في سبيل دينها ، وقفاً على عهد رسول الله . بل لقد صحبها كل

---

(١) المرجع السابق ، ٢/ ٥ .
(٢) المرجع السابق ٢/ ٨٦ .
(٣) المرجع السابق ، ٢/ ٨٧ .

ذلك ، وخامر لحمها ودمها في كل أدوار عظمتها ، وظهور شأنها . وإنما نريد بعهد عظمة المرأة العربية ذلك العهد الذي احتفظ العرب فيه بعصبيتهم العربية ، ذلك عهد الراشدين ، والعهد الأموي ، وأوائل أيام العباسيين بالعراق ، والفاطميين بمصر ، وبني مروان بالأندلس)[1] .

أما من ناحية الشعر والأدب فقد بدأت المرأة تنتفض انتفاضتها الثقافية ، وجنحت نحو الأدب وعنيت بالشعر عناية كبيرة ، ففي البصرة كان للمرأة آراؤها الصوفية ، وخير مثال على ذلك مجالس رابعة العدوية مع المتصوفة . وفي العهد الأموي برزت محافل أدبية تقيمها النساء ، وتبادل فيها المناظرات والمساجلات وما إليهما ولمعت أسماء شواعر كثيرات .

وأخيراً فالمرأة نصف المجتمع ولا بد لها من التأثر به والتأثير فيه ، لذلك ولأهمية دور المرأة سنصلّت الضوء على بعض النساء الصوفيات ، ثم على بعض الشواعر اللواتي أسهمن في الشعر الصوفي .

* * *

(١) المرجع السابق ٢/١٣ .

نساء صوفيات

نفيسة بنت الحسن :

هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهم (السيدة المكرمة الصالحة العلوية الحسنية الحسينية ، الكريمة النسيبة ، صاحبة المناقب الجسيمة)[1] .

ولدت هذه المرأة الصالحة في البلد الأمين في أم القرى مكة المكرمة سنة (١٤٥ هـ) ، كان أبوها الحسن بن زيد بن الحسن (أبو محمد) شيخ بني هاشم في زمانه ومن الأشراف النابهين ، وهو معدود في التابعين ، وكان بنو هاشم يرجعون إليه في أمورهم ، فقد كان عالماً وخطيباً ناهيك بما ألبسه الله من تاج الهيبة والدين زكاء الأصل .

صور من زهدها وعبادتها :

(بلغت نفيسة ابنة الحسن شأواً بعيداً في العبادة والفلاح ، وكانت من الصلاح والزهد بمكان لا ترتقي إليه امرأة ممن عاصرنها ، فمنذ بداية نشأتها ، تعلّقت بحب كتاب الله تعالى ، فكانت موصولة القلب بالعزيز الحميد ، تقرأ كتابه حين تصبح وحين تمسي وحين تُظهر ، وواظبت على

---

(١) وفيات الأعيان ٥/٤٢٣ ، ٤٢٤ ، النجوم الزاهرة ٢/١٨٥ ، ١٨٦ ـ سير أعلام النبلاء ١٠/١٠٦ ، ١٠٧ .

قراءته مدة حتى حفظته ، وأجادت استظهاره كاملاً . ثم إن نفسها تاقت لمعرفة علوم القرآن ، فراحت تتابع علوم التفسير ، حتى رسخت في هذا الفن ، وتم لها ما أرادت ، وغدت متفردة في معرفة تفسير القرآن العظيم ، والوقوف على أسرار معانيه ، والتبحر في آفاق مثانيه ، وامتلأت نفسها نوراً ، وقلبها علماً وحكمة من معرفتها إتقان علوم القرآن وحفظه وتفسيره)[1] .

(ويبدو أن نفيسة قد وجدت لذة عظيمة في العبادة ، ومناجاة الله تعالى ، فكانت كثيرة البكاء والخضوع بين يدي الله تديم قيام الليل ، والدعاء في الأسحار ثم تصوم النهار ، بل كانت ممن سردن الصيام أكثر من نصف قرن من الزمان ، وورد أنها كانت تقلل من تناول الطعام ، فلا تأكل إلاَّ مرة واحدة في ثلاث ليال ، وكانت في ذلك شديدة الورع ، فلا تأكل من غير مال زوجها شيئاً خيفة أن يكون مال غيره مشوباً بشيء من الحرام .

وهي صاحبة الكرامات والبرهان ، وقد شاع ذكرها شرقاً وغرباً)[2] .

ـ أم البنين بنت عبد العزيز :

هي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان الأموية القرشية أخت عمر بن عبد العزيز ، وزوج الوليد بن عبد الملك[3] . كان مولدها بعيد منتصف القرن الهجري الأول ، وهي إحدى فقيهات النساء في القرن الهجري الأول ، وإحدى العابدات الحافظات المحدثات الطاهرات الفصيحات الحكيمات ، ذوات الرأي والحزم والجود والسخاء ، وكانت على سيرة أخيها عمر في الصلاح والخيرات .

---

(١) انظر الخطط التوفيقية ٧/ ٣٠٧ .

(٢) نساء من التاريخ ص ٦١٣ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٢/ ١٨٦ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء ، ص ٤٨٠ ـ نسب قريش ، ص ١٦٥ .

العابدة والعالمة والفقيهة :

على مائدة العلم تغذت أم البنين بنت عبد العزيز ، ودرجت على منابت الثقافة الإسلامية ، فقرأت القرآن الكريم ، وهي في سن الزهر وحفظت شيئاً جماً من الأحاديث النبوية ، وهي في عمر الورد ، وروته عن أهله وهذا ليس بغريب ، لأن المدينة المنورة كانت عصر ذلك موئل العلم والعلماء ، ومجمع الرواة والفضلاء ، وركز على الفضيلة ، وعاصمة الفقه والرواية والتفسير والأدب وجميع العلوم ، وقد نشأت في عصر أم البنين طبقة ممتازة من النساء اللواتي أثرن إعجاب علماء الدنيا في عصرهن وباقي العصور ، وأثرن في العلم ، وأثرن في المعرفة ، وتركن أثاراً مباركة في عالم الرواية المباركة لأحاديث المصطفى ﷺ[1] .

(وكانت أم البنين من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، تستحضر مهابة الله وتستشعر عظمته في نفسها دائماً ، وتتعاهد كتابه الكريم في العشي والإبكار ، وتتحلى بسماعه وقراءته ، وحفظه ودراسته ومراجعته ومذاكرته ، حتى غدت ممن عرفن بالورع ، والخوف من الله ، فكانت إذا مرت بها آية أو سمعت آية شعرت بالخشية تسري في حنايا قلبها المفعم بذكر الله ، لذلك كانت كثيراً ما تردد قولتها المشهورة : ما تحلّى المتحلون بشيء أحسن عليهم من عظم مهابة الله عزَّ وجلَّ في صدورهم)[2] .

مُخة بنت الحارث : (معلّمة الزهّاد)[3] :

(اسمها مُخّة بنت الحارث المروزيّة ثم البغدادية)[4] الزاهدة

---

(١) نساء من التاريخ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢٩٩ .
(٣) نساء من التاريخ ، ص ٥٩٥ ، أعلام النساء ٢/ ١٦ .
(٤) تاريخ بغداد لخطيب البغدادي ، ١٤/ ٤٣٦ ، ٤٣٧ وحلية الأولياء ٨/ ٣٥٣ ، وصفة الصفوة ٢/ ٥٢٤ ، ٥٢٧ .

الصالحة التقية الورعة ، أخت بشر بن الحارث الموفق بالورع والزهد ، المعروف ببشر الحافي ، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، لم تكن مُخَّة وحيدة في الورع ، وإنما كان لها أخوات غيرها وهنّ :

(مُضْغَة وزبدة) وكانتا زاهدتين عابدتين ورعتين .

مُـخَّـة وأثرهـا في بشـر :

(يبدو أن مخة كان لها كبير الأثر في أخيها بشر الحافي ، الذي فاق أهل عصره في الزهد والورع ، كانت مخة على جانب كبير من الصلاح والتقوى والصلاة والقيام وصيام التطوع ، فقد أخرج الخطيب البغدادي عن أبي عبد الله القحطبي قال : كان لبشر أخت صوامة قوامة)[1] .

ومن أخبار مخة نرى أنها كانت تألف أخاها بشراً ، وتكبر زهده الذي لا يطيقه إلا عظماء الزهاد ، كما كان بشر نفسه يجد في أخته مخة منبع الورع والزهد ، ولذلك ألمّ به شيء كان مرجعه إليها فقد كان زاهداً كثير الورع . ولزبدة أقوال نفيسه منها : (أثقل شيء على العبد الذنوب وأخفه عليه التوبة ، فما له لا يدفع أثقل شيء بأخف شيء)[2] .

(يبدو من أخبار مخة بنت الحارث أنها كانت تعمل في غزل القطن ، فكانت تشتريه ، ثم تغزله وتبيعه ، وتنفق من عمل يدها ، وقد وَرَّثَت أخاها بشراً وعلمته هذه الصنعة ، فكان يعمل المغازل ويعيش منها حتى مات .

وكانت مُخَّة ـ رحمها الله ـ على جانب كبير من الصلاح والتقوى والصلاة والقيام وصيام التطوّع ، وكانت مُخَّة مع صيامها وقيامها وصلاتها وعبادتها ، عفيفة النفس لا تقبل من أحد شيئاً ، بل كان مغزلها كالسيف

---

(١) تاريخ بغداد . ١٤/ ٤٣٧ .

(٢) وفيات الأعيان ١/ ٢٧٦ .

في يد المجاهد الذي يغنم ، لذلك فقد نشأ بشر على هذا المنوال فكان لا يقبل من أحد عطيَّة أو هدية)[1] .

أُنْس بنت عبد الكريم :

هي أنس بنت عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز ناظر الجيش ، المصرية القاهرية ، ولدت في بحر القرن الثامن الهجري وتوفّيت (٧٨٠ هـ) في مصر .

وهي زوج (الحافظ ابن حجر العسقلاني)[2] صاحب التصانيف المشهورة والكتب النافعة المنثورة التي طبقت شهرتها وشهرته المعمورة ، وعلم الأعلام هذا نعته السيوطي بقوله[3] : شيخ الإسلام وإمام الحفَّاظ في زمانه ، وحافظ الديار المصرية بل حافظ الدنيا مطلقاً .

(نشأت أنس بنت عبد الكريم في أسرة تحفّها غُرر الشرف من كل جانب ، إذ إن أسرتها من كبريات الأسر ، التي ورثت المكارم كابراً عن كابر ، فقد كانت أسرتها من الأسر المعروفة بالرئاسة في القرن الثامن الهجري ، كما أن أفراد أسرتها معرفون بأنهم من العلماء ، ومن أعلام الفقه والأدب ، يضاف إلى ذلك كلَّه أنهم كانوا أصحاب حشمة وخيرات وإحسان إلى الناس)[4] .

وبعد أن تزوجت الحافظ ابن حجر أخذت تقبس من معارفه ، فنبغت في علم الحديث ومعرفته ، حتى غدت من المحدِّثات الفاضلات في عصر افتقر إلى المحدثات العالمات .

ولم يقف ابن حجر عند هذا الحد من التعليم ، بل استطاع أن يحصل

---

(١) نساء من التاريخ ، ص٩٥٧ .
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للسخاوي ، ٢/ ٣٦ ـ ٤٠ .
(٣) طبقات الحفاظ للسيوطي ، ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨ .
(٤) نساء من التاريخ ، ص ٢٠٨ .

لزوجه العالمة أنس جملة من الإجازات العلمية باستدعاء عدد من حفَّاظ العصر ، وعدد من المسندين ، وممَّن أجاز لها :

(أبو الخير بن الحافظ ، العلائي ، أبو هريرة عبد الرحمن بن الحافظ الذهبي ، وخَلْقٌ من مختلف العواصم الإسلامية من المصريين والشاميين والمكيين واليمنيين)[1] .

(ومن الجدير بالذكر أن النساء المسلمات قد كن في السابق متلهفات لمعرفة أمورهن ، مشغوفات لتلقي العلم من أهل العلم ، ساعيات إلى تعلم الموعظة ، بعيدات عن الريبة وأسباب الفتنة ، وكانت ضيفتنا أنس بنت عبد الكريم من هؤلاء النساء اللواتي عرفن طريق النور ، وتعلقن بأسباب العلم)[2] .

وقد قصدها طلاب العلم من كل فج عميق ، مما جعل زوجها يقول لها : (قد صرت شيخة يا أنس) ، وبهذا قد علا صيت أنس ابنة عبد الكريم في أفق المعرفة ، وسطع نجمها في سماء العلم فقصدها الأفاضل والأماثل وشداة العلم للقراءة عليها . وقد بلغت من التمكن في العلم والإقراء مبلغاً ميموناً ، فقد حدَّثت بحضور زوجها الحافظ ابن حجر وهو الحبر العالم في العلم والعمل .

ـ فاطمة بنت علي البشرطية الشاذلية الحسنية الحسينية :

التونسية الأصل ، العكارية المولد (١٣٠٨ هـ) من طالبات المعرفة والتصوف ، كان والدها شيخاً ، ففتحت عينيها في عكار على بيت كان ملتقى أهل العلم والفكر والمعرفة والتصوف والأدب ، ومنذ أن ترعرعت وجدت نفسها تعيش مع هؤلاء العلام من العلماء في حلقات الدرس

---

(١) الضوء اللامع (١٢/ ١١) .

(٢) نساء من التاريخ ، ص ٢١٠ .

والمذاكرة وفي مجالس أهل العلم والمعرفة ، وراح أبوها يسعى لتوجيهها إلى ناحية العلم والتصوف ، وإلى الثقافة الإسلامية والدينية)[1] .

وبالإضافة إلى تلك التربية الفريدة ، كان الشيخ علي (يُعوِّد ابنته فاطمة منذ نعومة أظافرها على مكارم الأخلاق ، وفعل الخيرات والعلم الصالح ، والشكر لله بالبذل والعطاء والتضحية)[2] .

وهكذا فإن (نساء العرب في الإسلام لم يدعن لرجالهن خلة يستأثرون بها دونهن ، ولم يتركن طرقاً من طرق العظائم ولا مشرفاً من مشارف المكارم إلا وكنَّ من السابقات إليه ، فقد أَثْرَت المرأة العربية في العصر الإسلامي من تاريخنا الوضيء في الفضائل بجميع ألوانها وأنواعها وأشكالها . لقد برزت المرأة إلى ميادين القتال أحياناً ، وحلقت في سماء الفروسية ، وطالت الثريا في الشجاعة ، وهمست في أذن الجوزاء تحكي له مآثرها ، وبرزت المرأة في ميادين العلم والفقه ، وأبدعت في رحاب الأدب والفن والمعرفة، ورفرفت فوق سموات البلاغة والفصاحة والبيان، ولم تدع مكرمة إلا أدلت دلوها فيها، وأبانت عن مكانتها وفضلها.

ولم تقف المرأة المسلمة لتزاحم الرجال في مواطن الفضيلة ، ولكنها كانت العضد الأقوى في الوصول إلى الكمال. ولقد حفلت مجالس الخلفاء ، وقصور الأمراء بمواقف رائعة ناصعة للمرأة التي أثرت الدنيا بفرائد أقوالها وجمال بيانها وكمال أدبها، ووفرة معرفتها وسمو غايتها)[3].

واستطاعت أن تحفظ أجزاء من القرآن في سن الطفولة ، هكذا كانت تربية فاطمة اليشرطية ، تربية صوفيه وتهذيبها تهذيباً روحياً ، وتعليمها تعليماً شرعياً ، فمنذ أن كانت في الخامسة من عمرها كانت من

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

المحافظات على أداء الصلوات الخمس ، وتلاوة الأوراد والأدعية بتوجيه من والدها الشيخ علي نور الدين اليشرطي .

فكان الشيخ علي اليشرطي يتكلم في مجلسه في جلسات يحضرها العلماء والفضلاء ، وكانت ابنته فاطمة تجلس بين يديه معهم كي تتلقى العلم والمعرفة ، وعمرها إذ ذاك لا يتجاوز الرابعة ، وكانت الآنثى الوحيدة والطفلة المعتنى بها مع أولئك الكبار .

ولقد منَّ الله على الطفلة فاطمة بذكاء وفهم ، فكانت تتلقى علوم القرآن الكريم وحفظه على يد امرأة من حفظة القرآن ، وكانت تؤم بيت والدها وتدعى (عائشة محمد شاهين) ، وكان الشيخ علي اليشرطي يزوِّد ابنته الصغيرة بشتى ألوان المعارف التي تتناسب مع سنها .

(كما حافظت المرأة على عنصرين هامين في تراثها الأنثوي هم العفة والأنفة ، وهي في طريقها الصاعد نحو الآداب الاجتماعية ، ومجالس العلم وسداد الرأي ومزاولة الشعر خاصة ، وإذا بأسماء أنثوية تلمع هنا وهناك في سماء العصر ، وفي مختلف الميادين)[1] .

فهذه (عائشة بنت طلحة بن عبد الله) الصحابي كان لها العقل الراجح والرأي السديد ، وكانت إذا حَجَّت تلاقي في مجالسها الشواعر والشعراء فتسيل من بين يديها الجوائز .

وهذه (سكينة بنت الحسين بن علي) ويذكر صاحب العقد أنها كانت معاصرة (لعائشة بنت طلحة) في المدينة ، وكانتا تسميان عقيلتي قريش ، عرفت بعفتها ، ومجالستها للأجلَّة من قريش ، ويذكر أبو الفرج في كتاب الأغاني[2] أنها كانت تشرع أبواب دارها للناس ، والشعراء ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٣ .
(٢) الأغاني ١٦/١٥١ .

فتولم لهم ، وتناقش أهل الفكر في الشعر والأدب وتنتقد وتجيد .

وهذه (أسماء بنت أبي بكر) المعروفة بذات النطاقين ، وهي والدة عبد الله بن الزبير ، ومن الأدلة على أنفتها وحزمها ، ما رواه ابن الأثير من تحريضها ابنها على ملاقاة الموت بعنفوان يوم يئس من النصر وهو محصور بمكة . وكما أن هناك ليلى الإخيلية ، والخنساء وعمرة الجمحية من أسماء نساء خلدهن التاريخ .

أما النساء الأديبات المتصوفات فهن عديدات لعلّ أول من سن سنة العشق الإلهي من النساء هي (رابعة العدوية) التي بكت فأوجعت وأحبت فأولعت .

ولدت رابعة بالبصرة ، إبان ظهور الزهد فيها على يد الحسن البصري ، فأشبعت ، وغيرها من معاصريها بالزهد ، وبرزت كنقطة تحول مهمة في الزهد الإسلامي الممهد لظهور التصوف فيما بعد بمعانيه ورموزه ، سلكت رابعة طريق الله ، وعاشت منذ عرفت الطريق إلى الله وروحها هائمة في الحب الإلهي ، وهذا ما نراه في قولها :

أحبُّكَ حُبَّيْنِ حُبُّ الهَوى ... وحُبٌّ لأنَّك أهلٌ لِذاكا
فأمَّا الَّذي هو حُبُّ الهوى ... فَذكْرٌ شغلتُ به عن سِواكَا
وأما الَّذي أنتَ أهلٌ له ... فكشفُكَ لي الحُجْبَ حتى أرَاكا[1]

لن نطيل الحديث عن رابعة لأنه سوف يكون لنا معها وقفة مطولة في البحث بوصفها رائدة الحب الإلهي .

أما في الشام فقد لمع اسم (رابعة الشامية) الزاهدة المتعبدة التي تقوم الليل كله ، وكانت لها أحوال شتى يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف ، وفي حال الحب تقول :

---

(١) الروض الفائق في المواعظ والرقائق ١١٧ . ديوان رابعة ص ٨١.

حَبيْبي ليْسَ يَعْدِلُهُ حَبيبُ وما لِسِواهُ في قَلبي نَصيبُ
حَبيْبي غابَ عن بَصَري ولكنْ في فؤادي مَا يغيبُ[1]

ويطالعنا من الشام أيضاً اسمٌ لمتصوفة أخرى هي (ميمونة السوداء) وهي شاعرة أخرى تحدثت في شعرها عن المعرفة الصوفية لله تعالى ويلاحظ في شعرها ما يلاحظ في شعر الصوفيين عامة من وجدانية ، من ذلك قولها :

قلوبُ العارفين لها عيونٌ ترى ما لايراه النَّاظرونا
وألسنَةٌ بسرٍ قد تناجي يغيبُ عَن الكرام الكَاتبينا
وأجنحةٌ تطيرُ بغيرِ ريشٍ إلى ملكوتِ ربّ العالمينا[2]

ومن الشواعر المتصوفات (ريحانة) وهي شاعرة صوفية أكثرت من قيام الليل تعبداً وبكاءً من خشية الله ، ودعت ريحانة المتعبدين إلى قيام الليالي ، ودراسة القرآن والتأمل في آلاء الله .

ومن أقوالها :

بوجهكَ لا تُعذِّبْني فإنّي أؤمِّل أن أفوز بخيرِ دارِ
منجَّدةٍ مزخرفةِ العلالي بها المأوى ، ونعم هي القرارُ
وأنتَ تُجاور الأبرارَ فيها ولولا أنتَ ما طابَ المزارُ[3]

وأخيراً وبعد أن تبلور التصوف في الأذهان ، وأصبح فلسفة قائمة بذاتها برزت (عائشة الباعونية) الدمشقية الصوفية التي تنسكت على يد إسماعيل الخوارزمي، ثم على خليفته المحيوي يحيىٰ الأرموي، ثم حملت إلى القاهرة ، ونالت من العلوم حظاً ، وأجيزت بالافتاء وألفت كتاب

---

(١) ديوان رابعة العدوية ص ٧٣.
(٢) النيسابوري ، عقلاء المجانين ، ص ١١٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(الملامح الشريفة والآثار المنيفة) يشتمل على إنشادات صوفية وقد أتحفتنا ببديعيتها التي تقول فيها :

في حُسنِ مطلعِ أقمارٍ بذي سَلَمِ أصبحتُ في زمرةِ العشاق كالعلمِ[1]

ثم جاءت من بعدها عائشة التيمورية التي مشت على خطا عائشة الباعونية في الزهد والتصوف .

وأخيراً ، وبعد أن أدرجنا أسماء النساء عامة في العصر الإسلامي والعصور التالية ، وأسماء المتصوفات خاصة ، لا بد لنا من الإشارة إلى أن قصص السالكات المتصوفات بحد ذاتها لها رموزها ودلالاتها التي لا بدَّ من أن نقف معها في الفصول القادمة .

* * *

(١) العلاوي ، عائشة الباعونية ، ص ٢٠٠ .

الباب الثاني
موضوعات شعر المتصوفات

الفصل الأول

الحب الإلهي عند الصوفيات

توطئة عن الحب الإلهي .

ماهية الحب الإلهي .

الحب الإلهي مقام .

الحب الإلهي والمقامات الأخرى .

الحب الإلهي عندَ الصوفيَّات

توطئة

المحبة أصلها الصفاء ، والعرب تقول : لصفاء بياض الأسنان ونضارتها ، حَبَبُ الأسنان وقيل : مأخوذة من الحَبَاب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، فعلى هذا ، فالمحبة تكون غليان القلب وثورانه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب ، ويتضح الحب الإلهي في سلوك المتصوفة : الذين اتخذوا من الذات الإلهية قطبهم وجهتهم ، محجوبين بذلك عن الصور الكونية ليبقوا في حالة اتصال دائم مع الخالق ، وهذا الحب يطلق عليه اسم (الحب الإلهي) لأن الإله الحق هو محور حبه وموضوعه المباشر ، من هنا ظل المحب في تعشُّق كلي للذات المحبوبة تقديساً لها وتنزيهاً عن الغايات النفسية ، وهو بذلك يختلف عن الحبِّ الدنيوي الجزئي ، الذي يكون مصحوباً بغاية ما ، والذي لا ينطوي على الإخلاص التام للذات المحبوبة لأن فيه جزءاً من محبة المحب للظواهر المحيطة به .

من هنا تتجلى قيمة الحب الإلهي ، من هنا نجد أن المحبوب كلٌّ في ذاته وصفاته ومعانيه ، وهو محور قلب المحب .

وإذا عدنا إلى القرآن الكريم ، نجد أن لفظ الحب وما تصرف منه قد

جاء في أكثر من ثمانين موضعاً ، وهو في هذا نوعان :

١ ـ حبُّ الله تعالى للعبيد .

٢ ـ حبُّ العبد لله عزَّ وجلَّ .

وقد فسرت محبة الله تعالى للعبد برضاه عنه ، وثنائه على عمله ، والجزاء الأوفى له ، وقد جاء في هذين النوعين من محبة الله تعالى للعبد ، ومحبة العبد لله في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

فالنوعان من المحبة فضل من الله يؤتيه من يشاء من خلقه ، ولا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا من عرف الله ، في عظمته في قدرته ، في عظمة ملكوته ، وأنه الأول والآخر بلا نهاية ، وأنه على كل شيء قدير .

* * *

(١) المائدة ٥/ ٥٤ .

ماهية الحب الإلهي

ولكن ما هي ماهيَّة الحب الإلهي ؟ وهل يمكننا وصفه ؟

لقد انطلق الصوفية في كلامهم على الحب الإلهي على أنه حالة وجدانية ذوقية لا تعرف بغير الذوق ، وإن عرفت استعصى تعريفها ووصفها والتعبير عنها ، وأن تعريفها بوضوح غير ممكن لأنها سرٌّ انطوى.

وإذا عدنا إلى بعض من حاول تقريب هذا الحبّ إلى مخيلتنا وجدنا ابن الخطيب يقول : (إنما الحب الحقيقي : حبٌّ يصعدك ويرقيَك فيشير بالحب الحقيقي إلى الحب الإلهي؛ الذي يصبح فيه المحب قطب الكون يدور حوله الكون)[1] . قال تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[2] .

أما ابن عربي فيقول : (اعلم أن الحب معقول المعنى ، وإن كان لا يحد ، فهو مدرك بالذوق غير مجهول ، ولكنه عزيز التصور ، فإن الأمور المعلومات على قسمين : منها ما يحد ومنها ما لا يحد ، والمحبة عند العلماء بها المتكلمين فيها من الأمور التي لا تحد ، فيعرفها من قامت به ، ومن كانت سنته ، ويعرف ما هي ولا ينكر وجودها) ، ولهذا قلنا :

الحبُّ ذوق ولا تُدرى حقيقته ... أليس ذا عجب والله والله

---

(١) ابن الخطيب ، لسان الدين ، روضة التعريف بالحب الشريف ، ١/١٠٩ .

(٢) سورة يونس ، ١٠/٢٢ .

ويقول أيضاً :

الحـبُّ أولـهُ نحـبٌ وأوسطُـهُ ... مـوتٌ وليـسَ لـهُ حـدٌ فينكشـفُ
فمـنْ يقـولُ بـأن الحـبَّ يعـرفُـهُ ... فمـا لقـوم بـه أعمـارهـم شُغفـوا
ولـم يقـولـوا بـأن الحـبَّ نعـرفُـهُ ... خلـفٌ ولكنـه بـالقلـبِ يـأتلـفُ

وأول من تغنى بنعمة الحب الإلهي رابعة العدوية التي أحبت الله تعالى لأهليته لهذه المحبة ، لا خوفاً من نار ولا طمعاً في جنته فقالت :

كلُّهـمْ يعبـدونَ مـن خـوفِ نـارٍ ... ويـرْونَ النَّجـاةَ حظّـاً جَـزيـلا
ليـسَ بـي بـالجنـانِ والنَّـار حـظٌّ ... أنـا لا أبتغـي سِـواك سَبيـلا[1]

وصارت المحبة الإلهية من بعد رابعة المحور الذي تدور عليه الحياة الصوفية ، والهدف التي تتجه إليه .

(وكلهم مجمع على أن الله كعبة آمال السالكين ، وأن محبته خير طريق مؤدية إليه ، ولكنهم يختلفون في تصوير العلاقة بين المحب والمحبوب ، والصلة بين المحبة وغيرها من مظاهر الحياة الروحية وأثرها في الأخلاق الصوفية بوجه عام)[2] .

(فالحب وهج الإيمان المتَّقِد ، وصدى العقيدة الصادقة في القلوب والعروق ، تلبية لنداء الله وفزعاً من قول الله)[3] .

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[4] .

---

(١) رابعة العدوية عذراء البصرة البتول ، ص ١٩٤ .
(٢) التصوف ، ص ١٩٩ .
(٣) خميس محمد عطية ، رابعة العدوية ص ٥٢ .
(٤) التوبة ٩/ ٢٤ .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن **رابعة العدوية** هي (السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف الإسلامي ، هي التي تركت الآثار الباقية ، نفثاتٍ صادقة التعبير عن محبتها وعن حزنها ، وإنَّ الذي فاض به الأدب الصوفي بعد ذلك من شعر ونثر في هذين البابين ، من نفحات السيدة رابعة العدوية إمام العاشقين ، والمحزونين في الإسلام)[1] .

وهي أول من (نقل الزهد إلى الأفق الصوفي الإسلامي ، وهي أول من حول الزهد من الخوف إلى الحبِّ ، ومن الرعب إلى المعرفة ، ومن الحرمان إلى الرضا ، ومن القسوة إلى الإشراق ، وهي أول من جعلته شرعة ذات ألوان روحية ، وأهداف وجدانية وأطلقت فيه تيار التسامي والتصعيد ، والتحليق إلى الأفق الأعلى)[2] .

* * *

(١) نيكلسون ، الإسلام والتصوف ، ترجمة مصطفى عبد الرزاق ، ص ٧٨ .
(٢) رابعة العدوية لسرور ، ص ١٠٥ .

الحب الإلهي

الحبُّ مقام إلهي : فلما كانت المحبة مشتقة من اللزوم والثبات ، فكأن المحب قد لزم قلبُه محبوبَه فلم يرم عنه انتفاء[١] . فقد ذهب ابن عربي إلى القول بأن (الحبّ الإلهي مقام ، وليس حالاً آنياً يعتري الصوفي وأنه مقام إلهي كغيره من مقامات الإلهية)[٢] .

وقد عرَّف ابن عربي المقام فقال : (هو كلُّ صفةٍ يجب الرسوخ فيها ، ولا يصلح الانتقال عنها كالتوبة)[٣] .

(فالمتطلّع نحو مقام المحبة الإلهية ، لا بد من أن يرى رابعة العدوية مقبلة نحو هذا المقام العظيم ، تدخل من باب المحبة الإلهية في ثقة واطمئنان ، مزدانة بأكاليل الرضا والنور ، فهي التي تُوِّجت وتربعت فوق عرش المحبة الإلهية عن جدارة واستحقاق ، لأنها ولا ريب هي التي وطدت المفهوم الروحي لهذا المعنى في جمال الحياة الروحية الإسلامية ، فلرابعة المكانة العالية والمرتبة الرفيعة من مقام الحب الإلهي)[٤] :

أحبُّك حُبَّين حبُّ الهوى وحُبٌّ لأنَّك أهلٌ لِذاكا

---

(١) روضة المحبين ، لابن قيم الجوزية ، ١٦ .

(٢) ابن عربي ، ترجمان الأشواق ، ص ٧٣ .

(٣) ابن عربي الفتوحات المكية ، المقدمة ، ص ٧٣ .

(٤) رابعة العدوية بين الغناء والبقاء ، ص ١٢٩ .

فـأمّـا الـذي هـو حُـبُّ الهـوى فَشُغلـي بِـذِكـرِكَ عمـن سِـوَاكَـا
وأمّـا الـذي أنـتَ أهـلٌ لَـه فكشفُكَ لي الحُجْبَ حتى أراكا
فـلا الحمـدُ فـي ذا ولا ذاكَ لـي ولكن لَكَ الحمدُ في ذا وذاكا[1]

فهنا تظهر لنا (الصلةُ الوطيدة بين الغزل العذريّ والحبِّ الصوفيِّ ، وبين مسلك الزهادِ الأتقياءِ ومسلكِ العشاقِ المتعففين ، وذلك لما بين العفة من الحب : ، وبين الزهد من ملامح متشابهة ، ففيهما نزوع إلى إعلاء الغريزة والتسامي بالشعور)[2] .

وفي مقام الحب الإلهي وقفت عائشة الباعونية تهنأ بقرب الحبيب ، وتتأمل جماله عن كثب وتقول :

حبيـب أنـتَ مـن قلبـي قـريـبُ وعـن سِـرِّي جَمـالُـك لا يغيـبُ
خلعتَ الحسن في خلع التَّجلِّي فشـاهـدتُ الجمـالَ ولا رقيـبُ
وأيـدتُ الـوصـال فـلا صـدوُدُ ولا وهـمٌ ولا شـيء يـريـبُ
فـلا خـوفٌ وأنـت أمـانُ قلبـي ولا سقـمٌ ، وأنـت لـي الطبيـبُ
ولا حـزنٌ وأنـت سـرور سـرِّي ولاسـؤل وأنـت لـي الحبيـبُ

فشاعرتنا بعد أن حظيت بالوصال بلا صدود ، وبلا أي معكر يعكر صفو الحب ، جلست تنهل من معين الحب ، وتشاهد جمال الحبيب ، بعد أن أحست إحساساً دافئاً بقرب هذا الحبيب ذلك الإحساس الذي شعرت معه بالآمال والطمأنينة والسرور والحب .

وفي مقام الحب هذا وقفت الشاعرة **ريحانة** وكانت تقول في دعائها : (رب أعوذ بك من بدن لا ينتصب بين يديك ، وعميت عينان لا تبكيان

---

(١) الروض الفائق ، ص ١١٧ .
(٢) شعر عمر بن الفارض ، ص ١١٦ .

شوقاً إليك ، وجفت شفتان لا تبتهلان بالتضرع إليك)[1] . ومن شعرها في هذا المقام :

أنـت أُنسـي ومُنيتـي وسـروري ... قد أبى القلبُ أن يحبَّ سواكَا
يَـا حبيبـي ومنيتـي واشتيـاقـي ... طـالَ شـوقـي متـى يَكـون لِقـاكَـا
ليس سُؤْلـي مـن الجنـانِ نعيماً ... غيـر أنِّـي أُريـدهـا لأراكَـا[2]

فالصوفي دائم الوقوف في مقام الحب ، يتوجه بكلِّيته إلى خالقه بحب جارف ، وهو لا يريد من وراء ذلك شيئاً ، وإنما يكفيه علم حبيبه أنه واقف ببابه من ذلك قول ريحانة :

حَسْبُ المحبِّ من الحبيبِ بعلمهِ ... أن المحـبَّ ببـابـهِ مطـروحُ
والقلبُ فيه إن تنفَّسَ في الدُّجَى ... بسهامِ لوعاتِ الهوى مجروحُ[3]

هذا الحبّ نجده عند أغلب الشواعر الصوفيات من ذلك قول رابعة الشامية :

حبيـبٌ ليـسَ يَعْـدِلُـه حبيـبُ ... ومـا لسِـواه فـي قلْبـي نصيـبُ
حبيبٌ غابَ عن بَصري وشَخصي ... ولَكـنْ فـي فـؤادي مـا يغيـبُ[4]

فثبوت الصوفيات على الحب ، ووقوفهم الدائم في هذا المقام دليل على صدقهم ، فالمتصوفة (قوم قد امتلأتْ قلوبهم في معرفة الله ، وغُمرتْ بمحبته ، وخشيته وإجلاله ومراقبته ، فسرت المحبة في أجزائهم ، فلم يبق فيهم عرق ولا مفصل إلاَّ وقد دخله الحب ، أنساهم من الحسنى ، ذكر غيره وأوحشهم أنسهم به عن سواه ، قد فنوا بحبه عن حب سواه ، وبذكره مَنْ سواه ، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه ، والرهبة

---

(١) الحسيني ، جمهرة الأولياء ، ص ١٢٥ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٢٥ .
(٣) النيسابوري ، عقلاء المجانين ، ص ٢٢٥ .
(٤) صفة الصفوة ، ٤/٢٠٢ .

منه والتوكل عليه والإنابة إليه ، والسكون إليه ، والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلل ذلك منهم بغيره ، فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه ، واجتمع همه عليه متذكراً صفاته العُلا ، وأسمائه الحسنى ، مشاهداً له في أسمائه وصفاته قد تجلت على قلبه أنوارها . فانطبع قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه في فراشه ، يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد آوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه ، وأسجده بين يديه خاضعاً خاشعاً ذليلاً منكسراً من كل جهة من جهاتهن فيا لها من سجدة ، ما أشرفها من سجدة ، لا رفع رأسه منها إلى يوم اللقاء ، فشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع في سفره إليه بيداء الأكوان ، وخرق حجب الطبيعة ، ولم يقف عند رسم ولا سكن إلى علم ، حتى دخل على ربه في داره ، فشاهد عزّ سلطانه ، وعظمة جلاله وعلو شأنه ، وبهاء كماله فإذا صارت صفات ربه ، وأسماؤه مشهداً لقلبه أنسته ذكر غيره ، وشغلته عن حب سواه ، وحديث دواعي قلبه إلى حبه تعالى بكل جزء من أجزاء قلبه وروحه وجسمه ، فحينئذٍ يكون الرب سبحانه سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان ، وسجدت تحت عرش الرحمن)[1] .

فالحديث عن مقام الحبِّ الإلهي ممتع ، إنه أسمى العواطف الإنسانية ، اتصال دائم مع الأعلى ، بعد أن طارت النفس بأجنحة الإيمان الخالص المجرد ، فحلّقت في سماء القرب والمعرفة مع أحباب الله ، العارفين به المحبين له .

وهذا المقام عبَّرت عنه رابعة العدوية في قولها :

وَارحمتا للعَاشقين قلوبُهُمْ ... في تيه مَيْدانِ المحبَّة هائمهْ
قامت قيامةُ عُشْقِهم ، فنفوسُهم ... أبداً على قدَم التذلُّل قائمهْ

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ، ص ١٦١ .

إمَّـا إلـى جَنـاتِ وَصْـلٍ دائـمٍ أو نـار صـدٍّ للقلـوبِ مُـلازمـهْ[1]

فهذه النفوس التي لا تزال أبداً على قدم التذلل قائمة ، هي نفوس عاشقة ، تقف في مقام الحبّ الإلهي .

وذُكر عن رابعة العدوية أنها كانت إذا صلت العشاء ، قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت : (إلهي ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيبٍ بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك) ثم تقبل على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر ومطلع الفجر قالت : (إلهي ! هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري ! أقَبِلتَ مني ليلتي فأهنأَ ؟ أم رددتَها عليَّ فأعزى ؟ ! فَوَعِزَّتك لو طردتني عن بابك ما برحتُ عنه لما وقع في قلبي من محبتك)[2] وفي قول رابعة : (فوعزتك لو طردتني عن بابك ما برحتُ لما وقع في قلبي من محبتك) ما يشير إلى ثبوت رابعة في مقام الحب حتى ولو طردها محبوبها منه .

* * *

(١) بدوي عبد الرحمن ، شهيدة العشق الإلهي ، ص ١٧٧ .

(٢) الحريفيش ، الروض الفائق ص ٧٠ .

الحب الإلهي والمقامات الأخرى

١ ـ مقام الخُلَّة : فقد ذكر أبو طالب المكي : (أن المحبة من أشرف المقامات ليس من فوقها إلا مقام الخلة ، وهو مقام في المعرفة الخاصة)[١] .

والخلة : هو أن يتخلل الحبّ جميع الأعضاء واللحم والدم لذا سمي المحبوب خليلاً (أي محبوباً) .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٢] .

وقد بيَّن الرسول الكريم ﷺ فضل مقام الخلة فقال : « تحابُّوا في الله وتصافوا وتبادلوا وتخاللوا فيه ، أو ليس من كرم الله تعالى أن اتخذ عبداً من عباده خليلاً »[٣] وهو يقصد نفسه . روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله تعالى قد اتخذ صاحبكم خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)[٤] .

فالخلة فكرة إسلامية المصدر ، متضمنة بفكرة المحبّة ، وأول من

---

(١) المكي ، قوت القلوب ، ج ٢ ، ص ١٥١ .
(٢) سورة الزخرف ٤٣/ ٦٧ .
(٣) موسوعة أطراف الحديث ، ٣/ ١٦٩ .
(٤) المرجع نفسه ، ٣/ ١٦٩ .

تكلم عن مقام الخلة ووضع أساس هذه الفكرة: رياح القيسي، وكليب[1] .

وقد تكلم عن الخلة الحسن البصري فقال : (إن الله عز وجل أوصى إلى بعض أوليائه إنَّما اتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري ، ولا يكون له غيري ، ولا يؤثر علي شيئاً من خلقي ، وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً ، وإن قطع بالمناشير لم يجد للمس الحديد ألماً)[2] .

ولعل من الصوفيات اللواتي وقفن من مقام الخلة رابعة العدوية في قولها :

وتخللتَ مَسكَ الروح مني ... وبه سُمِّيَ الخليلُ خليلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما سَكَتُّ كنتَ الخليلا[3]

ولكن بعض الذين لم يتعمقوا مع المتصوفة ، ولم يفهموا معنى الخلة ، وقفوا من رابعة العدوية مواقف سلبية واتهموها بالزندقة ، وذهب بعضهم إلى حد تكفيرها في قولها :

إنِّي جَعَلتُكَ في الفؤاد مُحدِّثي ... وأبحْتُ جسْمي مَنْ أرادَ جُلوُسي
فالجسْمُ منِّي للجَليسِ مُؤانسٌ ... وحبيبُ قلبي في الفُؤادِ أنيسي[4]

٢ ـ مقام التوبة :

قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[5] .

وقال أنس بن مالك : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (التائب من

---

(١) الخطيب ، ذكر سابقاً ، ١/١٠٧ .
(٢) قوت القلوب ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .
(٣) الزبيدي ، اتحاف السادة المتقين ، ج ٩ ص ٢٧٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥٧٧ .
(٥) سورة النور ٢٤/ ٣١ .

الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب)[1] ثم تلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[2] وقيل يا رسول الله ما علامة التوبة ؟ قال : (الندامة) .

وحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : (ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب)[3] .

وقد عرف المتصوفة التوبة بأنها : رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين[4] . وللمتصوفة وقفة مطولة في مقام التوبة ، ينتقلون فيه من حال نفسي إلى حال نفسي آخر ، ثم ينتهي بهم المطاف إلى مقام ثابت هو التجرد النهائي للعبادة وطريق الروح .

ويقول النيسابوري : التوبة أول منزل السالكين ، وأول مقام من مقامات الطالبين ، وحقيقة التوبة في اللغة : الرجوع ، يقال تاب ، أي رجع ، فالتوبة الرجوع عمَّا كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه ، قال أرباب الأصول من أهل السنة : لكي تصح التوبة لا بد لها من ثلاثة شروط : الندم على ما عمل من مخالفات ، وترك الزلة في الحال ، والتصميم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي ، (والتوبة تستدعي نوعاً خاصاً من الكسرة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب ، وليس أحبَّ إلى الله من هذه الكسرة ، وهذا الخضوع والتذلُّل والانطراح بين يديه والاستسلام)[5] .

وتتجلَّى التوبة عند إحدى المتصوفات العابدات، وهي (رابعة العدوية)

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ، ١/ ٣٣٨٥ .
(٢) سورة البقرة ٢/ ٢٢٢ .
(٣) موسوعة أطراف الحديث ٩/ ٢٥٧ .
(٤) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج ١ ، ص ١٧٩ .
(٥) الرسالة القشيرية ، ص ٩١ ـ ٩٢ .

التي كانت تقضي الليل بطوله في الصلاة والتهجد وتقول: (إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري ! أَقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها علي فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني ، وعزتك ، لو طردتني عن بابك ما برحت عنه ، لما وقع في قلبي من محبتك)[1] .

إنّ المتتبع لحياة رابعة يجد أنها حفظت القرآن في سن مبكرة ورتلته ، وهي صغيرة السن ، وفرقت منذ صغرها بين الحلال والحرام ، خُلقت ولا أعتقد أنها انقطعت عن المناجاة والتبتُّل إلى الله ، ولكن الصوفي دائم التوبة ، رقيق الإحساس ، يشعر بفداحة الذنب ، فيُكثر من الرجوع إلى الله ، واللجوء إليه طالباً الغفران والرحمة .

يدل على ذلك مناجاتها لِلِّص الذي دخل بيتها فلم يجد غير إبريق ، فلمَّا همَّ بالخروج قالت له رابعة : (يا هذا إن كنت من الشُّطَّار فلا تخرج بغير شيء ، فقال لها: إني لم أجد شيئاً فقالت: يا مسكين، توضأ بهذا الإبريق وادخل الحجرة وصلِّ ركعتين ، فإن ما تخرج إلا بشيء ! ففعل ما أمرته ، فلما قام يصلي رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : (يا سيدي ومولاي ! هذا قد أتى بابي ولم يجد شيئاً عندي ، وقد أوقفته ببابك فلا تحرمه يا إلهي من فضلك وثوابك) ، فلما فرغ من صلاة الركعتين لذَّت له العبادة ، فما برح يصلي حتى آخر الليل . فلما كان وقت السحر ، دخلت إليه رابعة ، فوجدته ساجداً ، وهو يقول في سجوده معاتباً نفسه شعراً :

إذا مـــا قـــالَ لـــي ربِّـــي أمـــا اسْتَحْيَيْـــتَ تَعصينـــي
وتُخفـــي الـــذنـــبَ مـــن خلقِـــي وبـــالعصيـــان تَـــأتينـــي
فَمـــا قَـــولـــي لَـــهُ إذا مـــا يعـــاتبنـــي ويُقصينـــي[2]

---

(١) عبد الرزاق ، سعاد ، رابعة العدوية ، ص ٦٨ .

(٢) نزهة الناظرين في الأخبار ، والآثار المروية عن الأنبياء والصالحين ، ص ٢٤٣ ، وص ٢٤٤ .

فقالت له رابعة : (يا أخي ! كيف كانت ليلتك) ؟

فقال بخير : وقفت بين يدي مولاي بِذُلِّي وافتقاري فقبل عذري ، وجبر كسري ، وغفر لي الذنوب وبلغني المطلوب) . ثم خرج هائماً على وجهه ، فرفعت رابعة كفيها إلى السماء وقالت : يا سيدي ومولاي ؟ هذا عبد وقف ببابك ساعة فقبلته ، وأنا مذ عرفتك بين يديك ، أتراك قبلتني ! ؟ فنوديت في سرها يا رابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسبيلك قربناه)[1] .

وفي قولها (وأنا مذ عرفتك بين يديك) دليل على إخلاصها في محبتها لله تعالى ، وهي كانت دائمة الذكر للذنوب تطلب الرحمة من ربها :

يَا حبيبَ القلبِ مالي سِواكَا فارحمْ اليوم مذنباً قد أَتَاكَا

يَا رَجائي وَرَاحتي وسُروري قد أبى القلبُ أن يجيبَ سَوَاكا[2]

وقال بعض العارفين : (العامَّة يتوبون من سيئاتهم ، والصوفية يتوبون من حسناتهم ، يعني من تقصيرهم في أدائها ، لعظيم ما يشهدون من حق الملك العزيز سبحانه وتعالى المقابل بها ، ومن نظرهم إليها ، أو نظرهم إلى نفوسهم بها ، وهي منَّة الله تعالى إليهم)[3] .

(وإذا ابتدأ الصوفي سفره الروحي وجب أنْ يبدأ بالمقام الأول الذي هو في الحقيقة استعداد لاجتياز المقامات ، ومعنى التوبة للمريد أن يذكر ذنبه دائماً ، أما المحقق المتقدم في رياضة النفس فالتوبة معناها : نسيان

---

(١) العطار ، تذكرة الأولياء ، ص ٧٠ .

(٢) الروض الفائق ، ١٤٩ .

(٣) المكي ، قوت القلوب ، ١/ ٣٨٤ .

ذنبه ، وبعد أن يبدأ المتصوف سفره يبدأ في سلوك الطريق وقد استعد لذلك بالتوبة)[1] .

لعل من أجمل ما قيل في مقام التوبة قول عائشة التيمورية :

أتيتُ لبابكَ العالي بذلّي ... فإنْ لم تعفُ عن زللي فمنْ لي
مُقراً بالجناية وامتثالي ... لأمرِ النفسِ في عَقدي وحلي
ومُعْترفاً بأوزارٍ ثقالٍ ... أقادُ لحملها طوعاً لِجهْلي
سعتْ نفسي بأن أُمسي مكباً ... على وجهي لطاعتها فويلي[2]

فقد بدأت عائشة التيمورية سفرها الروحي في الإقرار بالذنب والاعتراف بالتقصير والامتثال لأمر النفس ، ثم اتجهت لطلب الرحمة والمغفرة ، لأن فضاء عفو الله لا حدود لوسعه في قولها :

فأنتَ لوحدتي ولكلِّ عاصٍ ... له رُحماك من بَعدي وقائي
إن كان عصياني وسوء جنايتي ... عظُما وصرتُ مهدداً بجزائي
ففضاءُ عفوك لا حدود لوسعِهِ ... وعليه مُعتَمَدي وحُسن رَجائي
يا منْ يَرى ما في الضميرِ ولا يُرى ... إني رجوتُكَ أن تجيبَ دُعائي[3]

ثم تتوجه بالدعاء إليه تعالى متضرعة ليغفر زلاتها ، منادية إياه بأسمائه ، ربِّ إلهي ، أنت الخبير البصير الشهيد فافتح لدعائي باب الإجابات فتقول :

وقد رفعتُ يميني الذل داعيةً ... إليكَ يا ربِّ أرجو غفرَ زَلاَّتِي
ربِّ إلهيَ مَعْبودي ومُلتجئي ... إليكَ أرفعُ بثِّي وابتهالاتِي
فامنن عليَّ بألطافٍ لتخرجني ... من الضَّلال إلى سُبْل الهداياتِ
أنتَ الخبيرُ بحالي والبصيرُ به ... فافتحْ لهذا الدَّعا بابَ الإجاباتِ

---

(١) رابعة العدوية لمحمود الشرقاوي ، ص ١٧ .
(٢) حلية الطراز ، ص ٤٦ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٦ .

فكيفَ أَشْكُو لمخلوقٍ وقد لجأتْ لك الخلائق في يسر وشداتِ
أنتَ الشهيدُ على قول أفوه به ما دامتُ عائشة فالحمدُ غاياتي[1]

فهنا نلاحظ تنقُّل عائشة التيمورية في مقام التوبة فهي واقفة في بابه العالي ، تقرُّ بالذنب وترفع يديها ضارعةً راجيةً أن يغفر زلاتها ، وقد بدأت أبياتها بالإقرار بالذنب ، في مثل قولها (مقراً بالجناية امتثالي لأمر النفس ، سعت نفسي فويلي ، إن كان عصياني وسوء جنايتي . . إلخ) ، ثم تنتقلَ إلى طلب العفو ـ إن لم تعف عن ذنبي ـ ففضاء عفوك لا حدود لوسعه ـ غفر زلاتي .

ففي مقام التوبة وقفت شاعرتنا تسترجع ما قصرت به ، وزلت به قدماها ، ثم التجأت إليه تعالى بالدعاء ليغفر لها ذنبها ، ويهديها من الضلال إلى سبل الهدايات ، هذه هي رسالة التصوف التي تقوم على معالجة النفوس بتصعيدها من الحضيض الأرضي إلى السمو العلوي ، والأخذ من ظلمات المادية إلى أضواء الروحانية السامية ، ولكن بعد هذا التضرع أيقبل الله توبة شاعرتنا ؟

لعل هذا ما يذكرنا بقول رابعة عندما سألها أحدهم : (قد أكثرت من الذنوب والمعاصي ، فلو تبت هل يتوب عليّ ؟ . . . فأجابت رابعة لا بل لو تاب عليك لتبت)[2] .

ففي كتابه الحكيم ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3] .

وقد سأل رابعة سائل يوماً : (إذاتاب أحد من عباد الله ، أتُقبل توبته ؟ . . فقالت : إذا لم يتفضل عليه الله بالتوبة فكيف يتوب ؟ . . .

---

(١) حلية الطراز ، ص ٥٦ .
(٢) الرسالة القشيرية ، ص ٨٩ .
(٣) سورة التوبة ١١٨/٩ .

وإذا تاب فلا شك أنه سيقبل توبته)[1] .

فالتوبة عند المتصوفة فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده وقد خصَّها الله بسورة مستقلة ، وهي نعمة من الله ليشعر المرء أنه مفتقر إلى ربه محتاج إلى إحسانه ، ولا تغرَّه الحياة ، فالتوبة الحقة : هي مجاهدة النفس والصدق والإنابة ، وبذلك ينتقل المرء من درجة النفس الأمَّارة بالسوء إلى درجة النفس اللوامة التي تعترف بالخطأ ، وتتوب امتثالاً لقوله تعالى :

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] . فطالب التوبة عليه أن يجاهد في سبيل الظفر بها ، بعد التجرد من الآثام والخطايا تجرداً كاملاً .

٣ ـ مقام الخوف :

ذكر الخوف من الله في مواضع كثيرة من القرآن، من ذلك قوله تعالى :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[3] ، ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4] .

والخوف شرطه المعرفة ، وكلما زادت المعرفة زاد الخوف ، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[5] ، قال رسول الله ﷺ : (إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية) ، وقد عرَّف الإمام القشيري الخوف فقال : (معنى متعلقة في المستقبل لأنه يخاف أن يحلّ به مكروه ، ويفوته محبوب ، ولا يكون هذا إلاَّ لشي يحصل في المستقبل ، فأما ما يكون في الحال موجوداً ، الخوف لا يتعلق به)[6] .

---

(١) تذكرة الأولياء ، ج ١ ، ص ٦٦ .
(٢) سورة النور ٢٤/ ٣١ .
(٣) سورة النحل ١٦/ ٥٠ .
(٤) سورة آل عمران ٣/ ١٧٥ .
(٥) سورة فاطر ٣٥/ ٢٨ .
(٦) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج ١ ، ص ٣٠٦ .

والملاحظ أن رابعة العدوية، ورابعة الشامية كانتا شديدتي الخوف من الله تعالى، فرابعة العدوية كانت في مراحل تصوّفها الأولى شديدة الخوف ، والفزع من النار ، وقد تحدث ابن الجوزي عن رابعة فقال : (أخبرنا أبو القاسم الحريري قال : حدَّثنا عبد الله بن عيسى قال : (دخلت على رابعة العدوية في بيتها فرأيت على وجهها النور ، وكانت كثيرة البكاء فقرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار ، فصاحت ثم سقطت)[1] .

وكانت في مناجاتها تقول : (إلهي أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ فهتف بها هاتف ! ما كنا نفعل هكذا فلا تظنِّي بنا ظنَّ السوء)[2] وقد ظلَّ الخوف والبكاء ملازماً لرابعة طوال حياتها ، فعن ابن المنظور قال : (دخلت على رابعة وهي ساجدة ، فلما أحست بمكاني رفعت رأسها ، فإذا موضع سجودها كهيئة المستنقع من دموعها ، فسلَّمت ، فأقبلت علي فقالت : يا بني لك حاجة ؟ فقلت جئت لأسلِّم عليك قال : فبكت ، وقالت : سترك اللهمَّ سترك ! ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت)[3] .

قال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[4] . وروت أم كلثوم قالت : قال رسول الله ﷺ : (إذا اقشعرَ جلد العبد من خشية الله تحانت عنه الذنوب ـ أي : تساقطت ـ كما تحان عن الشجرة اليابسة أوراقها)[5] .

وقد ذكر ابن الخطيب في كتابه (روضة التعريف) ، قال نقلاً عن أبي الفرج : (إذا خرجت القلوب بالتوبة من حبس الهوى ، إلى بيداء

---

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٤ ، ص ٥٧ .
(٢) الرسالة القشيرية ، ٢/ ٦٢٤ .
(٣) صفوة الصفوة ، ٤/ ٥٧ .
(٤) المائدة ٥/ ٨٣ .
(٥) موسوعة أطراف الحديث ، ١/ ٢٥٦ .

الإنابة ، جرت خيول الدمع في حلبات الوجد ، كالمرسلات عرفاً ، وإذا استقام زرع الفكر قامت العبرات تسقى، ونهضت الزفرات تحصد، ودارت رحى التحير تطحن ، واضطرمت نار القلق تنضج ، فحصلت للقلب ملة يتقوّتها في سفر الحب)[1] . وتعد رابعة أول من ربط بين الحزن والحب الإلهي ، وهذا ما أكده الأستاذ مصطفى عبد الرزاق : (وليس هذا الحزن العميق ، في نفس السيدة رابعة إلاَّ مظهر ما كانت تفيض به نفسها الشاعرة من الحب العميق ، فالسيدة رابعة هي السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوّف الإسلامي ، وهي التي تركت من الآثار الباقية نفثات صادقة في التعبير عن محبتها ، وعن حزنها ، وإن الذي فاض به الأدب الصوفي بعد ذلك من شعر ونثر في هذين البابين هو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية ، إمام العاشقين ، والمحزونين في الإسلام)[2] .

وبعد فقضية الخوف من الله تعالى قضية أخذت حيزاً كبيراً من شعر المتصوفة ، ومن آراء الفلاسفة منهم ، والخوف يمكن أن يندرج تحت محبة الله والتعظيم له .

فالمتصوف دائم الخوف من غضب الله تعالى ، وهذا شيء طبيعي مادام محباً ، فسوف يسيطر عليه الخوف من غضب حبيبه ، من ذلك قول رابعة الشامية :

وَزَادي قليـــلٌ مـــا أره مُبَلِّغـــي ... أللزَّادِ أبكي، أم لطولِ مَسَافتِي؟!!
أتحرقني بالنارِ يا غايةَ المُنى ؟ ! ... فأين رَجائي فيكَ، أين مَخافتِي؟!![3]

فهنا نجد الخوف المشوب بالرجاء ، فالخوف من النار ، لشعورها

---

(١) ابن الخطيب ، لسان الدين ، روضة التعريف ، ص ٢٦١ .
(٢) عبد الرزاق ، الشيخ مصطفى ، دائرة المعارف ، مادة التصوف ، المجلد ٥ ـ ٦ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .
(٣) عقلاء المجانين ، ص ١٢٥ .

بالتقصير في الزاد الذي تزودته شاعرتنا من الدنيا للآخرة ، ولكن الرجاء برحمة الله يبعث في نفسها الأمل ، هذا وقد عبرت عائشة التيّمورية عن الخوف في قولها :

إذا ضـــاقـــتْ بـــيَ الـــدُّنيـــا وشَـــابَ عَـــزيمتـــي ضعـــفُ
وجَنَّحـــتْ وحـــدةُ روحـــي ورَّوعَ أمنهـــــا الخَـــــوفُ
ألـــــوذُ بجنـــــةِ القُـــــر آنِ فهـــو الفَـــيء والإلـــفُ
تفيـــضُ حُـــروفُـــه نـــوراً ويَشفـــي علَّتـــي حـــرفُ[1]

وقد يقول قائل ما سبب هذا الخوف عند الصوفي ، مادام أنه التزم جادة الصراط المستقيم ؟ فنقول كما أن الطالب المجتهد يخاف من نتيجته ، كذلك الصوفي على اجتهاده في مسيرته إلى الله إلا أنه شديد الخوف من عدم نجاحه في الحصول على رضا المحبوب . وقد عبرت ريحانه عن الاضطراب الذي يحدثه الخوف في قولها :

مَنْ كَانَ راكبَ يوم ليس يأمنُهُ ولياَلـهُ تـائهـا فـي عقـبِ دُنيـاه
فكيـفَ يلتـذُّ عيشـاً لاً يطيبُ لـه ! وكيفَ تعرفُ عَيْن الغَمْض عيناه![2]

ويطاردها الخوف فتقول :

بـوجهِـكَ لا تُعـذِّبنَـي فـإنِّـي أومِّـل أنْ أفـوزَ بخيـر دارِ[3]

أما عائشة التيمورية فلشدة خوفها لاذت بالمصطفى ﷺ فقالت :

وكيفَ لي باتعاظِ النَّفسِ آمرتي بالسوءِ نَاهيتي عن موردِ النَّعمِ
ولذتُ بالمصطفى ربِّ الشَّفاعة إذ يدعُو المُنادي فتَحيا النَّاسُ من رقمِ
طه الذي قد كسا إشراقُ بِعثتِهِ وجهَ الوجودِ سناء الرُّشْدِ والكرمِ[4]

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .
(٣) عقلاء المجانين ، ص ١٢٥ .
(٤) حلية الطراز ، ص ٥ .

كذلك عائشة الباعونية التي لجأت إلى النبي ﷺ في قولها :

طه الذي إنْ أخَفْ ذنبي ولُذْتُ بهِ آمنتُ خوفي ، نَجَّاني من النِّقَمِ[1]

ولكن عائشة الباعونية عندما حظيت بوصال المحبوب الأعلى انتفى عنها الخوف وعاشت بسرور دائم وأمان في قولها :

حبيبي أنت من قلبي قريبُ وعن سرّي جمالُك لا يَغيبُ
خلعتُ الحُسنَ في خلعِ التَّجلِّي فشاهدت الجمال ولا رقيبُ
فلا خوفٌ وأنت أمانَ قلبي ولا سقمٌ وأنتَ ليَ الطبيبُ
ولا حزنٌ وأنتَ سُرور سِرّي ولا سؤالٌ وأنت لي الحبيبُ[2]

٤ ـ مقام الرضا :

يقول الله تعالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3] .

هذا المقام عند أهل التصوّف (باب الله الأعظم) ، ويعنون أن من أُكرم بالرضا فقد لقي بالترحيب الأدنى ، وأُكْرم بالتقريب الأعلى[4] .

يقول الرسول ﷺ : (إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضي اصطفاه)[5] .

والرضا أن يتقبل المتصوف كل ما يأتي من الله باطمئنان ، ولا يعترض على الحكم والقضاء .

ولرابعة العدوية منزلة عالية في (مقام الرضا) ولها مواقف كثيرة تعبر عن رسوخها في هذا المقام فقد روى القشيري فقال : قال جعفر بن

---

(١) العلاوي ، عائشة الباعونية ، ص ٢١٢ .
(٢) الكواكب السائرة ١/ ٢٩١ .
(٣) سورة المائدة ٥/ ١١٩ .
(٤) الرسالة القشيرية ، ٢/ ٤٢٣ .
(٥) موسوعة أطراف الحديث ، ١/ ٢٢١ .

سليمان الصفي قال سفيان الثوري يوماً عند رابعة : (اللهم ارض عني . فقالت : أما تستحي من الله أن تسأله الرضا ، وإنك غير راض عنه ؟ فقال : استغفر الله قال جعفر ، فقلت لها : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟) فقالت : (إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة)[١] .

وكان لرابعة وقفات عديدة في هذا المقام فقد ذكر أنها كانت تصلي ، وفي أثناء سجودها على البوري[٢] دخلت قطعة من القش في عينها ، لم تشعر بها ولم تهتم حتى انتهت من صلاتها ، واتفق مرة أن اصطدم رأسها بجدار فأدماه فلم تلتفت لذلك فقيل لها ألم تحسّي بالألم ؟ فأجابت (شغلي بموافقة مراده فيما جرى ، شغلني عن الإحساس بما ترون)[٣] .

ويحكى أن عبد الواحد بن زيد وسفيان الثوري ، ذهبا يوماً لزيارة رابعة وهي مريضة ، فلما أبصراها أخذهما الإخلال لها فارتج عليهما ، وأخيراً قال سفيان : (أي رابعة ! ادعي الله حتى يخفف آلامك ! ! فسألته : يا سفيان من بعث إليَّ بهذه الآلام ؟ فأجاب : إنه الله تعالى فقالت : إذا كانت مشيئة الله أن يمنحني بهذه الآلام فكيف أتوجه إليه متجاهلة إرادته)[٤] .

وروي أن مالك بن دينار قال : (ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة ، وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ، ومخدتها من اللِّبن ، فقلت وقلبي يغلي : يا رابعة ! لي أصدقاء أغنياء فإن سمحت لي سألتهم أن يعطوني شيئاً من أجلك فأجابت : (لقد أسأت القول يا مالك إن الله تعالى هو الذي يرزقني ويرزقهم ، أفمن يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت

---

(١) أبو طالب المكي ، قوت القلوب ج ٢ ، ص ٨٠ .
(٢) البوري: شيء يشبه الحصير مصنوع من البوص .
(٣) الرزاق ، سعاد علي ، رابعة العدوية ، ص ١٠٢ .
(٤) د . عبد الرحمن بدوي ، رابعة ص ١٥٨ .

مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا)[1] .

وقد عبرت رابعة عن هذا الرضا في أشعارها فقالت :

حُبُّـــك الآن بُغْيتـــي ونَعيمـــي وجـــلاءُ لعيـــنِ قلبـــي الصَّـــادي
ليس لي عَنْكَ ـ ما حييتُ ـ براحٌ أنـــتَ منِّـــي مُمكَّـــنٌ فـــي الســـوادِ
إنْ تكـــنْ رَاضِيـــاً علـــيَّ فـــإنّـــي يا مُنى القَلْبِ ! قد بَدا إسعَادي[2]

فغاية رابعة العدوية القصوى هي الرضا ، وعندما تحصل على هذه الغاية تكون قد بلغت ذروة السعادة .

وهذا الحرص على رضا رب العالمين نجده عند أغلب الشواعر المتصوفات فهذه حيونة تقول :

يـا ذَا الـذِّي وعـدَ الـرِّضـا لحبيبـهِ أنتَ الذَّي ما إنْ سواكَ أريدُ[3]

فالمتصوفة موعودون بالرضا ما داموا أحبة الله المتقربين إليه ، ودأبهم الحرص على رضا الله تعالى وتقديس هذا المقام .

(وبعد هذا يكون السفر قد بلغ مداه ، ويكون الصوفي قد أصبح نقي القلب مستعداً لتلقي المعارف من الله تعالى؛ إذا كان قد رافق هذه المقامات (أحوال) نزلت بالقلب ، وساعدته على أنْ يتطهر وينقى . هذه الأحوال تنزل من لدن الله إلى القلب ، فلا يستطيع الإنسان لها دفعاً ، ولا يقدر أنْ يحتفظ بها فوق ما أراده الله ، وهذه الأحوال هي :

حال مراقبة النفس ومحاسبتها ـ القرب ـ المحبة ـ الخوف ـ الرجاء ـ الشوق ـ الأنس ـ الاطمئنان ـ المشاهدة ـ اليقين ـ والأحوال هذه جوّ نفساني يحيط بالمتصوف في أثناء تقدمه في المقامات)[4] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٥٨ .
(٢) الروض الفائق ، ص ١١٧ .
(٣) عقلاء المجانين ، ص ١٢٨ .
(٤) رابعة العدوية للشرقاوي ، ص ١٨ ـ ١٩ .

وهكذا فالمتصوفة قد (امتلأت قلوبهم من معرفة الله ، وعمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته ، فسرت المحبة في أجزائهم ، فلم يبق فيهم عِرْق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب . قد أنساهم حبُّه ذكرَ غيره ، وأوحشهم أنسهم به عن سواه)[1] .

قد فنوا بحبه عن حب سواه ، وبذكره عن ذكر من سواه ، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه ، والرهبة منه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه والسكون إليه ، والتذلل والانكسار بين يديه ، عن تعلق ذلك منهم بغيره فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى ربه ومولاه ، واجتمع همه عليه ، متذكراً صفاته العلا وأسماءه الحسنى شاهداً له في أسمائه وصفاته قد تجلت على قلبه أنوارها فانطبع قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد آوى إلى مولاه وحبيبه فأواه إليه ، وأسجده بين يديه خاضعاً خاشعاً ذليلاً منكسراً من جهة من جهاته فيالها من سجدة : لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء)[2] .

فالفناء هنا ليس فناء مادياً ولكنه فناء معنوي ، (فناء في محبة الله ، فناء في صفات الخالق ، فناء تغيب به الأكوان والأحداث عن ناظريه ، لأنه لا يرى إلا ربه الحبيب القريب ، فتتوارى عنه المحن والآلام ، ولا يشعر بشيء؛ إنه لا يشعر إلا بالله ، وقد غاب عن وعيه كل شيء إلا وجدان الهيام بالمحبوب الأعظم)[3] .

والحقيقة ومن خلال متابعتنا لأشعار المتصوفات نجد أن قلوبهم قد ربيت على المحبة الإلهية ، فحلّقوا إلى الأفق الأعلى عن بصيرة نافذة

---

(١) رابعة العدوية للشرقاوي ، ص ١٨ ـ ١٩ .
(٢) الهجرتين لابن القيم ص ٨٠ .
(٣) رابعة العدوية للخميس ، ص ٨٧ .

وصفاء روحي لا يشعر به الكدر ، لقد كان التصوف منذ الحسن البصري حتى رابعة لا يخرج عن دائرة الزهد والنسك ، (ولكن رابعة جاءت وغرست في روضة التصوف ، زهرة جديدة ، زهرة الحب الإلهي)[1] .

ومن هذه الزهرة أينعت حدائق ورياض كلها تنادي بالحب الإلهي ، وتمشي على دروبه ، وجاءت شواعر تشربت بالحب الإلهي ، وعاشت في غمرته . ولست أبالغ إذا قلت إن الحب الإلهي كان له صيغة خاصة في أشعار النساء ، فهو حب عميق يتغلغل في الأحشاء ، فعانت ما عانته من آلام الشوق والوجد .

❊ ❊ ❊

(١) رابعة العدوية للشرقاوي ، ص ٨١ .

الفصل الثاني

الخمريات الصوفية

الخمرة حالة من حالات المتصوفة .

الخمرة عند الصوفيات .

الخمرة حالة من حالات المتصوفة

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾(١).

وقال أيضاً : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾(٢) .

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾(٣) .

افتنّ الشعراء في الشعر العربي بوصف الخمرة ، ووصف ساقيها ، ووصف النديم ، ووصف أثرها الذي تحدثه في النفس البشرية .

أما احتساء الخمر عند المتصوّفة فيأخذ معنى مختلفاً عن الخمرة العادية إنها خمرة المعرفة ، التي لا يُسقى منها إلاَّ فئة من العارفين ، والتي تحدث بهم أثراً عجيباً .

وقد تحدث المتصوفة عن هذه الخمرة الإلهية، وعرّفها ابن عربي فقال :

السُّكْر : غيبة بوارد قويّ .

الصَّحو : رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي .

الذوق : أول مبادىء التجليات الإلهية .

---

(١) الصافات ٣٧/ ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) الإنسان ٧٦/ ١٧ .

(٣) الإنسان ٧٦/ ٢١ .

الشرب : وسط التجليات من الرؤى غاياتها في كل مقام[1] .

يقول صاحب الرسالة القشيرية : (ومن جملة ما يجري في كلامهم الذوق والشرب ، ويعبرون بذلك عمَّا يجدونه من ثمرات التجلي ، ونتائج الكشوف وبواده[2] الواردات ، وأول ذلك الذوق ، ثم الشرب ثم الارتواء . إن صفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني ، ووفاء مغازلاتهم يوجب لهم الشرب ، ودوام مواصلاتهم تقتضي لهم الارتواء . فصاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الارتواء صاحٍ ومن قوي حبه تسرمد شربه[3] ، فإذا به تلك الصفة لم يوريه الشرب سكراً فكان صاحياً بالحق فانياً عن كل حظ ، ولم يتأثر بما يرد عليه ، ولا يتغير عما هو به ومن صفا سرَّه لم يتكدر عليه الشرب ، ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبقَ بدونه ، وانشدوا :

عجبتُ لمن يقولُ ذكرتُ ربي ... فهلْ أنْسَى فأذكر ما نسيتُ

شربْتُ الحبَّ كأساً بعد كأسٍ ... فما نفدَ الشَّرابُ ولا رَوِيتُ

واعلم أن كؤوس القرب تبدو من الغيب ، ولا تدار إلاَّ على أسرار معتَّقة ، وأرواح عن رق الأشياء محررَّة)[4] .

ويوضح ابن عربي العلاقة بين الحبّ والشَّرب فيقول : (اعلم أنَّ للحب شراباً هو تجلٍّ متوسط بين تجليّين وهو التجلي الدائم الذي لا ينقطع ، وهو أعلى مقام يتجلَّى الحق فيه لعباده العارفين ، وأوله تجلِّي الذوق ومن لم يذقه شرباً ما عرفه) :

لا يعرفُ الشوقَ إلاَّ من يُكابده ... ولا الصبابةَ إلاَّ من يُعانيها

---

(١) ابن عربي ، اصطلاحات ابن عربي ، ص ٦٠ .

(٢) البواد: المفاجآت .

(٣) تسرمد أصبح سرمدياً ، أي أصبح دائماً .

(٤) الرسالة القشيرية ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

وأما التجلّي الذي يقع به الري فهو لأصحاب الضيق فغاية شربهم ري ، وأما أهل السعة فلا ريَّ لشربهم ، فإنه من قال رُويت من الحبّ ما عرفه ، فالحبّ شرب بلا ري ، قال بعض المحجوبين شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبداً ، وكأس شراب الحبّ هو القلب من المحبّ لا عقله ، ولا حسه ، فإن القلب يتقلب من حال إلى حال ، كما أن الله الذي هو المحبوب كل يوم هو في شأن ، فيتنوع المحب في تعلّق حبّه بتنوع المحبوب ، فهو في أفعاله كالكأس الزجاجي الأبيض الصافي ، يتنوع بحسب تنوع المائع الحالّ فيه ، فلون المحبّ لون محبوبه ، وليس هذا إلاّ للقلب ، فإن العقل من عالم التقييد ، فلا يقبلها إلاَّ من قوته الانقلاب معه فيها ، وذلك لا يكون إلاَّ للقلب)[1] .

والسكر والصحو من أظهر أحوال الصوفية وأخصبها (ويأتي هذا عندما يتجلّى الحق للعبد بصفة من صفات جماله ، فيقع العبد في حالة أشبه ما تكون بحال السكر ، يفقد فيها وعيه بذاته ، وبالعالم حوله وينحصر فيها وعيه في الله وحده ، من غير إحاطة ولا شمول ولا تحديد بكيفية زمانية أو مكانية ، بل استغراق كلي للمتناهي وشعور غامر بوحدة الذات والموضوع)[2] والفرق بين السكر والصحو أنَّ (الصوُّفي في حالة سكره مستغرق في سكره ، وليس عنده علم ، ولا خبر ولا إدراك لفناء أو بقاء . . ! أما في حالة صحوه فهو للموجود الحقيقي الذي هو الله وحده)[3] .

وقد وقف المتصوّفة مواقف متفرقة من الصحو السكر ، فبعضهم ـ كالجنيد ـ يفضلون الصحو على السكر ، لأن السكر يخرج بالعبد من

---

(١) الحب والمحبة الإلهية ص ٣١ .
(٢) العفيفي ، التصوف ، ص ٢٧٠ ـ٢٧١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

حالة الطبيعة ، ويفضل أبو زيد ، وأصحابه السكر على الصحو ، لأنه يرفع الحجب التي تحول بين العبد وربه ، من ذلك قول قطب العصر عمر اليافي :

لاحَ يجلُـــــو بَـــــدري كـــأسُ شمـــس الحـــبّ
وحَـــلالـــي خَمـــري وصَـــبَّ لـــي الشـــرابَ
وانجلـــى فـــي ســـرِّي بعـــد رفـــع الحجـــب
مـــا بكـــأسٍ كـــدرة بعـــد هـــذا اليـــوم[1]

والحقيقة أنَّ المتتبع لأحوال المتصوّفة يجد أنهم ينتظرون الفرصة التي يفيضون فيها إلى حالة غيبوبة وسكر . من ذلك ما أورده القشيري أن (يحيى بن معاذ الرازي ، كتب إلى أبي زيد البسطامي قائلاً : ههنا من شرب المحبة لم يظمأ بعدها) فكتب إليه أبو زيد (عجبت عن ضعف حالك ههنا من يحتسي بحار الكون وهو فاغرٌ فاهُ يتزيّد)[2] .

علل القشيري السكر بوصفه (حالة ذاتية عالية لدى الصوفية ، ويميز بين حالة السكر وحالة الغيبة ويجعل الأولى أعلى من الثانية ، كما يربط بين السكر ومطالعة الجمال ، ويميز بين السكر والغيبة من حيث الترقي في المدارج الكونية ، فالغيبة قد تكون للعباد بما يغلب على قلوبهم في موجب الرغبة والرهبة ، ومقتضيات الخوف والرجاء والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجد ، فإذا كوشف العبد بنعمة الجمال حصل السكر وهام القلب)[3] .

والملاحظ أن شعر الخمر قد أخذ على يد الصوفية (أسلوباً رمزياً حافلاً بالثراء ، يلوحون به على طريقتهم إلى مجموعة ثابتة من المعاني

---

(١) موسى باشا ، د . عمر ، قطب العصر ، ص ٣٥٤ .
(٢) الرسالة القشيرية ، ص ٣٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

الذوقية ، وقد أعطى الصوفية هذا المعجم الخمري دلالات جديدة خرجت بالخمر إلى دائرة الرمز الصوفي ، والصوفية يستخدمون الألفاظ نفسها التي نجدها في شعر الخمر الحسية كالندمان والدنان ، إلا أنهم يشيرون بهذه الألفاظ إلى معاني الحب والفناء والاتحاد)[١] .

والمتتبع للرمز الخمري عند الصوفية يلاحظ أنهم يقسمون حال السكر إلى ثلاث درجات أو آفاق هي : (الذوق والشرب والري ، وهي في تقابل تام مع التسكر والسكر والصحو)[٢] .

وتحليل الصوفية للسكر بوصفه حالة ذاتية عالية نجده عند الكاشاني في مقدمة شرحه للتائية الكبرى : (السكر دهش يلحق سر المحب في مشاهدة جمال المحبوب فجأة؛ لأن روحانية الإنسان التي هو جوهر العقل لما انجذبت إلى جمال المحبوب ، بعد شعاعُ العقل عن النفس وذهل الحس عن المحسوس ، وألم بالباطل فرح ونشاط وهزة وانبساط لتباعده عن عالم التفرقة والتمييز ، وأصاب السر دهش ووله وهيمان لتميز نراه في شهود الجمال ، وتسمى هذه الحالة سكراً لمشاركتها السكر الظاهري في الأوصاف المذكورة ، إلا أن السبب لإنارة نور العقل في السكر المعنوي غلبة نور الشهود ، وفي السكر الظاهري غشيان ظلمة الطبيعة)[٣] .

وهكذا لاحظنا أن السكر عند المتصوفة ، يعني الكثير سن المعاني التي تشكل دعائم حياة الصوفي الذي عاش في اتصال دائم مع الأعلى فكيف بدت هذه الخمرة في الشعر ؟

* * *

---

(١) شعر ابن الفارض ـ دراسة فن الشعر الصوفي ، ص ١٣٢ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ٣٨ .

(٣) كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

الخمرة عند الصوفيات

وقد برعت الشواعر الصوفيات في الافتنان في ذكر خمرة العشق الإلهي، وقد بدأت ذلك رابعة العدوية ، فالخمرة والكأس والنديم ثالوث وهي رابعة فتقول :

كأسي وخَمْري والنَّديْم ثلاثةٌ ... وأنا المَشُوقةُ في المحبَّة رابعهْ
كأسُ المسرَّةِ والنَّعيمِ يُديرها ... ساقي المُدامِ على المَدى مُتَتابعهْ
فإذا نظرتُ فلا أرى إلاَّ له ... وإذا حَضرت فلا أُرَى إلا معهْ
يا عاذلي ! إنِّي أحبُّ جَمالَهُ ... تاللهِ ما أُذْنِي لعَذلِكَ سامعهْ
كَمْ بتُّ في حُرَقي وفرطِ تعلُّقي ... أجري عُيوناً من عيوني الدَّامعهْ
لا عَبْرتي تَرْقا ولا وَصْلِي له ... يَبقى ولا عَيني القَريحةُ هَاجِعَه[1]

فهنا جمعت الشاعرة كل مستلزمات الشَّراب ، فأولاً : كأس المسرة ، ثانياً : الساقي ، ثالثاً : النَّديم ، ثم تصبح في الحضرة الإلهية فلا تُرى إلاَّ معه ، عندها لا ينفع عذل عاذل فهي أسيرة لجمال خالقها ، شاربة للمدام على المدى شرباً متتبعاً ، فكما (أن من تعود شرب الخمر حتى أصبح مدمناً عليه لا يرتوي منها مهما شرب ، كذلك من ذاق طعم الخمر الإلهية ، وسكر بها لا تروى له غلة مهما شرب ، ورجل الصحو لا يلتذ

(١) ديوان رابعة العدوية ص ٨٠ .

بالشرب ولا يقوى عليه ، في حين أن رجل الشرب يلتذ بالشرب ويطلب المزيد)[1] .

(فهل هناك حياة روحية أرقى من هذه التي يدأب فيها الإنسان على تصفية نفسه وتنقية قلبه ، وجلاء عين بصيرته ، على التأمل المتصل في الكون ، والاتصال الدائم بمبدع هذا الكون ومفيض الوجود والحياة والجمال عليه ، وهل هناك مذهب أعمق أثراً في نفس الذي ينتهي إليه ، وفي توجيه حياته العملية ، من هذا المذهب؛ الذي أقيم على دعائم قوية من الحب الصادق ، والرضا الخالص ، والاطمئنان إلى كل شيء والقبول الحسن لكل شيء ، بحيث تصبح اللذة والألم والنعيم والعذاب والغنى والفقر والسعادة والشقاء كلها لديه سواء ، وهل هناك حياة أنعم حالاً وأوفر كمالاً من هذه الحياة التي يبسط عليها الحب والإخاء والمساواة أجنحتها على هذا الوجه ؟ !)[2] .

وهذا ما دعا العلاَّمة (ماسينيون) إلى القول عن رابعة (إنها تركت في الإسلام أريجاً من الحب، وعِطراً من الولاية لن يتبخرا، ولن يزولا)[3] .

ونخلص من هذا إلى أن رابعة (تختلف عن متقدمي الصوفية الذين كانوا مجرد زهَّاد ونسَّاك ذلك أنها كانت صوفية بحق يدفعها حب قوي دفَّاق ، كما كانت طليعة الصوفية الذين قالوا بالحب الخالص الذي لا تقيده رغبة سوى حب الله وحده ، وكانت طليعتهم أيضاً في جعل الحب مصدراً للإلهام والكشف)[4] .

لقد جعلت رابعة محبة الله سر الحياة وطابعها ، وهدفها الأعلى ومن

---

(١) الحب والمحبة الإلهية ، ص ٣٢ .
(٢) د .حلمي ، مصطفى ، ابن الفارض والحب الإلهي ، ص ٣١٦ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، العدد الحادي عشر ، المجلد التاسع ، ص ٤٢٩ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد التاسع ، ص ٤٢٩ .

محبة الله تنبثق محبة كل ما في الوجود . وهذا الحب الذي يربط قلب العبد بخالقه ، هو من المعارف الصوفية كافة وملهمهما ، وهو سر المقامات والأحوال جميعها . بل إن هذا الحب ليحيل ماديات الكون بأسرها إلى أرواح مسبّحة عابدة ، لأنها بالحبّ خلقت ، وبالحبّ قامت ، وبالحب تسبّح ، وتهتف ، وإن من شيء إلاَّ يسبّح بحمده .

يعرّف القشيري (السكر) بأنه غيبة بوارد عميق ويأتي هذا الوارد عندما يتجلّى الحق للعبد بصفة من صفات جماله ينقطع العبد في حالة أشبه ما تكون بحال السكر ، يفقد فيها وعيه بذاته وبالعالم حوله ، وينحصر فيها وعيه في الله وحده من غير إحاطة ولا شمول ولا تحديد بكيفية زمانية أو مكانية : بل استغراق كلي للمتناهي في اللامتناهي ، وشعور غامر بوحدة الذات والموضوع ، وهذا في نظر الصوفية هو الصَّعْق ، والموضوع الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[1] ، (فالوارد الذي أسكر موسى وصعقه جاء عندما تجلّى ربه للجبل أي ظهر في صورة من صور جماله في الجبل ، فغاب عن نفسه في هذاالمشهد وشغل عنها ، وعن الجبل ، وبقي وعيه بالله المتجلّي وحده)[2] .

والحديث عن الخمر لم يقتصر على رابعة العدوية ، وإنما نراه عند رعيل من الشواعر اللواتي تَغَذَّين بروح الإسلام ، ممَّن أدركن سرّ الحياة الصوفية وجوهرها ، وهذا السر هو إنكار الذات ، وفناء المحبّ في المحبوب ، فهذه ميمونة السوداء التي تخيّلت لقلوب العارفين أجنحة تطير بهم من عالم الغيب إلى ملكوت رب العالمين ليسقوا من خمرة الصدق فتقول :

قلوبُ العارفين لها عيونٌ ... ترى ما لا يراه النَّاظرونا

---

(١) الأعراف : ٧/ ١٤٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ٧٢ .

وألسنة بسرٍّ قد تناجي يغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا
فتسقيها شراب الصدق صرفاً وتشرب من كؤوس العارفينا[1]

فما هذا الشراب الصرف ، الذي يغدق في كؤوس العارفين ؟ إنها خمرة الحب الإلهي الممزوجة بالصدق ، التي تروي ظمأ النفوس العطشى إلى رؤية النور الإلهي .

هذه العيون الحاذقة ترى الجمال الإلهي فتسكر به ، والجلال والجمال لله وصف ذاتي في نفسه وفي صنعه ، (فالجمال هو نعوت الرحمة.والألفاظ من الحضرة الإلهية باسمه الجميل ، وهو الجمال الذي له الجلال المشهود في العالم ، وأما الجلال فهو نعوت القهر من الحضرة الإلهية الذي يكون عنده الوجود، والهيبة التي هي من أثر الجمال والأنس، الذي هو من أثر الجلال نعتان للمخلوق لا للخالق ولا لما يوصف به ، فإن الأنس مشاهدة جمال الحضرة الإلهية من القلب وهو جلال الجمال، وليس كذلك، ولا يهاب ولا يأنس إلا موجود، ولا موجود إلا الله ، فالأثر عين الصفة ، والصفة ليست مغايرة للموصوف في حال اتصافه بها ، بل هي عين الموصوف ، فلا محب ولا محبوب إلا الله عز وجل ، فما في الوجود إلا الحضرة الإلهية ، وهي ذاته وصفاته وأفعاله)[2] .

ولكن نلاحظ تغاير التجليات من شخص لآخر ما سبب هذا التغاير؟! .

(إن تغاير التجليات إنما كان ، من حيث ظهوره فيك ، فوصف نفسه بالحب من أجلك أسكرك هذا العلم الحاصل لك من هذا التجلي عن أن تكون أنت المحب من أجله)[3] .

---

(١) النيسابوري ، عقلاء المجانين ، ص ١١٢ .
(٢) الحب والمحبة الإلهية ، ص ٣٢ .
(٣) عقلاء المجانين ، ص ١٢٥ .

وقد عرجت ريحانة على موضوع الخمر عندما وصفت حال المتعبدين فمنهم يميلون كما تميل الأغصان بقولها :

تَعـــوَّد سهـــر الليـــلِ فـــإنَّ النَّـــوم خُســـرانُ
ولا تَـــرْكَـــنْ إلـــى الـــذنـــبِ فـــإن الـــذنـــب خســـرانُ
فكـــن للـــوحـــي درَّاســـاً وللقـــرآءِ أخـــدانُ
إذا مـــا الليـــل فـــاجـــأهـــم فهُـــمْ فـــي الليـــلِ رُهْبـــانُ
يَميلـــونَ كمـــا مـــالـــت مـــنَ الأريـــاح أغصـــانُ[1]

فمن ذاق طعم القرآن عند المتصوّفة ، لا بد أن يسكر بخمرة المعرفة ، فيميل عن كل شيء ما عدا وجه ربه الكريم .

(وتظهر الأشواق في قلب الصوفي على أنحاء ، فقد تظهر فجأة قوية شديدةً ، وقد تبدو خافتةً أول الأمر ثم تأخذ في القوة واللمعان ، وهنا يشاهد الصوفي الصفات الإلهية ، وآثارها ويشتغل بهذه المشاعر عن نفسه ، وعن كل ما سوى الله)[2] .

من هنا نرى اختلاف الشواعر في التعبير عن السكر ، فهذه عائشة الباعونية قد سقيت من مدام الحب فعبرت عن ذلك بقولها :

وطُفْتَ عليَّ في حال التصابي بكـأسٍ عيـشُ شـاربـه يطيـبُ
تُنـادمنـي وتُسقينـي مـدامـي ويُحضـرنـي لـديـكَ فـلا أغيـبُ
وتُـذكـرنـي وتُشهـدنـي جَمـالاً تقـدَّم أن يكـون لـه ضـريـبُ
فـلا خـوفٌ وأنـتَ أمـانُ قلبـي ولا سُقْـمٌ وأنـت لـيَ الطبيـبُ
ولا حـزنٌ وأنـتَ سُـرور سـرِّي ولا سُـؤل وأنـت لـي الحبيـبُ[3]

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .
(٢) الحب والمحبة الإلهية ، ابن عربي ، ص ٣٢ .
(٣) الكواكب السائرة ، ١/ ٢٩١ .

فما هذه الكأس العجيبة التي تطوف في حال التصابي، فيحتسيها شاربها ثم تحضر له الحبيب ، فلا يغيب عن عين محبوبه ، وتريه جمالاً ليس له مثيل ، فيعيش القلب بأمان دائم ، ويشفي من السقم فلا حزن والحبيب سروره الدائم ، ولا داعي لأي سؤال وهو في حضرة الحبيب ، فهناك ربط بين المدام، وما تشهده شاعرتنا من سمو المعرفة بالخالق عز وجل .

والملاحظ في كل ما تتبعناه من الخمريات الصوفية ، العلاقة بين الخمرة وجمال الخالق عز وجل ، فإذا شهد العقل الجمال هام سكراً ، ويظهر ذلك في قولها : « تشهدني جمالاً » ثم هذا الأنس الذي تشعر فيه الشاعرة ليبعد عنها كل خوف ، ويدخلها في عالم من الطمأنينة ، ويحصل الأمان للقلب ، وهنا نلاحظ هذا المزيج بين الخمر والغزل ، وهذا التداخل يضع القارىء في إطار جديد وأسلوب مبتكر . والملاحظ أن عائشة الباعونية كانت تصدر في أشعارها عن ثقافة (وقد ظهرت تلك الثقافة الموسوعية من خلال معرفتها الواسعة بعلوم القرآن والحديث والفقه والتربية والأدب والشعر والتصوف)[1] فحبها لله عز وجل كان صادراً عن معرفة متعمقة في الدين وفهمه ، ولها وقفات أخرى مع الخمر ، من ذلك قولها :

غَبتَ عني رحتَ مني زالت حُجبي وافى قربي
وصلي وصلي قد أدهشني وأنعشني وأحياني
بالجمالِ
في محلاه لما حيَّا من وافاه بالحميَّا
خلي خلي قم وتردى وتملى بالإحسان
من نوالي

(١) عائشة الباعونية ، ص ٢١٣ .

هـــذه الخمـــرةُ فيـــضُ منـــان عنـــد العـــرفـــانِ لهـــا نـــدمـــان
أهلـــي أهلـــي وســـاداتـــي وأحبـــابـــي وإخـــوانـــي
فـــي أحـــوالـــي[1]

فهذه الخمرة هي خمرة المعرفة الإلهية ، التي شطح معها المتصوفة في شطحاتهم ، وهذه الخمرة لها ندمان هم العارفون لله تعالى ، وإخوان الشاعرة في المحبة الإلهية .

فيلوح الصوفي بالمدامة إلى المحبة الإلهية ، وهي عندهم علَّة الوجود ، وسره الأول ، ومبدأ الخلق حيث كانت الذات الإلهية كنزاً مخفياً ، فلما أحب الله أن يُعرف خلق الخلق فيه فعرفوه . . .

والمحبة الإلهية بهذا المعنى الصوفي هي قوام العالم ومركزه الدائر ، ولباب الوجود وخطاب (كن فيكون) ، وهي محبة أزلية قديمة منزهة عن العلل ، مجردة عن حدود الزمان والمكان ، وهي التي بوساطتها ظهرت الأشياء ، وتجلت الحقائق ، وأشرقت الكائنات وهي الخمر والمعتقة في دنان الأزل .

أما عائشة التيمورية ، فقد كتبت أبياتاً في الخمريات تقول فيها :

ألا بـــــالله متَّعنـــــي بخمـــرٍ يُبـــرىء المصـــدورْ
فمِثْلـــي فـــي تقلبِّـــهِ علـــى أيـــدي الهَـــوى مَعـــذورْ
فـــؤادي آمـــرٌ نـــاهِ وعُـــذْري أننـــي مَـــأمـــورْ
فقـــالَ : إذاً يكـــون غـــدا لقـــائـــي إنـــه مَبْـــرُورْ
وأمـــا اليـــومَ معـــذرةً إليـــكَ لأننـــي مَخْمُـــورْ
شـــرابُ الأمـــس غَـــالَبني فـــراقـــبْ جَفْنـــي المَكســـورْ
أفيـــكَ الـــوعـــدُ يـــا هـــذا ؟ وسَعْـــي فـــي الهـــوى مَشْكُـــورْ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

فقلت له أتمزح بي ... وتحرمني اجتلاء النُّورْ
أتَهزأ بي لأنَّك قد ... تَراني دائناً مَدْحُورْ
إذا ما كنتَ رضْواناً ... يكن لي أسوةٌ بالحورْ
فراقبْ أنتَ في تَلفِي ... وحاذرْ لوعةَ المهجورْ
وعِشْ دُنياك مُبْتَسماً ... وفي عَقْباك كُنْ مأجُوْر[1]

فالخمرة هذه خمرة مختلفة ، إنها خمرة تشفي الصدور ، تجلب النور ، وفي خطاب الشاعرة لرضوان ما يشير بوضوح إلى أنها خمرة الحب الإلهي ، وفي قولها أسوة بالحور أمنية أن تحظى بشراب أهل الجنة الذي شربته الأرواح المجردة ، فانتشت وطربت وسكرت قبل أن يخلق العالم .

(فالسكر إذن هو انتشاء الصوفي بمشاهدة الجمال ، ومطالعة تجليه في الأعيان إنه دهشة وانبهار وحيرة وله وهيجان تنثني معه قوى العقل بقوة الحال المسكر ، وفي السكر يلم بالباطن نشاط هائل وفرح زائد ، يطلق للصوفي العنان ، فتكتسب لغته طرائق جديدة في التعبير)[2] .

وأخيراً وكما أسلفنا فالخمريات الصوفية غالباً ما اقترنت بالغزل والنسيب ، ممزوجة بالعقائد الصوفية ، فللخمرة إيحاءاتها ودلالاتها عند المتصوفة ، مما يجعلها ترقى لتصبح الشراب الأمثل لأناس هاموا عشقاً ، فمالو سكراً وطرباً لنور الحق ، لما رأوا جماله ، وبذلك تقترب من الخمرة الموعودة في القرآن الكريم ، لتصبح الشراب الأطهر كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[3] .

* * *

(١) حلية الطراز ، ص ١٠ .
(٢) شعر ابن الفارض ، ص ١٣٧ .
(٣) سورة الإنسان ٧٦/ ٢١ .

الفصل الثالث

الرمز الصوفي

الرمز الصوفي.

الرمز الصوفي عند الصوفيات .

الرمز الصوفي

بعد أن تحدثنا عن الأغزال والخمريات الصوفية ، يلح علينا سؤال وهو هل كان النسيب والخمريات غرضاً خاصاً ؟ أم أنهما تكأة ورمز لما هو أعمق ؟ ! . .

لتوضيح ذلك لا بد لنا من تعريف الرمز ، الرمز لغة : هو الإشارة ، وفي القرآن يقول تعالى : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾[1] .

ولكن ماذا نقصد بالرمز الصوفي ، وهل هناك دلالات خاصة اتبعها المتصوفة في حديثهم ومناجاتهم للذات العليا ؟ .

لقد استخدم المتصوفة الرمز في أشعارهم للتعبير عن عوالمهم الخاصة ، ولعل ذلك لاعتقادهم باتساعه في الدلالة ، ولقد فسر لنا الدكتور عبد الكريم اليافي ذلك فقال : (ولكننا في دراستنا للتصوف الإسلامي العربي نجد ـ بفضل ـ اتساعه ودقة اللغة العربية أن التعبير الصوفي يترجح بين الطرفين : الرمز من جهة ، والتجريد من جهة مقابلة ، فالشاعر إما أن يعتمد الرمز والإشارة والإيحاء والاستعارة والتشبيه ، وما إلى ذلك لتقريب أفكاره من المألوف المتعارف عليه ، وللإيحاء بعواطفه ولتصوير بعض ما عاناه ، وإما أن يدرك في تجربته من

---

(١) آل عمران ٣/ ٤١ .

أسرار تتأبىٰ على أدق أساليب البيان وتصعب على وسائل التعبير ، وتقتاص على ألين وجوه القول ، وعندئذ يتكلم فإذا هو لا يكاد يبين)[1] .

وفي رأي الدكتور اليافي أن الشعر الصوفي معبر عن (مذهب كبير رمزي في الشعر العربي)[2] ، ولعل ابن الفارض من الشعراء المتصوفة الأوائل الذين أكدوا الرمز في قوله :

وعنِّيَ بالتلويحِ يفهمُ ذائق ... غنيٌّ عن التصريحِ للمتعنت
بها لم ينج من يبح دمه وفي الـ ... إشارة معنى ما العبارة حدَّت
رموز كنوز عن معاني إشارة ... بمكنونِ ما تخفي السرائر حُفَّت[3]

أما ابن عربي فقد أشار إلى الرمز في قوله :

منازلُ الكون في الوجودِ ... منازلٌ كلَّها رموزُ
منازلٌ للعقول فيها ... دلائل كلَّها تجوزُ
لما أتى الطالبون قصداً ... لنيل شيءٌ فذلك وجوزوا
فيا عبيد الكيان جوزوا ... هذا الذي ساقكم وجوزوا[4]

كما يقول ابن عربي :

ألا إنَّ الرموز دليل صدق ... وألغاز ليدعى بالعباد
وإنَّ العالمين له رموز ... على المعنى المغيَّب في الفؤاد[5]

(والملاحظ أن شعر الخمر قد أخذ على يد الصوفية ، كما أخذ من قبل شعر الغزل أسلوباً رمزياً حافلاً بالثراء ، يلوِّحون به على طريقتهم إلى

---

(١) اليافي ، د . عبد الكريم ، دراسات فنية في الأدب العربي ، ص ٣١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣٢ .
(٣) ديوان ابن الفارض ، ص ٤٦ ـ ٥٥ .
(٤) الفتوحات المكية ، ج ١/١٨٨ .
(٥) المرجع السابق ، ج ١/١٨٨ .

مجموعة ثابتة من المعارف الذوقية ، وقد أعطى الصوفية هذا المعجم الخمري دلالات جديدة ، خرجت بالخمر إلى دائرة الرمز الصوفي ، والصوفية يستخدمون نفس الألفاظ التي نجدها في شعر الخمرة الحسية كالندمان والدنان ، إلاَّ أنهم يشيرون بهذه الألفاظ إلى معاني الحبِّ والفناء والاتحاد)[١] .

وقد أشار الدكتور عمر موسى باشا إلى الرمز عند الصوفية فقال : (إن استخدام الرمز في أشعارهم يستهدفون الإشارة النفسية باطناً لا ظاهراً ، وتلميحاً لا تصريحاً)[٢] .

كما أشار في دراسته للشاعر الصوفي (عمر اليافي) أن الشاعر اليافي أكثر من استخدام الرمز في شعره ، وكان يصرح بأن الأوصاف في الغزل والخمر ، كانت تشكل جوهر الرمز الصوفي عنده ، وهذا ما نجده عند أغلب شعراء الصوفية ، فإن دارس الأدب الصوفي يظفر (بشعر وفير بدت فيه المرأة رمزاً موحياً دالاً على الحب الإلهي ، ويعد الشعر الصوفي من هذ الوجهة شعراً غزلياً تم للصوفية فيه التأليف بين الحب الإلهي والحب الإنساني ، والتعبير عن العشق في طابعه الروحي من خلال أساليب غزلية موروثة كان قد تم تكوينها ونضجها الفني)[٣] .

* * *

(١) شعر ابن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي ، ص ١٣١ .
(٢) موسى باشا ، د . عمر ، عمر اليافي ، ص ٢٥٣ .
(٣) نصر ، عاطف جودة ، الرمز الصوفي عند الصوفية ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

الرمز الصوفي عند الصوفيات

إن المرأة في الشعر الصوفي قد رمزت بالحبيب إلى الحبيب الأعلى . ففي مجال الغزل الصوفي وجدنا رائدة الحب الإلهي رابعة العدوية ترمز بالحب ولكل ما يعانيه المحب من وجد وآلام الفراق ونعيم الوصال إلى حب أسمى وهو الحب العلوي من ذلك قولها :

إني جعلتُكَ في الفُؤادِ مُحدِّثي وأبحتُ جسمي من أرادَ جُلوسِي
فالجسمُ مني للجليسِ مؤانسٌ وحبيبُ قلبِي في الفؤادِ أنيسي[1]

تحدث عن هذه الأبيات كثيرون ، وأشاروا إلى كونها غزلاً حسيّاً تجرأت عليه رابعة العدوية ، ولكن المدقق فيها ، وفي ضوء الرمز عند المتصوفة ، يجد أنها لوحة فنية ، قبل أن تكون قطعة شعرية ، وهي مليئة بالرموز والأسرار الصوفية ، فوراء كل كلمة من الكلمات إلهام من عالم الشاعرة الذاتي عالم المثاليات اللامتناهي والإحساس العميق بالجمال ، فالمحادثة بين الفؤاد وحبيب هذا الفؤاد ، اختراق لكل حائل يمكن أن يحول بين الشاعرة والحبيب ، ثم إباحة الجلوس هنا نوع من الرياضة الروحية ، لتلقي النور ثم هذا الإنس والمؤانسة بين الحبيب والمحبوب كلها رموز لمعان صوفية ركز عليها المتصوفة ، فتعيين الرمز هنا بأنه ذلك

---

(١) الزبيدي ، إتحاف السادة المتقين ، ٩/ ٥٧٧ .

التعبير الحسي الذي يستعمله الصوفي ، من دون أن يكون مقصوداً لذاته ، بل إن المقصود هو ما وراء هذا التعبير من الدلالات المستترة والمعاني الإلهية .

وهكذا فإن تفسير أشعار الصوفي لا يمكن إلا من خلال الفهم العميق لفلسفته ، فأشعاره ترمز لمعان وإيحاءات مختلفة (فالجمال عند الصوفي هو جمال معنوي ، وذلك لأن الصوفي ينشد في الجمال المثل الأعلى ، أما الواقع فلا قيمة له في نظره ، لا بل إن هذا الواقع المرير هو الذي حدا به إلى تصور حياة غير حياته ، وإلى تصور حياة أوفر نعمة ، وأكثر سعادة من حياة الناس)[1] . وهذا العالم المنشود الأمثل الذي يبحث عنه الصوفي ، نجده عند رابعة في قولها :

راحَتَي يا إخواتي في خَلْوتي ... وحبيبي دائماً في حَضْرتي
لم أجِدْ لي عن هَواه عِوَضاً ... وهَواهُ في البرايا محْنَتي
حيثما كُنْتُ أُشاهِدْ حُسْنَه ... فَهْو مِحرابي إليه قِبْلَتي
إنْ أمُتْ وجداً من ثَمَّ رضا ... واعَنَائي في الورى واشقوتي!
يا طبيبَ القلبِ يا كلَّ المنى! ... جُد بوصلٍ منك يشفي مُهجتي
يا سروري وحياتي دائماً ... نَشْأتي مِنْك وأيضاً نَشوتي
قد هَجرْتُ الخلق جميعاً أرتجي ... منك وصلاً ، فهو أقصى مُنيتي[2]

في هذه القطعة الشعرية المؤلفة من الأبيات السبعة ، يبدو لنا العديد من الرموز الصوفية منها : المحراب ، القبلة ، الرضا ، الخلوة ، الحضرة ، الوصل ، النشأة ، النشوة ، كلها رموز تشير إلى حبٍّ كبير . وموضوع الحب من المواضيع التي أَكَّدَهَا عليها المتصوفة ، وهو يرمز إلى حبٍ مثالي يروي عطش النفوس الظمأى ، إنه نوع من التربية الروحية ،

---

(١) التعبير الصوفي ومشكلته ، ص ٥٩ .
(٢) الروض الفائق ، ص ١١٨ .

فلذلك نجد أن (التصوف قوة وبأس ونضال ، إنه تصعيد بالحياة إلى أعلى ، وارتفاع بالقيم الإنسانية إلى ما هو أرفع وأسمى . . . إنه معرفة وقوة ويقين وألحان ومواجيد ، إنه حركة بعث للقوى الروحية والعقلية والقلبية ، أقوى ما يكون للبعث ، أشد ما تكون الحركة والرفعة)[1] .

من هنا نجد أن بعض مواجيد رابعة العدوية إلى الآن تُنشد في الابتهالات الدينية ، من ذلك أنشودة « أنت رجائي » :

يـا سُـروري ومُنْيَتـي وعِمـادي ... وأنيسـي ، وعُـدَّتـي ومُـرَادي
أنتَ روحُ الفؤادِ ، أنتَ رَجائي ... أنتَ لي مُؤنسٌ ، وشوقُك زادي
أنت لولاكَ ، يا حياتي وأنسي! ... مـا تشتَّـتُّ فـي فسيـحِ البـلادِ
كَمْ بَدَتْ مِنَّةٌ ، وكم لكَ عندي ... مِـنْ عطـاءٍ ونعمـةٍ وأيـادِ
حُبُّـك الآن بُغْيتـي ونعيمـي ... وجَـلاءٌ لعيـن قلبـي الصَّـادي
ليس لي عَنْك ما حييتُ ـ براحٌ ... أنـتَ منِّـي ممكَّـنٌ فـي السـوادِ
إنْ تكـنْ راضيـاً علـيَّ فـإنـي ... يا مُنى القَلْبِ! قد بدا إسعادي[2]

(إن مواجد الحب الإلهي لثروة ترتفع بالقيم الإنسانية ، وتسمو بها ، وإن ألحان الضراعات الربانية لمثاليات عالية تصعد بالجنس البشري درجات ودرجات)[3] .

فهذه ريحانة تطاردها لواعج الشوق والحبّ واللهفة إلى اللقاء فتقول :

أنـتَ أُنسـي ومُنيتـي وسُـروري ... قد أبى القلب أنْ يحبَّ سواكَا
يـا حبيبـي ومُنيتـي واشْتيـاقـي ... طـالَ شَـوقي متى يكـونُ لقـاكَـا
ليـسَ سُـؤلـي مـن الجنـانِ نعيماً ... غيـر أنَّـي أريـدهـا لأراكَـا

(فهذا الحب المجرد من رغبة الجسد ، ونزوة الغريزة ، وهذا الحب

---

(١) سرور ، عبد الباقي ، الحياة الروحية في الإسلام ، ص ١٨ .
(٢) الروض الفائق ، ص ١١٧ .
(٣) الحياة الروحية في الإسلام ، ص ١٩ .

السامي الذي يصبح فيه صاحبه ، في حالة اندغام ، هو ملاك النزعة الوجدانية في الشعر الصوفي هذه النزعة التي تجعل من أنا ، أنت وينتهي بها المطاف إلى الفناء)[1] .

(ويعود الطابع الإشاري الذي يغلب على شعر هذا الاتجاه ، إلى كون نصوصه تنطلق من حالة نفسية وجدانية تتلبس الصوفي ، وتجعله يخرج من حدوده الزمانية ، بسبب ما يستشعره من غلبة صفات الحق التي تشرق على نفسه ، فتعمل على إزاحة رسومه ، وإسقاطها ليصبح خلواً من كل شيء غير المحبوب ، أو ليصبح خلواً من ذات نفسه ، ومن كل ما يتصل بحظوظها)[2] .

فالشعر الصوفي يدور حول موضوعات : الوجود والشوق والتغني بجمال المحبوب ، فهذه عائشة الباعونية التي شاهدت جمال حبيبها عن كثب من دون رقيب ، فتعلَّقت روحها بجماله رامزة بالحبيب للخالق الأعلى :

حبيبي أنتَ مِنْ قلبي قريبُ ... وعن سرّي جمالك لا يغيبُ
خلعتَ الحسن في خِلَع التَجلّي ... فشاهدتُ الجمالَ ولا رقيبُ
وأيدتَ الوصالَ فلا صدودٌ ... ولا همٌّ ولا شيءٌ يريبُ
فلا خوفٌ وأنتَ أمانُ قلبي ... ولا سقمٌ وأنتَ لي الطبيبُ
ولا حزنٌ وأنتَ سروري سرّي ... ولا سؤلٌ وأنتَ لي الحبيبُ[3]

فمن الملاحظ (أنَّ القول الشعري هنا لا يعدو أن يكون محاولة في الإفصاح عن التجربة الصوفية ، وعما يجيش في نفس صاحبها من مشاعر ، ذلك أن المتصوّف يتوخى التعبير عن لواعج الحب الإلهي ،

---

(١) الشعر الصوفي ، نسيب الاختيار ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .
(٢) سليطين ، الشعر الصوفي بين الانفصال والتوحد ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٣) الكواكب السائرة ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

ويحاول أن يفضي بما يعانيه في سبيل الوصول إلى نيل رضا المحبوب ، ولذلك نراه يسعى لمنح تجربته الداخلية هيئة ، لإكسابها حضوراً حسياً ، فهو يريد أن ينقلها ويمتد بها إلى الخارج)[1] .

فالشاعر الصوفي يعبر عمَّا يختلج في نفسه ، ويضطرب في قلبه ، تعبيراً فنياً صافياً ذلك لأنه هو فنان قبل كلِّ شيء ، يفنى في الشيء ويرى فيه ذاته ، ويجعل من الشعر أداة للتعبير عن أحواله ومواجيده ، ويبتكر لنفسه كلمات ومصطلحات لا نلقى لها نظيراً في مختلف الأبواب والشاعر الصوفي هو (شاعر وجداني ورمزي في آن واحد ، هو شاعر وجداني ، لأنه يستمد عناصر فنه من القلب ، وهذه النزعة الوجدانية التي يعتد بها ويأخذ بأسبابها ، هي نزعة مثالية . . سداها ولحمتها الحب الذي ينشد الجمال المطلق الجمال القائم في المثل)[2] .

وهذا الرمز يتضح أيضاً في مدح/ عائشة الباعونية/ للرسول الكريم ﷺ في قولها :

هو الحبيبُ من الرحمن رحمتُهُ ... للعالمينَ بإيجادٍ من العَدمِ
غَوثُ الورى، كعبةُ الآمال ملتزمي ... في حبِّه بالتَّفاني صارَ من لَزمي
جرَّدت حجِّي له من كلِّ مُفسدةٍ ... ولم تزلْ بالصفا تسعى لهُ قدمي
بحرُ الوفاء دعاني بالوفاء إلى ... نَيلِ الوفاء ورَوَّاني من النَّغمِ
بلغتُ ما رُمْتهُ منهم فلمْ أرُم ... عمَّن جلا غُمي بالعزم والهِمَم
أفرده المدح واستثني بمداحِكَ من ... حازوا عُلا الفضل مُذْ فازوا بسبقهمِ

فرمزت إلى الرسول الكريم بأنه كعبة الآمال ، بحر الوفاء . .

والحقيقة أن هذه الرموز كثيراً ما نجدها عند عائشة الباعونية في مدح

---

(١) الشعر الصوفي بين الانفصال والتوحدّ ، ص ١١٠ .
(٢) الشعر الصوفي ، ص ٢٤ .

الرسول الكريم ، فهي في تصوفها مزجت بين حبّها له تعالى وحبها لمن أحبه الله ، وهو الرسول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

أما الرمز الصوفي بالخمر عند الشواعر الصوفيات ، فنجده بتعبيرهن بالخمرة عمّا ذقن من المعارف الإلهية[1] ، فمن هذا الرمز قول رابعة العدوية :

كأسي وخَمري والنَّديم ثلاثةٌ ... وأنا المَشُوفَةُ في المحبَّةِ رابعهْ
كأسُ المسرةِ والنَّعيمِ يُديُرها ... ساقي المُدامِ على المدى مُتَتابعهْ
فإذا نظرتُ فلا أَرَى إلاَّ له ... وإذا حضرتَ فلا أُرَى إلاَّ معهْ
يا عاذلي! إني أحبّ جَماله ... تالله ما أُذْني لعَذْلك سامعهْ
كم بتُّ من حُرَقِي وفرطِ تعلُّقي ... أُجري عيوناً من عيوني الدَّامعهْ
لا عَبْرتي تَرْقى ، ولا وَصْلي له ... يَبقى ولا عَيني القريحة هاجِعَهْ

فقد رمزت رابعة بالخمرة إلى ما يروي ظمأ النفوس العطشى لرؤية نور ربِّها ، نلاحظ هنا مجلساً وجدانياً روحانياً محضاً ، يبدأ عند رؤية جمال الخالق عز وجل ، فتسكر الروح ثملى تتلقف هذا الفيض الرباني .

وتحليل الخمرة كنا قد بحثناه فيما سبق وقد أثرنا بحث رموزها لأنها في عرف المتصوفة تكأة الغزل (والخمرة هي السبيل الذي يسلكه الشاعر المتصوف ، وينتشي بها[2] وهنا لا بد لنا من الربط بين الخمرة ، والفناء الصوفي الذي هو حال يتوارى فيها آثار الإرادة الشخصية ، والشعور بالذات ، وكل ما سوى الحق ، فيصبح الصوفي وهو لا يرى في الوجود غير الحق ، ولا يشعر في الوجود سوى الحق وفعله وإرادته . وهذا ما نجده عند عائشة الباعونية التي ترمز بالخمرة والكأسِ إلى الشراب الإلهي ، في قولها[3] :

---

(١) العلاوي ، عائشة الباعونية ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ .
(٢) راجع الشعر بين الانفصال والتوحد ، د . محمد وفيق سليطين ، ص ١١٧ .
(٣) عمر اليافي ، ص ٣٠٨ .

وطفتَ عليَّ في حال التَّصابي بكأسٍ عيشُ شاربه يطيبُ
براحٍ نلتَ أقصى الريَّ منه وفي زيِّ تراءتْ لي الغيوبُ
وزالتْ باسْتوا شمسٍ ظلالي تَجَلٍّ ليس يعقبهُ غروبُ
وصرتُ إلى مقام ليس فيه سواكَ حبيبُ قلبي أو نصيبُ
تُنادمني وتُسقيني مُدامي ويُحضرني لديك فلا أغيبُ
وتُذكرني وتُشهدني جمالاً تقدَّم أن يكونَ له قريبُ
فلا خوفٌ وأنت أمانُ قلبي ولا سقمٌ وأنتَ لي الطبيبُ
ولا حزنٌ وأنتَ سرورَ سرِّي ولا سُؤْلٌ وأنت ليَ الحبيبُ[1]

فهنا نلاحظ أن الشراب عند عائشة كان في حال الحب ، وهذا الشراب ينقلها إلى حضرة الله عز وجل فلا تغيب عنه ، فهذه رموز عقائدية غايتها النهل من المحبة الإلهية .

فالخمر في شعر الصوفية (مجرد تلويح إلى معان خاصة تدور على المحبَّة والعرفان الصوفيّ ووصف أحوال الوجد الروحي ، فإنها لا تعدو أنْ تكون رمزاً فيه ما في الرموز الشعرية من انقسام متحدٍ ، وانشقاق يضايف بين الحسي والمعنوي ، ويجمع بين العيني والمجرد)[2] .

وهذا ما جعل ميمونة السوداء تشير إلى شراب الصدق الذي يشرب من كؤوس العارفين :

قلوبُ العارفين لها عيونٌ تَرى ما لا يَراه النَّاظرونا
وألسنةٌ بسرٍّ قد تناجي يغيبُ عن الكرام الكاتبينا
وأجنحةٌ تطيرُ بغير ريشٍ إلى ملكوت ربِّ العالمينا
فتسقيها شراب الصدق صِرْفاً وتشربُ من كؤوس العارفينا[3]

---

(١) الكواكب السائرة ، ١/ ٢٩١ .
(٢) الكواكب السائرة ، ج ١ ، ص ٢٩١ .
(٣) عقلاء المجانين ، ص ١١٢ .

فالرمز عند المتصوفة يكاد يكون ضرورة ، فمادام حبهم حباً علوياً كبيراً ، ومادام باب الرمز والإيحاء أوسع الأبواب كان لا بد لهم من الاعتماد على الرمز في أشعارهم . ومن تلك الرموز والإيحاءات قول عائشة التيمورية :

ألا بـــــــالله متّعنـــــــي بخمـــرٍ يُبـــرىء المصـــدور
فمِثْلـــــي فـــــي تقلُّبِـــــهِ علـــى أيـــدي الهَـــوى مَعـــذورْ
فـــــؤادي آمـــــرٌ نـــــاهٍ وعُـــذْري أننـــي مَـــأمـــورْ
فقـــالَ : إذاً يكـــون غـــداً لقـــائـــي إنـــه مَبْـــرورْ
وأمـــــا اليـــومَ معـــذرةً إليـــكَ لأننـــي مَخْمُـــورْ
شـــرابُ الأمـــس غَـــالبنـــي فـــراقـــبْ جَنْبِـــيَ المَكسـور[1]

فهذه الأبيات ترمز لتلون أحوال المحبين في المحبّة ، في الهيام ، فهم بين مسرور بقربه مستأنس بوصله متخوّف من نأيه محزون لقطيعة وجفوة ، فهم متقلبون على أيدي الهوى ، فهنا نلاحظ أن الشاعرة استعارت لغة الخمر ورمزت إليها لحالة الثمل والخمار ، والتي تكاد تكون من الظواهر العامة المشتركة بين كل المتصوّفة . فالرمز لتأثير اللقاء والخمر لليوم الثاني في قولها (معذرة إنني مخمور) و(شراب الأمس غالبني) فهنا يتسع الرمز ليشمل التعبير عن تخصيص القوى والجوارح كلها للمحبوب، وهو تخصيص (نابع من التحقق بالوصل والقرب والائتناس بمن استولى على ظاهر المحب وباطنه)[2] .

فتلك خمرة كما أسلفنا لا يتذوقها إلاّ العارفون؛ الذين يسرحون في ملكوت ربِّ العالمين ، أما الرمز عند ريحانة فاتجه للذين يدرسون الوحي

---

(١) حلية الطراز ، ص ١٠ .
(٢) الرمز الصوفي ، ص ١٧٣ .

فكأنهم أناسٌ يميلون ، كما تميل الأغصان ، هذا يعني أن نشوى العشق الإلهي متميزون بمحبتهم :

تعـــوَّدْ سهـــر الليـــلِ فـــإنَّ النـــوم خُســـرانُ
فكـــنْ للـــوحـــي درَّاســـاً وللقـــراء أخـــدانُ
إذا مـــا الليـــلُ فَـــاجـــأهـــم فهـــمْ فـــي الليـــل رهبـــانُ
يميلـــونَ كمـــا مـــالـــت مـــن الأريـــاح أغصـــانُ[1]

فبعد هذا العرض للرمز الصوفي نجد أنه اتخذ منحيين : الأول هو الرمز الغزلي ، والثاني الرمز بالخمر للوصول إلى ما هو أبعد من ذلك وهو القرب من رب العالمين ، والنهل من خمرة المعرفة به ليحلقن في عوالم خاصة لا يدركها إلا المتصوفة أنفسهم عبر شعر وجداني رمزي ، اعتمد ما وراء الكلمة من معان سامية ، وآفاق فكرية عالية ليفصح عن المعاناة وعن لواعج الحب والشوق الإلهي ، ففي ضوء ما عرضنا له نجد أن (الصوفي يهيب بالعواطف الإنسانية ليتأتى منها إلى التغني بالحب الإلهي ، ويخلص إلى الأساليب ، والدلالات على نحو يقربنا من رمزية التعبير عن اتساع الأنا الباطن المعبر عنه بالقلب ، لتجلي العلو في المحب ، وتمكنه من الشعور الداخلي ، بحيث يبدأ القلب بالعشق السماوي ، وينشرح لتلقي أسرار المحبة ؛ حتى إنه لا يتجزأ عن المحبوب ولا يروم عنه فكاكاً ، ويحتم عليه فلا يتسع لسواه إلا من حيث تبدو الأسواء صوراً يتنوع فيها التجلي)[2] .

* * *

(١) عقلاء المجانين ، ص ١٢٥ .
(٢) الرمز الصوفي وص ١٧٢ .

الفصل الرابع

النبويات

المولد النبـوي .

المدائح النبويـة .

النبويـــات

نقصد بالنبويات الأشعار التي قِيْلَتْ في مدح النبي ﷺ أو في مولده ، والملاحظ أنَّ الشواعر المتصوِّفات لجأنَ في أشعارهنَّ إلى مدح النبيّ ﷺ والثناء عليه ، من ذلك الشاعرة سعدونة التي لجأت إلى تقبيل التمثال شوقاً للرسول ﷺ فقالت :

سـألثـم التمثـال إذْ لـم أجـدْ ... لِلَثْـم نعـل المصطفـى مـن سبيـلِ
لعلَّنـــي أحظـــى ، بتقبيلـــه ... فـي جنَّـة الفـردوس أسنـى مقيـلِ
فـي ظـلِّ طـوبـى سـاكنـاً آمنـاً ... أسقـى بـأكـواسٍ مـن السَّلسبيـلِ
وأمســحُ القلـــبَ بـــه علَّـــه ... يسكـنُ مـا جـاش مـن غليـلِ
فطـالمـا استشفـى بـأطـلال مَـنْ ... يهواه أهل الحبِّ في كلِّ جيلِ[1]

ولكن رائدة النبويات من المتصوِّفات هي عائشة الباعونية؛ التي كتبت أشعاراً بالمولد النبوي في كتابها (المورد الأهنا في المولد الأسنى) في مدح النبي ﷺ (وهو التجربة النسائية الأولى والوحيدة في هذا النوع من الكتابة التاريخية ، فقبل عائشة وبعدها لم تدخل أي عالمة من عالمات المسلمين في مجال التأليف في المولد النبوي الشريف ، وقد استحقت عائشة بفضل كتابها هذا لقب (رائدة) في المولد النبوي من النساء المسلمات ، بل إنها تفوَقت بما قدَّمته في كتابها على كثير من علماء

(١) نزهة الجلساء للسيوطي ، ص ٢٣ .

المسلمين ، ممَّن اهتموا بتأليف المولد النبوي)[1] .

كما كتبت بمدح النبي ﷺ حتى أصبحت قصائدها النبوية ، وبديعياتها تتردد في الحلقات الصوفية والمجالس الأدبية .

وقد أشار الدكتور عمر موسى باشا إلى النغمات الصوفية في أشعار عائشة الباعونية فقال : (المعروف عن الشاعرة أنها كانت عابدة عالمة متمكنة)[2]؛ (وهي ذات منزلة سامية في الأوساط الاجتماعية والصوفية والأدبية إذ كانت تشترك في المجالس الأدبية والحلقات العلمية والمطارحات في هذا العصر).

ويتابع الدكتور عمر موسى باشا الحديث عن بعض قصائدها فيقول : إنها (تنبض بأصدق العواطف الصوفية والمشاعر اللدنية ، وهي تمثل قمة الوحدة المطلقة)[3] .

ففي النبويات يتجلى ذكاء عائشة الباعونية ، وثقافتها ومعرفتها بأدق تفصيل حياة النبي ﷺ ، كما يتجلى فيها فزعها للنبي ﷺ بمحبة قل نظيرها ، فقرنت حبها الإلهي بحب ثان كبير هو حبها للرسول الكريم ﷺ وكان ذلك بنَفَسٍ مديد ، ومقدرة قَلَّ نظيرها ، وهي في حبها للرسول ﷺ تخلفت عن رابعة العدوية التي قالت عندما سئلت كيف حبك للرسول ﷺ؟ فقالت : (إني والله أحبه حباً شديداً ، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوق)[4] .

ويمكن أن نقسم النبويات قسمين : أولهما قسم المولد النبوي ، وتفصيل قصة مولده ﷺ ، وثانيهما قسم سيرته ومدحه والثناء عليه .

* * *

---

(١) العلاوي ، عائشة الباعونية ، ص ١١٣ .

(٢) موسى باشا (عمر): الأدب العربي في العصر المملوكي والعصر العثماني ص ٣٧٣ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٧٤ .

(٤) اتحاف السادة المتقين للزبيدي ، ج ٩ ، ص ٧٢ .

المولد النبوي

قصة المولد النبوي (نوع من المدائح النبوية ، وهي ليست قديمة العهد في التاريخ الإسلامي ، وإن زعم بعض مؤلفي المولد أن النبي ﷺ (أوصى في حياته بأن يحتفل المسلمون بمولده قبل أن يموت)[1] .

ففي كتاب عائشة الباعونية (المورد الأهنا في المولد الأسنى) تحدثت عن المولد النبوي نثراً وشعراً باقتضاب ، وقسمت المولد النبوي إلى أقسام بدأتها كما يلي :

١ ـ النور المحمدي : وذلك أن الله تعالى أبدع قبل الكائنات نورهن وجعل ظهوره رحمة للعالمين. أما القصيدة التي تتحدث عن ذلك فهي قولها:

نبيٌّ براه الله من نورهِ الأسمى ... ولا عرش موجود ولا حادث يُسمى
وأبدع كل الكائنات لأجله ... ليجلو عليها مظهر الرحمة العظمى
وخصَّصه منه بما شاء مِنَّةً ... وأودعه سراً ووسَّعَه علما[2]

كما قالت :

عبيرُ الثَّنا في الخافقين يفوحُ ... وبشرُ الهنا في الكائناتِ يلوحُ[3]

---

(١) المدائح النبوية ، ص ٢٠٠ .
(٢) عائشة الباعونية ، ص ١٣٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

وتابعت حديثها عن الرسول ﷺ بانسياب رائع فتحدثت عن نسبه الشريف فقالت : (ومن كرامة هذا الحبيب الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، طهارة نسبه الشريف : فقالت :

مـــازال نـــورُ محمَّـــدٍ متنقـــلاً ... في الطيِّبين أولي المفاخر والعُلى
كَتنقـلِ الأقمـارِ فـي أبْـراجِهـا ... حَتـى بَـدا مـن أمِّـه متهلِّـلا[1]

وتتابع الحديث نثراً عن نسب الرسول ﷺ وعن نور هذا النسب إلى أنْ تقول شعراً :

نسبٌ تلاشى في سطوعِ ضيائه ... نـورُ الشُّمـوسِ وبهجـةُ الأقمـارِ
وكُسِي من الرحمنِ ثوبَ جلاله ... حسـرتْ لـديهـا سـائـر الأبصـارِ
وزَكا وطَابَ ولم يزلْ مُتسلسلاً ... أبـداً مـن الأَطْهـار لـلأَطهـارِ
أنَّـى فطـه بَـدْرُ أفُـقٍ سِمـائِـه ... ولَـــهُ بـــهِ فخـــرٌ وأيُّ فخـــارِ
صلَّى الله عليه ما وَضَحَ الضُّحى ... وشَدَا على الأَغصانِ صَوْتُ هزار[2]

وبانسجام رائع تلوح بشارات قدومه ﷺ :

اللهُ أكبـر كَـمْ وافـتْ بشـاراتُ ... وكَـمْ تبـدَّتْ لتعظيـم إشـاراتُ
وكَـمْ تجلَّـتْ بَـراهيـنٌ ومعجـزةٌ ... وكـم تـوالـت كـرامـات وآيـاتُ
بليلـةِ المـولـدِ الغـرَّاءِ حيـن دنَـا ... لوضعِ أحمد خير الخلقِ ميقاتُ[3]

وتحت عنوان مولده ﷺ قدمت له عائشة لذلك نثراً (وكان من آيات البشرى بمولده الشريف أن غشي والدته البَرَّة ، خلاصة الطاهرات من نساء بني زهرة ، أنوار الأنس والهيبة ورأت ثلاثة أعلام مضروبات ، علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر الكعبة) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤١ .
(٢) الهزار : هو العندليب .
(٣) المرجع السابق .

وأنشدت شعراً :

ولِدَ الحبيب فَمَرحباً بوفائهِ وبحسنِ طلعتهِ ونُور بهائهِ
وتشعشعَ النُّورُ الذي سجدت لهُ في وجهِ آدم أهلُ أفقِ سمائهِ[1]

وفي حديث عائشة عن رضاعته قالت : وكانت أول منْ أرضعته أمه ثم ثويبة مولاة عمّه أبي لهب ، وتقول شعراً :

هذا الحبيبُ وصفوةُ الجبارِ أزلاً ولا أثر من الآثارِ
هذا الذي قرن المهيمن اسمهُ مع اسمهِ وجلاه للإظهارِ[2]

ثم تورد حادثة شقِّ الصدر : (فبينما هو ذات يوم مع أخيه في المرعى ، وعين الله له ترعى ، إذ بثلاث نفر يعلوهم جمال وخفر ، ومعهم طست من ذهب يقصر عنه النعت مليء من ثلج الاختصاص الأعظم ، بما شاء الرحمن وأكرم ، فتولى أحدهم شق صدره الكريم وتولى الثاني غسل قلبه بذلك الماء العظيم . . .)[3] .

بعد هذا تؤرخ لنا رحلته ﷺ إلى الشام وزواجه من خديجة رضي الله عنها ، وبعثته وجملة من أعماله ﷺ ومعجزاته ثم تنشد شعراً :

ماذا عَسى أحصيه مِنْ إختِصاصهِ وذلك شيءٌ ليس يحصره العدُّ[4]

والملاحظ أن عائشة الباعونية أحبت الرسول حباً جماً ، ويتضح ذلك من تفصيلها لصفاته الخَلقيَّة والخُلُقيَّة ، من ذلك قولها :

نبيٌّ لهُ في كلِّ فضلٍ تقدمُ يُريك علاهُ فوقَ كلِّ مكملِ

---

(١) عائشة الباعونية ، ج ١ ، ص ١٥٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

وجيهُ بهِ يستمطرُ الفضلُ والعَطا ويُفجأ بالمأمولِ كل مؤملِ[1]

وفي النهاية تحدثت عن وفاة الرسول ﷺ فقالت : ولم يزل ﷺ متصفاً بالكمال الأعلى والخلق الأعظم مخصصاً بالجمال الأسنى ، والمجد الأكرم بشيراً ﴿وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[2] حتى بلّغ كتاب الله عز وجل .

وأوردت قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[3] ، وأنشدت شعراً في الصلاة على النبي :

صلُّوا على من عَليه الله خالقه صلَّى وسلَّم في الآزالِ والقِدَمِ
صلُّوا على بهجةِ الكونين أحمد مَنْ سما وسُمِّيَ قبل اللوحِ والقلمِ
صلُّوا عليه يصلي الله تكرمةً عشراً ويشملكم بالفضلِ والكرمِ[4]

وفي الصلاة على هذا الحبيب الأعظم ختمت عائشة المولد النبوي ، ومن خلال دراسة هذا المولد يتبين لنا أن عائشة الباعونية كانت رائدة بين نساء عصرها في هذا المجال كما أظهرت تلك الثقافة الموسوعية من خلال معرفتها الواسعة بعلوم القرآن والحديث والفقه والعربية والآداب والشعر والتصوف ، وهذه المعرفة الواسعة والمتنوعة؛ جعلتها تحتل مكانة علمية كبيرة بين علماء عصرها وجعلت معاصريها ، ومن ترجم لها يصفونها بأجمل الصفات (فهي العالمة ، العاملة المحدثة الفقيهة الحافظة ، الأديبة الشاعرة ، نادرة زمانها)[5] .

* * *

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٤ .
(٢) سورة الأحزاب ٣٣/ ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) سورة الأحزاب ٣٣/ ٥٦ .
(٤) عائشة الباعونية ، ص ١٧٦ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

المدائح النبوية

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

تحدث الدكتور زكي مبارك عن المدح النبوي بقوله : (المدائح النبوية من فنون الشعر التي اعتمدها المتصوفة ، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع ، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص ، وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول ﷺ ، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء ، ولكنه في الرسول يسمى مدحاً ، فهو فنٌ نشأ في البيئات الصوفية ، ولم يهتم به غير المتصوفة إلا القليل)[1] .

وإذا عدنا إلى بدايات مدح النبي ﷺ نجده عند كعب بن زهير في لاميَّته[2] :

إنَّ الرسول لنور يُستَضاءُ بهِ ... وصارمٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

في عصبةٍ من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

شُمُّ العرانين أبطالٌ لبوسهُمُ ... من نسج داود في الهيجا سَرابيلُ

لا يفرحونَ إذا نالتْ رماحُهمُ ... قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

---

(١) مبارك ، زكي ، المدائح النبوية في أدبنا العربي ، ص ١٧ ـ ١٨ .

(٢) راجع الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

ولكن ممَّا يلاحظ في هذه القصيدة أنها لا تفيض بالحب العارم للرسول ، الذي شعر به المتصوفة فيما بعد (لأن كعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت ومن كان في مثل حاله لا ينتظر منه صدق الثناء)[1] . وقد مدح النبي ﷺ حسان بن ثابت فقال :

وأحسنُ منك لم ترَ قطّ عينٌ وأجملُ منك لم تلدِ النِّساءُ

والإشادة بجمال النبي وحسنه ليس من الفضول ، كما يتوهمّ بعض الناس فإن فن المديح يوجب هذا اللون من الوصف[2] .

وقد عرض الصفدي في لاميَّة العجم إلى هذه المسألة فقال : (وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح ، وذلك مشهور ولا يحتاج إلى شاهد يؤيده)[3] .

لعلَّ أشهر مَنْ كتب قصائد مدح النبي ﷺ (صفيّ الدين الحلِّي) المتوفى (ت ٧٥٠ هـ) وتسمَّى (الكافية البديعية في المدائح النبوية) ، قصيدة طويلة في مدح الرسول الكريم ، والتي يبلغ عدد أبياتها مئة وخمسة وأربعين بيتاً من البحر البسيط ، وقد كتب عليها الحلِّي شرحاً سمَّاه (النتائج الإلهية في شرح الكافية) وشرحها فيما بعد عبد الغني النابلسي وسمّي شرحه (الجوهر السنِّي في شرح بديعية الصفي)[4] . يقول الحلِّي في مطلع بديعيته :

إن جئت سَلْعاً فسلْ عن جيرةِ العلم واقْرَ السلامَ على عُرْبٍ بذي سلم[5]

---

(١) المدائح النبوية ، ص ٢٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦ .
(٣) الصفدي ، الغيث المسجَّم ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
(٤) عتيق ، عبد العزيز ، علم البديع ، ص ٥٩ .
(٥) الأندلسي ، بديعيته العميان ، ص ١٧ .

وممن مدح المصطفى (محمد بن أحمد بن جابر الأندلسي) في قصيدة عدد أبياتها مائة وسبعة وعشرين بيتاً، يقول ابن جابر الأندلسي في بديعيته :

بطيبــة نــزلْ ويَمّــمْ سيِّــدَ الأمــم وانشرْ له المدحَ وانثر طيِّب الكَلِمِ[1]

كذلك من الأسماء التي لمعت في كتابة المديح النبوي (عز الدين الموصلي) المتوفى (٨٧٠ هـ) وقد اشتهر بأن يودع كل بيت اسم النوع البديعي بطريقة التورية ، من ذلك براعة الاستهلال في مطلع القصيدة :

براعة تستهلُ الدْمعَ في العَلم عبارة عن نداءِ المفرد العلَم[2]

ومن ذلك أيضاً بديعية (زين الدين شعبان بن محمد القرشي الآثار) المتوفى (ت ٩٥٠ هـ) والتي تسمى (العقد البديع في مدح الشفيع) وهي أكبر بديعياته يبلغ عدد أبياتها أربعمائة بيت ، يقول في مطلعها :

حسْنُ البراعةِ حمدُ الله في الكلم ومدحُ أحمدَ خير العُرْبِ والعجمِ[3]

إلى أن يقول في ختامها :

مَنْ كان مولاه في القرآن مادِحَه فـالعـذر منِّـي مبسـوط ولـم أُلـمِ
كلَّ المدائحِ والمُدَّاح في قِصَرٍ ولو أطالوا لَمالوا نحو عجزِّهم
لا أختَشي مقطعاً فالفضلُ متصلٌ بمـدحِ أحمـدَ فـي نثـرٍ ومنتظـمِ
صلَّـى وسلَّـم ربـي دائمـاً أبـداً عليه في المُبْتدا مع حُسْنِ مختَتَمِ

أما (ابن حجة الحموي) فقد مدح الرسول ﷺ في قصيدة تبلغ مائة وأربعين بيتاً يقول في مطلعها :

لي في ابتدا مدحِكُم يا عرب ذي سلمِ براعةٌ تستهلُ الدمعَ في العلمِ[4]

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥ .
(٢) علم البديع للعتيق ، ص ٦٢ .
(٣) الآثاري ، زين الدين ، بديعيات الآثاري ، تحقيق هلال ناجي ، ص ١٠٨ .
(٤) ابن حجة ، خزانة الأدب ، ص ٣ .

ومن أبياتها قوله :

في معرضِ الذمِ إنْ رمتَ المديحَ فقلْ لا عيبَ فِيهم سوى إكرام وفدِهمِ
واللفظ والوزن في أوصافة ائتلفا فيما يكون مديحي غير منسجم
حسن ابتدائي به أرجو التخلص من نارِ الجحيم وهذا حسن مختتم[1]

أما أشهر من كتب بمديح النبي من الشواعر المتصوفات ، فهي الرائدة عائشة الباعونية ، التي كتبت قصيدتها (الفتح المبين في مدح الأمين) والتي تعد من أشهر قصائد البديع المعروفة بالبديعيات في اللغة العربية ، وقد حازت عائشة بفضل بديعيتها لقبَ شاعرة البديع الأولى في الإسلام . . . وتتألف قصيدة الفتح المبين في مدح الأمين من مئة وثلاثين بيتاً حشدت فيها شاعرتنا فنون البديع فتقول : (ومن نظمها قصيدتها البديعية التي سارت بذكرها الركبان وفاقت بمبانيها على الصفي وابن حجة ، وسائر أهل البديع ، وذوي العرفان)[2] .

وقد أوردتْ عائشة الباعونية في تقديمها لبديعتيها التي قالتها في مدح الرسول الكريم مايلي : (وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع ، مشاهدة بسلامة الطباع ، منقحة بحسن البيان ، مبينة على أساس تقوى الله ورضوانه ، سافرة عن وجوه البديع ، سامية بمدح الحبيب الشفيع ، مطلقة من قيود تسمية الأنواع ، مشرفة الطوالع في أفق الإبداع موسومة بين القصائد النبويات بمقتضى الإلهام ، الذي هو عمدة أهل الإشارات بـ(الفتح المبين في مدح الأمين) استخرت الله تعالى بعد تمام نظمها ، وثبوت اسمها في شيء يروق الطالب موارده وتعظم عند المستفيد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣ .
(٢) العاملية فوزية ، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، ص ٣٩٢ .

فـوائده ، وهو أن أذكر بعد كل بيت بحر النوع الذي بنيت عليه وأقر شاهده)[1] .

ويبدو أن عائشة توجهت بها لوجهه الكريم فتقول إن غاية ما تتمناه : (أنْ ترفع ومن مثبت رفعها بوجاهة مدح الوجيه المشفع أن يصلي ويسلم عليه ، ويجعلها خالصةً لوجههِ الكريم ، ووسيلة لي ولوالديَ ولذريتي ولأحبائي ولمن والاني خيراً إلى نور الحظ من فضله ، وأن ينيلنا بوجاهة الممدوحِ لديه وتحقَّ عليه نهاية الآمال)[2] .

فالشاعرة الصوفية درجت في مديحها على الأسلوب القديم ، فعنيت بالاستهلال وحسن التخلص ، فوقفت على الديار والأطلال ، ولكنها لم تُطِلْ ، وقد كان القدماء يجعلون من قصيدة المديح القديمة أقساماً ثلاثة : مقدمة غزلية تسمى النسيب ، ثم وصف رحلة الشاعر في البيداء وتسمى الرحيل ، ثم المديح نفسه ، وقد كانت مدائحهم محشوة بالتملُّق والاستجداء .

أما براعة المطلع وذكر الأطلال فتقول عائشة الباعونية :

في حُسن مطلع أقمار بذي سَلَم أصبحتُ في زمرةِ العُشَّاق كالعلم
يا سعد إنْ أبصرَتْ عيناكَ كاظمةً وجئتَ سلعاً فسَلْ عن أهلها القدُم
فثَـمَّ أقمـارُ تَـمٍّ طـالعيـن علـى طـويلِـع حَيَّهـمْ وانـزلْ بحَيهـم[3]

الملاحظ في قصيدة عائشة كثرة الأبيات التي ذكرت فيها الرسول ﷺ ومديحه والثناء عليه وتبجيله في مثل قولها :

أحِبَـةٌ لـم يـزالـوا منتهـى أمَلـي وإن هموا بالتنائي أوجبوا ألمي
عَلَوْا كمالاً ، جَلَوا حُسْناً ، سَبَوا أمماً زادوا دلالاً ، فيا صبري فيما سَقمي

---

(١) عائشة الباعونية ، ص ١٩٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .
(٣) عائشة الباعونية ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

أحسنتُ ظنّي وإنْ هم حاولوا تَلَفي وثم سرّ وضني فيه شِيَمي
اليَحمدي وأبو تمّام ، كلُّ شَجٍ عانى الغرامَ إلى قلبي لأجلِهِمِ[1]

هنا تتجلّى ثقافة عائشة الباعونية في ذكرها الخليل بن أحمد وأبا تمام ، فهنا تومي بباع أبي تمام ، في المديح .

وتتسم قصيدة عائشة بالصدق والبعد عن النفاق لذا تعمدت الدخول إلى الموضوع مباشرة وهو مدح من كانت القصيدة في حضرته ، فتقدمت بشكوى بين يدي ممدحها :

قيلَ: اسْلَهُمْ قلتُ: إن هَبَّتْ صَبا سَحَراً وأشرقَ البدرُ تَمَّ سَلْخَ شهرهم
مالي رجوعٌ عن الأشجانِ في ولَهي بل عن سُلُوِّي رجوعي صار من لزمي
رجوتهم يعطفوا فضلاً وقد عطفوا لكنْ على تلفي من فرْط عِشْقِهِمِ
هانَ السُّهادُ غراماً فيه أقلقني شوقاً وعَزَّ الكَرى وجداً فلم أنم

فهي في بديعتها متَّسمة بعمق الشوق ، الذي يمسّ شغاف القلب ، وقد غلّفت شوقها بغلالة رقيقة من نسيم المديح ، فالمديح هنا ليس مرتبطاً بطلب معونة مادية ، يسارع الممدوح إلى تلبيتها وإنما هي معنوية في قولها :

رجوتُهُمْ يعطفوا فضلاً وقد عَطفوا لكنْ علي تلفي من فرْطِ عِشْقِهِمِ
هانَ السُّهادُ غراماً فيه أقلقني شوقاً وعزَّ الكَرى وجداً فلمْ أنَمِ[2]

فهي داخلة في حمايته ﷺ راغبة في عطفه ، وعندها حسّ داخلي تصبح معه تطرب لعذل العذال ، ويصبح الدمع والسقم فاضحين لذلك الحب الخالص الصادق فتقول :

لزمتُ صدقَ ولاهُم والتَزمت به فلست أسلوهُ إلاَّ عن سلُوِّهم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

حلُّوا بقلبي وحلَّى جودُ مِنَّتِهِم جيدي وشكر الأيادي سَمْعي
ما بهجةُ الشمس في الآفاقِ مسفرةً يوماً بأبْهجَ من لألاءِ حُسْنِهِم
لا مَكَّنتني المعالي من سيادَتها إنْ لم أكن لهُمُ من جملةِ الخَدَمِ[1]

وقد أكدت مدى محبتها بقولها (ما بهجة الشمس) ، فهم شمس حياتها الوضاءة ، وقد أحسنت الشاعرة في عرض فضل النبي ﷺ بقولها :

بفضلِهم غَمَروني من فواضِلهمْ بما عجزتُ به عن حق شُكْرِهِم
وأقْبسونِيَ مُذْ آنستُ نارهمُ من طورِ حضرتهمُ نوراً جَلا ظُلَمي[2]

أخيراً سأدوّن أبياتاً قد شدَّتْ انتباهي وأحببتُ أن أضعها هنا .

خير النبِّيينَ والبرهانُ متَّضحٌ عقلاً ونقلاً فلمْ نَرْتَبِ ولم نَهِمِ
أسناهُمُ نَسَباً أزكاهُمُ حَسَباً أعلاهُمُ قرباً من بارىء النَّسَمِ
طَه المُنادَى بألقابِ العُلا شَرفاً وغيرُهُ بالأسامي ، ضِمنَ كُتْبِهم
عزَّتْ جلالتهُ ، جلَّت مكانَتُهُ عَمَّت هدايتُهُ لخَلقِ بالنِّعمِ
أعْظِمْ به من نبيٍّ مُرسَلٍ نزلتْ في مدحِهِ مُحكمُ الآيات من حِكَمِ[3]

فالنبي هو خير النبيين ، أزكاهم حسباً ، أعلاهم قرباً ، طه المنادى بألقاب العلا ، نزلت فيه المدائح النبوية وهو الذي بلمس راحته يشفى المريض ، في قولها :

كم أعَقَبت راحةً باللمس راحتُهُ وكم مَحا مِحنَةً ريقٌ له بفَمِ
والماءُ من إصبعيهِ فاضَ فَيْضَ ند كفَّيهِ ، مردودُ هذا مُعدم العدمِ[4]

وما إلى ذلك من معجزات الرسول ﷺ ، التي خصَّتها عائشة الباعونية بالذكر .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .
(٣) عائشة الباعونية ، ص ٢٠٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

ذو المعجزاتِ التي منها الكتابُ فيها بُشْرى لمقتبسٍ منه بكلِّ جَمِ[1]

وهكذا تتابع قصيدتها بوابل من المديح ، فهو ذو الجاه ، وذو المجد ، وذو المعجزات ، وحبل الله وطه الطاهر الشَّيمَ ، وفريد حسن ، وهو كعبة الآمال .

ومادامت عائشة قد جعلت من الرسول ﷺ كعبة الآمال فلن تتوجَه بالمديح إلى غيره .

وأخيراً تُنهي عائشة بديعيتها بأنها لم تقصد من مديحها سوى الحب ، وحسب المحب أنْ يحشر مع أحبابه ، وقد أخلصت في مدحه ﷺ واختتمت قصيدتها بحسن مديحه قائلة :

حسبي بحُبِّكَ أنَّ المرءَ يُحشرُ مَعْ أحبابهِ فهَنَائي غير منحَسِم
مدحْتُ مجدكَ والإخلاص مُلْتَزمي فيه وحُسْنُ امتداحي فيكَ مُخْتَتَمي[2]

ولعلَّ أبدع ما قالته عائشة في بديعيتها هذه قولها :

ولو غدا البحرُ والفَضا ورقاً في حصر أوصافه ضاقا ببعضِهم
عالا عن المِثْل فالتشبيهُ مُمْتنعٌ في وصفهِ وقصور العقل كالعلمِ[3]

فلكمال الرسول ﷺ يعجز التشبيه في وصفه ، ويقصر العقل عن الإحاطة به .

إذا درسنا هذه القصيدة لاحظنا أنها بديعية حَوَتْ فنون البديع ، فأصحاب البديعيات اشترطوا: (أن يكون كل بيت شاهدا على نوعه بمجرده ، وإذا كان البيت له تعَلق بما بعده ، وما قبله لا يصح أن يكون شاهداً على ذلك النوع)[4] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .
(٣) عائشة الباعونية ، ص ٢٠٩ .
(٤) الحموي ، ابن حجة ، خزانة الأدب ، ص ١٨٥ .

(وهذه المدائح تغلب عليها فنون البديع ، وكانت هذه الفنون على الشعر كله في تلك الأيام ، فلا ينسى القارىء أنَّ هذا كله كان منتهى البلاغة عند شعراء القرن الثامن)[1] .

أما ألوان البديع التي لوَّنت بها عائشة بديعيتها ، والتي زادتها جمالاً وألقاً ، فهي عديدة بدأتها أولاً ببراعة المطلع ثم الجناس والمذيَّل ، والتام ثم الجناس المحرف ، والجناس الموشح ، والجناس المركب والجناس المصحف ، والمطلق والجناس المخالف ، . . وما إليه من أنواع البديع .

وأخيراً فالمديح النبوي عند الشواعر الصوفيات برز ولمع على يد عائشة الباعونية ، وكانت رائدة من رواده ، وقد استطاعت أن تذوب حباً وعشقاً بكمال أعلى ، وجمال أسمى ، وهو كمال الرسول الكريم ﷺ .

ثم جاءت عائشة التيمورية فسلكت طريق عائشة الباعونية في مدح النبي ، من ذلك قولها في مقدمتها :

أعن وميضٍ سرى في حندس الظُّلم ... أم نسمةٍ هاجت الأشواق من أَضمِ
فجددتْ لِيَ عهداً بالغرام مَضى ... وشَاقني نحو أحبابي بذي سَلمِ
دعا فؤاديَ من بعد السُّلُوِّ إلى ... ما كنت أعهد في قلبِي من القدم
وهـاجنـي لحبيـبٍ عشْـقُ منظـرِهِ ... يَمْحو ويُثبت ما يَهواه من عَدمي[2]

(وتظهر ذروة محبتها للرسول ﷺ عندما أخذت تمدحه في بردتها هذه ، وعندما أدلت دلوها في المديح فهي تترنم بمدحه ﷺ وبذكر أسمائه من مثل « المصطفى وطه » وكذلك اختصاصه بالشفاعة)[3] ويظهر هذا جلياً في قولها :

---

(١) مبارك ، زكي ، المدائح النبوية ، ص ١٨٩ .
(٢) حيلة الطراز ، ص ٤ .
(٣) نساء من التاريخ ، ص ٤٧٨ .

ولذتُ بالمصطفى ربِّ الشَّفاعةِ إذْ يَدعو المُنادي فتَحيا الناسُ من رحم
طه الَّذي قد كَسا إشراقُ بعثتِهِ وجهَ الوجودِ سناءَ الرُّشْدِ والكرم
طَـه الـذي كللـت أنـوارُ سنَّتِـهِ تيجان أمَّتِهِ فضلاً على الأممِ[1]

ثم تتابع على سُنَّة من كتبوا في المدح النبوي ذكر معجزاته التي لا تحصى ولا تحضر :

فكـم بنبـع زَلالٍ فـاضَ مـن يـدِهِ أروى الأُوامَ وأسقى منه كلَّ ظمي
والجذعُ أنَّ له من بعده جزعاً لمَّا نَأى عنه مَولى العُربِ والعجمِ
لانتْ له الصَّخرةُ الصمَّاءُ طائعةً مُذْ مَسَّها سيِّدُ الكونين بالقَدَم
فيـا لهـا معجـزاتٍ مـالهـا عـددٌ أقلَّهـا مـا بـدا نـاراً علـى علـم[2]

وتشير عائشة بأنها لن تفي مدح النبي ، ولو أن جوارحها نطقت بفضائله ، ولكنها ترجو أن تحظى بمدحه بقبس من نور :

ولا يُحِيطُ به مَدْحي ولو جعلتْ جَوارحي ألسناً يَنطقن بالحِكَمِ
وإنمـا أرتجـي مـن مَـدْحِـهِ قبسـاً يهدي الصراطَ ويُشفي الرَّوحَ من ألم[3]

وغاية أخرى من مدح المصطفى ﷺ لعائشة التيمورية ، وهي شفاعة الرسول الكريم :

وما سوى فوز كَوْنِي بعض أمَّتِهِ ذخـراً أفـوز بـه مـن زلَّـةِ الـوصـم
إلاَّ التماسيَ عفواً بالشفاعةِ لي من خاتم الرسل خَيْرِ الخلق كُلِّهم
محمد المصطفى مِشكَاةُ رحمتنا مصباحُ حِجتنا في بعثةِ الأمم[4]

وأخيراً تختم عائشة التيمورية بردتها في مخاطبة الرسول وترجو شفاعته فتقول :

---

(١) حلية الطراز ، ص ٤ ـ ٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٥ .

يا خيرَ مَنْ أرتجي إنْ لَمْ تكن مددي وَازلَّتي يوم وضع القسطِ واندمِي
فاشفعْ بحبِّ الذي أنتَ الحبيبُ لهُ لولاكَ ما أبـرز الدُّنيـا من العـدم
عليك أزكى صلاةِ الله ما افتتحتْ أدوارُ دهر وما ولَّتْ بمختتمِ[1]
يا خيرَ مَنْ أَرتجي إنْ لَمْ تَكُنْ مَددي وَازلتي يوم وضع القسطِ واندمي
فاشفعْ بحبِّ الذي أنت الحبيبُ له لولاكَ ما أبرز الدنيا من العدم
عليك أزكى صلاةِ الله ما افتتحت أدوارُ دهرٍ وما ولت بمختتمِ[2]

وهكذا تتوالى في أبيات عائشة التيمورية مدَح النبي ﷺ ، بصدق وحبها للرسول ، وتبرز مكارم أخلاقه ، ومنزلته الرفيعة عند خالقه من خلال أربعين بيتاً ، واشتملت بردتها على النسيب في صدرها ، ثم التحذير من هوى النفس ثم مدح النبي ، والكلام على مولده ومعجزاته ، ثم القرآن والإسراء ثم التوسل والمناجاة .

أخيراً فإن (منزلة الرسول ﷺ في قلوب المؤمنين والصالحين ، لا تدانيها منزلة لمخلوق من خلق الله ، وإن حب الرسول ﷺ يطغى على قلوب الكثيرين من المتصوفين ، لأنهم يرون أن حبهم له صلوات الله عليه وسلامه هو عنوان حبهم لله ، الذي اصطفاه ، وفضَّله على العالمين فهم يحبونه لمنزله ومقامه عند الله عز وجل ، وقد قرن الله تعالى في بعض آياته حب الله بحب الرسول ﷺ)[3] .

* * *

(١) المرجع السابق ، ص ٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥ .
(٣) خميس ، رابعة العدوية ، ص ١٠١ .

الباب الثالث
الدارسة الفنّيّة

الفصل الأول

الصورة الفنية في شعر الشواعر الصوفيات

تعريف الصورة الشعرية.

لمحة عن الصورة الفنية في النقد العربي.

مكونات الصورة الفنية عند الشواعر الصوفيات.

الصور الفنية في شعر شواعرنا الصوفيات.

الصورة الفنية في شعر الشواعر الصوفيَّات

تعريف الصورة الشعرية

للصورة الفنية أهميَّة كبيرة في تكوين الشعر عامة ، لذلك أفردنا لها فصلاً خاصاً ، لتشير إلى أثرها في تكوين شعر شواعرنا الصوفيات .

من هنا ربط **الدكتور محمد غنيمي هلال** ، بينها وبين التجربة الشعرية فقال : (نقصد بالتجربة الصورة الكاملة النفسية أو الكونية ، التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور ، تفكيراً ينمّ عن عميق شعوره وإحساسه ، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي ، وإخلاص فني ، لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول ليبعث بالحقائق ، أو يجاري الآخرين لينال رضاهم)[1] .

تعريف الصورة الشعرية :

عرَّف **الدكتور عبد القادر القط** الصورة الفنية فقال : (الصورة في الشعر هي (الشكل الفني) الذي تتخذه الألفاظ والعبارات ، بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبّر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة ، مستخدماً طاقات اللغة ، وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد ،

---

(١) هلال ، د . محمد غنيمي الصورة الفنية ، ص ٣٨٣ .

والمقابلة والتجانس ، وغيرها من وسائل التعبير الفني ، والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني ، أو يرسم بها صوره الشعرية)[1] .

نلاحظ في هذا التعريف أن د . عبد القادر القط أعطانا معنى متكاملاً ومتناغماً للصورة الشعرية ، يركز فيه على أهمية الشكل الفني ، فهي هذا المزيج من الألفاظ والعبارات التي تتخذ شكلاً معيناً ليرسم الشاعر منهما صورة معبرة لما ارتسم في مخيلته .

* * *

(١) القط ، د . عبد القادر ، الاتجاه الوجداني ، ص ٣٩٢ .

لمحة عن الصورة الفنية في النقد العربي

أكد النقاد العرب أهميةَ الصورة ، فمنذ القديم أشار الجمحي إلى ذلك بقوله : (والشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما يتثقفه اللسان)[1] .

هذا التأكيد للجمحي أن صناعة الشعر صناعة وثقافة إشارة إلى هذا التحويل للألفاظ والعبارات بحيث تصبح صورة شعرية واضحة .

أما الجاحظ فيقول : (إن الشعر ضرب من النَّسيج وجنس من التصوير)[2] . فالجاحظ هنا يركز على دور الصورة في الشعر ، حتى يصبح كله جنساً من التصوير ، وكأن الشاعر مهمته الأساسية لقط صور وإبرازها للمتلقي ، وفي تحديد أغراض الشعر قال الرماني علي بن عيسى : (أكثر ما تجري عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب ، المدح ، الهجاء ، الفخر ، الوصف ، ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف)[3] . وقيل أيضاً (الشعر ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعة ، والتشبيه الواقع ، وما سوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن)[4] .

---

(١) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ص ١٢٠ .

(٢) الجاحظ ، الحيوان ، ٣/ ١٣١ .

(٣) العمدة ، ص ١٢١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

فيجب على الشعر أن يمدنا بصورة واضحة ، وإلا لا يكون لقائله فضل إلا الوزن ، وخاصة عند الوصف فلا بد من إعطاء صورة تقرب الموصوف من أذهاننا .

أما ابن رشد فيشير قائلاً : (إذا مُيِّز القول الحقيقي سمي شعراً أو قولاً شعرياً ، ووجد له فعل الشعر مثال ذلك قول القائل :

ولما قضَينا مِنْ منىً كُلَّ حاجةٍ ومسَّحَ بالأركانِ مَنْ هُو مَاسحُ
أخذَنا بأطرافِ الأحاديث بيننا وسالتْ بأعناق المَطيِّ الأبَاطحُ

إنما صار شعراً من قبل أنه استعمل قوله (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ، وسالت بأعناق المطي الأباطح) بدل قوله (تحدثنا ومشينا) وكذلك قوله : (بعيدة مهوى القرط) .

إنما صار شعراً لأنه استعمل هذا القول بدل قوله (طويلة العنق) .

وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة ، وجدتها بهذه الحال وما عرى من هذه التعبيرات ، فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط . والتغييرات تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه وبالجملة وبإخراج القول غير مخرج العادة وبالجملة بجميع الأنواع التي تسمى عندنا مجازاً)[1] .

أما إذا عدنا إلى النقاد المحدثين نجد آراء أكثر تحديداً ، فهذا العقاد يقول :

(ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك ، وفكره صورة واضحة ، عما انطبع من ذلك في نفسك ، وما ابْتُدِع التشبيه لرسم الأشكال والألوان من نفس إلى نفس ، وبقوة الشعور ، ويقظته وعمقه واتساع مداه ، ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه)[2] .

---

(١) بدوي ، عبد الرحمن ، أرسطو طاليس ، فن الشعر ، ص ٢٤٧ .
(٢) العقاد ، الديوان ، ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨ .

فههنا نجد أن العقاد يتجاوز النص إلى القارىء ، ليرسم الصورة كما انطبعت في نفس القارىء ، أما الدكتور **محمد غنيمي هلال** فيؤكد عضوية الصورة الفنية في التجربة الشعرية ، فيجب ألاَّ تضطرب الصورة الشعرية ، ويكون اضطراب الصورة الشعرية إذا تنافرت أجزاؤها في داخلها ، أو تنامت مع الفكرة العامة ، أو الشعور الساري في التجربة نفسها ، وأخطر ما تتعرض له الصورة الشعرية أن يتناقض بعضها مع بعض ، وكذلك الفكرة الواحدة في داخل القصيدة .

ويرى الدكتور هلال أن (الصورة التعبيرية الإيجابية أقوى فناً من الصورة الوصفية المباشرة إذْ إن للإيحاء فضلاً لا ينكر على التصريح ، والصورة لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ والعبارات مجازية)[1] .

فالدكتور هلال يؤكد المفهوم الذي يعطي أهمية للإيحاء والإشارة في جمالية الصورة .

أما الدكتور جابر عصفور فقد وقف وقفة مطولة مع الصورة الفنية في كتابه (الصورة الفنية) فتحت عنوان (وظائف الصورة) قال :

(تنبع أهمية الصورة من طريقتها الخاصة في تقديم المعنى ، وتأثيرها في المتلقي ، ولكن ما هي أبعاد ذلك التأثير ؟ وهل ينحصر مداه في نوع من المتعة الذهنية الخالصة ، فيعجب المتلقي ببراعة الشاعر في بناء صوره ، وتلطفه في الدلالة على معانيه فحسب ؟ . أم أن تأثير الصورة يتعدى حدود هذه المتعة الشكلية ، فيثير انفعالات المتلقي إثارة خاصة ، تدفعه إلى موقف أو سلوك بعينه ؟ عند هذا المستوى نجد أنفسنا نتجاوز تأثير الصورة في ذاته ، إلى تأمل طبيعة الاستجابة التي تعقبه أو تصاحبه ،

---

(١) هلال ، محمد غنيمي ، ذكر سابقاً ، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧ .

في ضوء تصور أعم يتصل بوظيفة الشعر وأهميته)[1] .

وأخيراً ومهما تعددت الأقوال في الصورة الفنية فيبقى للصورة الفنية أثرها في بث الروح في الشعر ، ولا يمكننا أن ننكر أثر الثقافة التي يختزنها الشاعر في بناء الصورة وأثر توجُّه الشاعر للواقع الذي يعيشه ، فما أثر ذلك عند الشواعر الصوفيات ؟ .

(١) الصورة الفنية ، ص ٣٢٨ .

مكونات الصورة الفنية عند الشواعر الصوفيَّات

١ ـ القرآن الكريم :

كان للتوجه الديني الإسلامي للشاعرات المتصوِّفات أثره في الشعر الصوفي ، فإذا عدنا إلى رائدة الشعر الصوفي رابعة العدوية وجدنا تأثرها بالقرآن الكريم في صورها الفنية ، من ذلك قولها :

كلُّهم يَعبدون من خوفِ نار ... ويَرونَ النَّجاةَ حظاً جزيلا
أو بأنْ يَسكنوا الجنانَ فيَحظوْا ... بقصورٍ ويَشربوا سلسبيلا
ليس لي بالجِنانِ والنَّار حظٌّ ... أنا لا أبتغي سِواكَ سبيلا[1]

هذه المعادلة التي كثيراً ما طرحها القرآن الكريم في الترغيب والترهيب الجنة والنار ، النجاة والهلاك ، لتعطي الشاعرة فيها صورة لمشهد أعظم .

كذلك عائشة الباعونية ، التي بدا تأثرها واضحاً بالقرآن الكريم ، من ذلك قولها :

بفضلِهم غَمروني من فواضِلِهم ... بما عجزتُ به عن حق شكرِهِمِ
وأقبسوني مُذ آنستُ نَارهم ... من طورِ حضرتِهِمْ نوراً جَلا ظُلَمِي
وألبسوني ثيابَ الوصل مُعْلَمَةً ... بقربهم وأقرُّوا في العُلا عَلمي[2]

---

(١) قنديل ، عبد الرزاق ، رابعة العدوية ، عذراء ، البصرة البتول ، ص ١٩٤ .
(٢) عائشة الباعونية ، ذكر سابقاً ، ص ٢٠٥ .

ففي قولها (وأقبسوني مُذ آنست نارهم من طور حضرتهم نورا) نلاحظ تأثُّر هذه الصورة بالقرآن الكريم ولكن بعد صياغتها في الخيال فقد ورد في محكم آياته تعالى : ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[1] ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾[2] .

ولكن عائشة الباعونية جاءت بهذه الصورة في معرض مدح الرسول ﷺ فاقتبست النور من حضرته ﷺ وكذلك في قولها :

ولَوا غَدا البَحر حِبراً والفَضَا ورقاً في حصرِ أوصافِهِ ضَاقا ببعضهمِ[3]

وهذا ما يذكرنا بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[4] ، وهنا أيضاً تنقلنا عائشة في معرض مديح النبي الكريم ﷺ لصورة حاضرة فيضيق البحر لو صار حبراً عن مدح الرسول ، والفضاء لو صار ورقاً يعجز أن يلمَّ بأوصافه السامية . وفي بعض الأحيان ترمز عائشة الباعونية إلى سورة القلم كما في قولها :

محمـدُ اسمـه نعـتٌ لجملـةِ مَـا في الذِّكر من مدحهِ في نون والقلمِ[5]

فقد استخدمت الآية الأولى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[6] .

كما يظهر تأثرها في بعض الآيات في قولها :

---

(١) سورة طه ٢٠/ ١٠ .
(٢) سورة القصص ، ٢٨/ ٢٩ .
(٣) عائشة الباعونية ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ ، ١٤٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٤) سورة الكهف ، ١٨/ ١٠٩ .
(٥) عائشة الباعونية ، ذكر سابقاً ، ص ٢١٠ .
(٦) سورة القلم ، ٦٨/ ١ .

فـي النـور لاحَ عُـلاهُ لا نظير لـه نورُ القرآن قرآنـاً من لَـدُنْ حكَم[1]

إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[3] وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

وفي قولها في المولد النبوي :

ما زمجرَ الرَّعدُ بالتَسبيحِ واتصلتْ لله مـن قطـراتِ الـودقِ سجـداتُ

فتشير فيه إلى قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[4] .

وفي قولها في المولد :

والجنُّ صُدَّت وآفاقُ السَّما ملئت شُهُبـا بهـا أديـتْ منهـم حـراسـا

تشير عائشة في هذا البيت إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾[5] . وفي قولها أيضاً في المولد النبوي :

للمُصطفى المُجتبى يَاسين من نزلتْ فـي مجـدِهِ الفـردِ إنجيـلٌ وتـوراةٌ

تشير إلى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[6] .

وفي قولها :

وحَسبك مـن بـرهـانِ عُليـاه أنَّـه دَنـا وتَـدلَّـى والثَّبـات رجيـح

مشيرة إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[7] .

وفي قولها :

---

(١) عائشة الباعونية ، ص ٢١٠ .
(٢) سورة هود ، ١/١١ .
(٣) سورة النمل ، ٦/٢٧ .
(٤) سورة الرعد ، ١٣/١٣ .
(٥) سورة الجن ، ٨/٧٢ .
(٦) سورة الأعراف ، ١٥٧/٧ .
(٧) سورة النجم ٨/٥٣ .

بتفضيله التوراةُ جاءتْ وكم أتتْ بإنجيلِ عيسى في البيان شروحُ

تشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[1] .

٢ ـ الثقافة الإسلامية :

أما الثقافة الإسلامية فتظهر بوضوح في كتابة المولد النبي التي برعت فيها الشاعرة عائشة الباعونية وذلك في تفصيل سيرته من مولده إلى رضاعته ومعجزاته . من ذلك قولها في مولده ﷺ .

وُلِدَ الحبيب فمرحباً بوفائِهِ وبحُسْنِ طلعتِهِ ونور بهائِه
وتَشَعْشُع النور الذي سجدت له في وجه آدم أهل أفق سمائِهِ
وبدا جمال بالجلالِ ممنطق ومتوجٌ بكماله علائه
وأتى ختامُ المُرسَلين وخيرُ من وطىء الثَّرى وملا الوجود بآيهِ
متكملاً في ذاتِهِ وصفاتِهِ متحققاً في جمعهِ بولائه
ولد الذي لولاه ما ذكر الحمى كلا ولازاروا حمىٰ بولايه
ولد الذي لولا جلالة قدره لم تحشر الأعيان تحت لوائه[2]

وهكذا تتوالى في قصة مولد النبي ﷺ أوصاف ذكرت في السنة الشريفة وفي الثقافة الإسلامية ، من كمال أخلاقه ﷺ ، وكونه خاتم المرسلين ، وكونه شفيعاً لأمته يوم الحشر ، ويتضح ذلك في قولها :

يا أكرم الشفعاءِ جارية لها قلبٌ يُقلَّبُ في لظى برحائِهِ[3]

وفي قولها إنه ختام المرسلين :

هَذَا ختامُ الأنبياءِ هَذَا أجـ ـل الأصفيا هَذَا مجير الجارِ

---

(١) سورة الصف ٦١/٦ .
(٢) عائشة الباعونية ، ص ١٥٢ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ١٥٣ .

هَـذَا مـلاذُ الأوليـاءْ هـذا غيـا ... ثُ الأتقيـا هـذا جمـالُ الـدَّارِ
هَـــذَا السِّـــراجُ لمهتـــدٍ البشيـ ... ـــر لمقتـدٍ فـي عـزلـةٍ متـوار
هَذَا الحياة لعاشقٍ هذا الكفيل ... لصـــادقٍ بـــالجبـــرِ والإبـــرارِ
فتمسكـوا بـولائـه واستبشـروا ... بمغـانـمِ الـرِّضـوان مـن غفَّـارِ
وتـوصلـوا لصـلاتـهِ بصـلاتِكـم ... أبداً على هذا النبي المختارِ[1]

وهذا ما نجده في ثقافتنا الإسلامية ، فهو ختام الأنبياء ، وهو ملاذ الأولياء ، وهو السراج ، والبشير ، ومن فاز برضاه له مغنم من الله تعالى ، ومن صلَّى عليه صلَّى الله عليه .

* * *

(١) المرجع نفسه ، ص ١٥٣ .

الصور الفنية في شعر شواعرنا الصوفيات

اعتمدت الصورة الفنية من شعر شواعرنا على الرمزية ، بحيث تعدُّ الصورة الرمزية أكثر إيحاء عمَّا يشعرن به من حبٍّ لحبيب أعلى ، ولرابعة العدوية صور فنية رائعة ، من ذلك قولها :

أحبُّـك حَبَّيـن : حـبَّ الهـوى وحبـاً لأنَّـك أهـلٌ لـذاكـا
فـأمـا الَّـذي هـو حُـبُّ الهـوى فـذِكـرٌ شُغِلْـتُ بـه عَـنْ سِـواكـا
وأمَّـا الَّـذي أنـتَ أهـلٌ لـهُ فكشفكَ لي الحُجب حتى أراكا[1]

فرَّمزت لله تعالى بالحبيب وذلك بصورة أعلى من كل حبيب؛ يجب أن يحظى فيها بحبين حب الهوى وحب الأهلية .

ولرابعة العدوية صور فنية بسيطة غير معقدة في توجّهها لحبيبها ، من ذلك قولها :

يَا مُؤنِسَ الأَبرارِ في خَلَواتِهم يَـا خيـرَ مـن حَلَّـتْ بـه النُّـزال
مَـنْ ذاقَ حُبَّـك لا يـزالُ متيّمـاً مَـرَحَ الفُـؤاد ـ متيمـاً ـ بلْبَـالُ
مَـنْ ذاقَ حبّـك لا يُـرى متبسمـاً من طول حزنٍ في الحَشا إشعالُ[2]

ففي قولها (من ذاق حبك) استعارة مكنية ، حيث شبَّهت الحب

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٥٦ .

(٢) الروض الفائق ، ص ١١٧ .

بطعام يُذاق على سبيل الاستعارة المكنية ، وكذلك في قولها (مرح الفؤاد) شبَّهت الفؤاد بإنسان مرح على سبيل الاستعارة المكنية .

أما في تصوير رابعة لمجلس الشرب ، فإننا نجد أنها تعطينا صوراً متلاحقة لذلك المجلس حتى لكأننا حاضرون فيه ، في قولها :

كَأسي وخمري والنَّديمُ ثلاثةٌ وأنا المَشُوقةُ في المحبَّة رابعهْ
كَأس المسرَّةِ والنَّعيم يُديرها ساقي المُدام على المدى مُتتابعهْ
فإذا نظرتُ فلا أَرى إلا لهُ وإذا حَضرتُ فلا أُرى إلاَّ معهْ
يَا عاذلي إنِّي أحبُّ جمالَهُ تالله ما أذُني لعَذلك سامعهْ
كَمْ بتُّ من حرقي وفرط تعلُّقي أجري عيوناً من عيوني الدَّامعهْ
لا عَبْرتي تَرقا ولا وَصلي له يَبقى ولا عيني القَريحة هاجعهْ[1]

ترمز رابعة هنا لملجس روحاني من الوصل ، والفيض الإلهي ، فيه كأس وخمر ونديم ، وهي الإنسانة العطشى التي تنتظر هذه المنح ، فهي الشخصية الرابعة في المجلس ، وتقع في حالة من حالات التوحُّد مع المحبوب ، إلى درجة أنَّها إذا نظرت فلا ترى إلاَّ له ، وإذا حضرت فلا تُرى إلا معه .

ثم هذا الإعراض عن العذال ، والحجاب عنهم فلا تسمعهم ، جاء على غاية من الدقة والتوفيق .

وفي قولها(أجريت عيوناً من عيوني الدامعة) تصوير لغزارة الدموع حتى كأنها عين جارية .

وأخيراً تقع رابعة العدوية في دوامة اليأس فتقول :

لا عَبرتي تَرْقَا ولا وصلي له يبقى ولا عيني القريحة هاجعهْ

هنا تصوير عميق للدمعة التي لا تستطيع الصعود إلى الحبيب ، فكأنها

---

(١) رابعة العدوية لمحمد عطية خميس ، ص ٩٧ .

إنسان لا يقدر الوصول على سبيل الاستعارة المكنية .

أما الشاعرة ميمونة السوداء فقد صورت لقلوب العارفين بالله عيوناً حاذقة ، ترى ما لا يراه الآخرون ، بصورةٌ متكاملة جاءت على غاية من الدقة في قولها :

قلـوبُ العَـارفيـن لهـا عيـونٌ تَـرى مـا لا يَـراه النَّـاظـرونـا
وألسنـةٌ بسـرٍّ قـد تُنـاجـي يَغيـبُ عَـنْ الكـرام الكَـاتبينـا
وأجنحـةٌ تطيـرُ بغيـر ريـشٍ إلـى ملكـوت ربِّ العَـالمينـا
فتُسْقيهـا شـرابَ الصِّـدق صـرفـاً وتشرب من كؤوس العَارفينا[1]

ففي قولها : (قلوب العارفين لها عيون) استعارة مكنية ، فلقلوب المحبين لله الذين هُدوا إلى نوره تعالى عيونٌ ، ترى بوضوح أبعد من عيون الناس ، الذين لم يحصل لهم ذلك بعد وهذا ما يذكرنا بالرؤية القلبية .

ففي قولها (وألسنة بسرٍّ قد تناجي) استعارة مكنية ، فكما تناجي الألسنة بالأسرار ، كذلك القلوب عندما تلتحم بمحبة الخالق تناجيه ذاكرة أسرارها ، داعية شاكرة على نعمائه .

وأخيراً في قولها (أجنحة تطير بغير ريش) تنقلنا ميمونة بأجنحة القلوب إلى ملكوت ربِّ العالمين فهنا أيضاً استعارة مكنية .

وقد رسمت الشاعرة الصوفية ريحانة صورة لأثر الموت في الإنسان في قولها :

وما عاشقُ الدُّنيـا بناجٍ من الرَّدى ولا خـارجٌ منهـا بغيـر غليـلِ
فكم مَلـكٍ قـد صـفَّر الموتُ بيتَـهُ وأخـرجَ مـن ظـلٍّ عليـه ظليـلِ[2]

ففي قولها (فكم ملك قد صفر الموت بيته) كناية عن الكآبة والحزن

---

(١) عقلاء المجانين ، ص ١١٢ .
(٢) عقلاء المجانين ، ص ١٢٥ .

اللذين يخلفهما الموت وعبَّرت عنهما باللون الأصفر ليعطي البيت جواً من الحزن المقيت ، وفي قوله ريحانة :

صبَرت عن اللَّذات حتى تولَّتِ وألزمْتُ نفسي صَبْرَاً فاستمرَّتِ

وما النفسُ إلاَّ حيثُ يجعلُها الفتى فإنْ أطعمتْ تاقتْ[1] وإلاَّ تسلَتِ[2]

شخَّصت ريحانة النفس البشرية بإنسان يطعم المحبة الإلهية ، فيشتاق إلى الله تعالى ، ويبحث عنه ولا يسلو أو يبتعد عن التوجه إلى الخالق عزَّ وجلَّ .

أما الشاعرة الصوفية عائشة الباغونية فقد صورت في بديعيتها التي قالتها في مدح الرسول ﷺ صوراً متعددة كانت على غاية في الدقة والتنوع ، من ذلك قولها :

كيفَ السُّلو ونارُ الحبِّ موقدةٌ وسط الحشا وعيون الدَّمع كالدِّيمِ[3]

ولي جفونٌ بغيرِ السُّهد ما اكتحلتْ ولي رسومٌ بغير السُّقم لم تسمِ[4]

ففي قولها (نار الحب موقدة وسط الحشا) صورة ، وفي قولها (عيون الدمع كالديم) صورة أخرى هي تشبيه مرسل مجمل ، لم يذكر فيه وجه الشبه ، فبسبب بُعدْ محبوبها أصبحت عيناها تذرف دمعاً كالمطر ، وفي قولها (ولي جفون بغير السهد ما اكتحلت) صورة على غاية من الروعة ، إذ شبَّهت السهد بكحل تكتحل منه الجفون على سبيل الاستعارة المكنية ، وفي تلك البديعية صور متعددة ، أتت فيها عائشة

---

(١) تاقت نفسه إلى الشيء اشتاقت إليه .

(٢) عقلاء المجانين ، ص١٢٥ .

(٣) الديم: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق .

(٤) العلاوي ، عائشة الباعونية ، ص ٢٠٢ .

لتؤكد حبها للنبي ﷺ ومشيها في هديه ، بعد أن رأت النور في طلعته ، من ذلك قولها :

ما بهجة الشَّمسِ في الآفاقِ مسفرةً ... يوماً بأبهجَ من لألاء حُسْنهم
لا مَكَّنتني المَعالي من سيادتها ... إن لم أكنْ لهُمُ من جملة الخَدَم
بفضلِهِمْ غمروني من فَواضلهم ... بمَا عَجزتُ به عن حقِ شكرهم[1]

فقد شبهت حسن النبي الكريم ، ببهجة الشمس عندما تملأ الآفاق بنورها ، وفي قولها : (بفضلهم غمروني) شبهت فضل الرسول الكريم السخي بنهر يغمر الشاعرة على سبيل الاستعارة المكنية .

وهكذا يتوالى رسم الصور في بديعيتها لتعطينا صورة للرسول الكريم ﷺ لا أروع ولا أجمل من ذلك قولها :

للبذلِ مغتنمٍ بالبشرِ متسمِ ... يسمو بمبتسمٍ كالدرِّ منتظمِ

فقد شبَّهت مبسم الرسول الكريم ﷺ بالدر المنتظم ، وقد ذكرت أداة التشبيه فهو تشبيه مفصَّل .

ولعائشة التيمورية صورٌ جميلة في مدح لنبي ﷺ من ذلك قولها :

طه الذي قد كَسا إشراقُ بعثتِه ... وجهَ الوجودِ سناء الرشدِ والكرمِ
طَه الَّذي كللتْ أنوارُ سنَّته ... تيجان أمتِهِ فضلاً على الأممِ
فكَمْ بنبعِ زلالٍ فاضَ من يدِهِ ... أروى الأوامِ وأسقى منه كلَّ ظمي
والجذعُ أنَّ لَهُ من بعدِهِ جَزَعاً ... لمَّا نأى عنه مَولى العُرب والعَجمِ
لانتْ لهُ الصَّخرةُ الصَّماءُ طائعةً ... مُذْ مَسها سيِّد الكونين بالقدمِ
فيالها معجزاتٍ مَالها عددٌ ... أقلَّها ما بَدا نار على علمِ
ولا يحيطُ به مدحي ولو جُعلتْ ... جَوارحي ألسُناً ينطقن بالحكمِ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

وإنمـا أرتجـي مـن مـدحِـهِ قبسـاً يَهدي الصِّراطَ ويُشفي الرُّوح من ألم[1]

إن روعة صورة شاعرتنا تجعلنا نتخيل أمامنا لوحة حقيقية أو مشهداً مفعماً بالصور المتحركة لهذا الرسول الذي توالت على يده المعجزات ، فما هذا الكساء الرائع الذي علا الوجود ببعثة الرسول الكريم ؟ ! وما هذه الأنوار التي كللت تيجان أمته ؟ ! .

وأخيراً جوارح الشاعرة التي أصبحت ألسناً ينطقن بمدح الرسول تشخيص على غاية من الدقة . (فهذه السلسلة من الأفكار قد ربطت فيما بينها مجموعة من الصور المنسجمة الرائعة أعطت القصيدة وحدتها وتماسكها الروحي ، إذاً تحفظ الصورة وحدة النظام الروحي في القصيدة ، وهي بالتالي ضمان استمراره)[2] .

وهكذا فالشواعر الصوفيات جئن بصور أغنت أشعارهنَّ ، وأعطتها دفقاً من دون تكلف بل بعفوية وصدق ، فتوجُّهُهنَّ الديني حتم عليهنَّ عدم التكلف في تصوير مشاعرهن ، وصورهن ، عن طريق الرمز حيناً وعن طريق التصريح حيناً آخر ، فهنَّ فيض الإحساس الصادق ، من هنا كانت صورهنَّ متأثرة بالقرآن الكريم ، وبالثقافة الإسلامية ، وقد عمدن إلى الرمز حيناً باعتباره أكثر إيحاء ، وإلى التصريح حيناً ، لإعطاء صور متنوعة ومتعددة .

* * *

(١) حلية الطراز ، ص ٤ ـ ٥ .
(٢) عساف . ساسين ص ٥٩ .

الفصل الثاني

المذاهب الفنية والبنى الجمالية

الألفاظ والتراكيب .

أنواع الألفاظ .

أنواع التراكيب .

ظواهر التكرار .

البنى الهيكيلة والفنية .

المذاهب الفنية والبنى الجمالية

عند البحث في شعر شواعرنا المتصوفات نجد اعتمادهن على الأسلوب المنسجم البعيد عن التزام التكلف والتقيد ، ولجأن إلى اتباع مذهب السهولة المدعم برقة الألفاظ وحسن المعاني وتلك الموسيقى الهادئة التي يفرضها كل تركيب ، والتي تطبع الأشعار بطابع أنثوي رقيق . والحقيقة إن (للشعر أدوات يجب إعدادها قبل مرامه ، وتكلُّف نظمه ، منها : إيفاء كلّ معنى حظه من العبارات ، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي ، وأبهى صورة)[1] .

ونحن حين نبحث في البنى الفنية لا نغلِّب جانباً على جانب ، فالشعر هو كلّ ألفاظه وتراكيبه وموسيقاه ، وصوره ومعانيه ، فهو يشكل وحدة متكاملة منسجمة .

والملاحظ أن أغلب ما وصل إلينا من شعر الشواعر المتصوفات مقطعات أكثر من كونها قصائد ما عدا عائشة الباعونية التي كان لها قصائدها وبديعياتها ، وعائشة التيمورية التي كانت لها قصائدها المتميزة ، لذلك سوف نركز اهتمامنا في هذا الفصل على بحث الألفاظ والتراكيب والأساليب الفنية ، ونعرض لدراسة الأوزان والقوافي في هذه المقطَّعات والقصائد .

---

(١) ابن طباطبا ، عيار الشعر/ ٦ .

الألفاظ والتراكيب

اختيار الألفاظ :

لاحظنا أن الشواعر الصوفيات كن يخترن ألفاظهن الشعرية بدقة وكان لهن مجمعهن الصوفي الخاص ، الذي يحرص على ذكر الإيحاءات الصوفية بما تحمله من الدلالات خاصة ، فألفاظ الحب الإلهي الصوفي ، قد تتشابه وتتكرر ، وهنا نركز على دور المبتكرة الأولى في هذا المجال رابعة العدوية ، التي سبقت مثيلاتها إلى الألفاظ المستعملة في الحب الإلهي والخمريات الصوفية فقد رأينا الإشارة إلى الكأس والنديم والنعيم وما إليه .

وفي مجال المولد النبوي تبرز لنا عائشة الباعونية باعها الطويل في كتابة المولد ، وألفاظ المديح التي اختارتها بدقة وذكاء مع إيحاءاتها في الإشارة إلى شرف نسبة ﷺ ، والمعجزات التي خصها الله تعالى بها ، ثم بديعياتها التي حرصت فيها على اختيار اللفظ بدقة ثم تلتها عائشة التيمورية . فهناك كما مر معنا رموز معينة استعملتها المتصوفات كالحجاب ، والنشأة ، والنشوة ، والشهود ، والخلة ، والخليل وما إليه في رموز صغيرة لمعان كبيرة ركز عليها المتصوفة في معاجمهم ، وفي أشعار رابعة العدوية ما يظهر ذلك بوضوح .

أحبُّـك حُبَيـن حـبّ الهَـوى وحُبّـاً لأنَّـك أهـلٌ لـذاكـا

فـأمَّـا الّـذي هـو حُـبُّ الهـوى فَشُغلـي بِـذِكْـرِكَ عَمَّـن سِـواكَـا
وأمـا الّـذي أنـتَ أهـلٌ لـه فكشفكَ لي الحُجْب حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذَا ، ولا ذَاكَ لِي ولكن لك الحمد في ذَا وذَاكا[1]

فهنا يبدو توفيق شاعرتنا في اختيار اللفظ بدقة ، ففي التنكير في قولها (حبين) وظيفة مكثفة تساعد على إعطاء المعنى شمولية أوسع ليأتي فيما بعد التعريف بهذين الحبين والتفصيل لهما بقولها (حب الهوى) ثم يظهر بوضوح تركيزها على لفظ الحب من خلال أربعة أبيات لتؤكد حباً قوياً جارفاً ، كما أوردت فيها العديد من الرموز مثل (الذكر ، الحجب ، الكشف) من هذه الرموز قولها :

وتخللـتَ مَسْلـك الـروح مِنـي وبـه سُمّـي الخليـلُ خليـلا
فـإذا مـا نطقـتُ كنـتَ حَـديثـي وإذا مـا سَكـتُّ كنـتَ الخليـلا[2]

ففي البيتين اختصرت رابعة العدوية رمز الخلة الذي نادى به الصوفيون ، والذي أسلفنا الحديث عنه وكررت هذا اللفظ عدة مرات لتؤكد هذا المقام الذي خصَّ به الله المقربين كإبراهيم الخليل عليه السلام .

أما عائشة الباعونية فقد اشتهرت في تدقيقها باختيار اللفظ وخاصة في بديعياتها وفي أشعارها التي مدحت بها الرسول الكريم ، من ذلك قولها :

اللهُ أكبـر كَـم وافـتْ بشـاراتُ وكـم تبـدَّتْ لتعظيـم إشـاراتُ
وكَـمْ تَجلَّـت بَـرَاهِيـنٌ ومعجـزةً وكَـمْ تـوالـتْ كـرامـات وآيـاتُ
بليلـةِ المـولـد الغَـرَّاء حيـن دنـا لوضع أحمد خير الخلقِ ميقاتُ
أَعْظِـمْ بهـا ليلـةً جلَّـتْ بَـدائعهـا وأفْصَحَتْ بالهَنا فيها الجَماداتُ
وضُمْخت سَائر الأرجاءِ وامْتَلأت عِطْراً وفاحتْ مِنْ الأنحاء نفحاتُ

---

(١) الديوان ص ٨١ .
(٢) الديوان ص ٨٣ .

ودقَ طبلُ الهنا في كلِّ ناحيةٍ وقابلتهُ من الآفاقِ كُوساتُ[1]
وزُينتْ حَضَرات الغيب وانتصبتْ مِنْ أجل ياسين أعلامٌ ورايات
وجُلل العرشُ بالأنوار واتَّشَحَ الكرسي وزُخرف فردوسٌ وجناتُ
وفرقت خلع التكريم في المَلأ الأعلى وضَجتْ بحمدِ الله أصواتُ
وأشرقَ الكونُ بالأنوارِ واتصلتْ من الهواتفِ بالهادِي بشاراتُ
ونُكِستْ سائرُ الأصنام وانقلبتْ كأنَّها لَمْ تكنْ إلا هبَاءاتُ
ورجَّ إيوانُ كسرى رجةً سقطت لباسها شُرفٌ منه عديداتُ[2]

ففي ابتدائها بقولها : الله أكبر لفت للأنظار ، فالتكبير عند المسلمين لا يكون إلا لحادث جلل ثم بدأت تزف البشارات بألفاظ موحية كقولها (بشارات) (براهين) (معجزة) (كرامات) (آيات) (ميقات) (رايات) (أعلام) وكل ذلك بليلة (المولد الغرَّاء) .

فهنا يتجلى اختيار الصوفيات للفظ المعبر الذي يخدم المعنى بدقة وانسجام .

* * *

(١) الكوس بالضم ، الطبل ، وهي لفظة معرّبة .
(٢) العلاوي ، عائشة الباعونية ، ص ١٤٩ .

أنواع الألفاظ

١ ـ الألفاظ الصوفية :

اعتمدت أغلب أشعار الشواعر على الألفاظ الصوفية ، التي تحمل الكثير من الرموز المعبرة فنحن في أشعارهن لسنا (إزاء ألفاظ دقيقة لها دلالات دقيقة . فحسب ، وإنما نحن إزاء رموز تعبّر عمَّا تختلج به نفوس الشعراء من مشاعر)[١] .

وهذا النوع من الشعر الصوفي الرامز نجده في أشعار رابعة العدوية ، إذ كان لها طريقتها الخاصة في استخدام اللفظ الصوفي ، وخصوصاً في باب المحبة الإلهية حتى سميت الرائدة في مجال التصوف فمن ذلك قولها :

رَاحَتي يا إخوتي في خَلْوتي ... وحبيبي دائماً في حَضْرتي
لَمْ أجدْ لي عَنْ هَواه عوضاً ... وهَواهُ في البَريا محْنتِي
إنْ أمُتْ وجداً ومِنْ ثَمَّ رضاً ... واعَنَائي في الورى ! وَاشقوتِي !
يا طبيبَ القلبِ يا كلَّ المنى ... جُدْ بوصلٍ منْكَ ، يشفي مُهجتِي
يا سروري وحياتي دائماً ... نَشْأتي مِنْكَ ، وأيضاً نَشْوتِي
قد هَجَرْتُ الخلقَ جمعاً أرتجي ... مِنْكَ وصلاً ، فهو أقصى مُنيتِي[٢]

---

(١) ضيف د . شوقي ، في النقد الأدبي ، ص ١٣٠ .
(٢) الروض الفائق ، ص ١١٨ .

فألفاظ صوفية عديدة في هذه الأبيات (خلوتي ، حضرتي ، نشأتي ، نشوتي ، وصلاً) ، هذه الألفاظ تختصر منهج الحياة الروحية للمتصوفة ، فبكلمات قليلة ممَّا أوردته رابعة نستطيع أن نكتب كثيراً جداً عن مسالك الصوفية كالخلوة والحضرة والرضا أو الوصل والنشأة والنشوة . . .

أما الشاعرة الصوفية ريحانة فلها أبيات عديدة ذات نزعة صوفية ذاتية كقولها :

أَنتَ أُنسي ومُنيتي وسُروري ... قد أَبى القلبُ أن يحبَّ سِواكا
يَاحبيبي ومُنيتي واشْتِياقي ... طال شَوْقي متى يكون لقاكا
ليس سُؤلي من الجنانِ نعيماً ... غيرَ أنِّي أريدُها لأراكا[1]

نلاحظ هذا التوق إلى الأعلى عند المتصوفة وتطالعنا ألفاظ الأنس والشوق والجنان والنعيم وما إليها من الألفاظ التي أكدها المتصوفة ، من ذلك قول ريحانة :

بوجهكَ لا تُعذِّبني فإنِّي ... أُوَمِّل أن أفوزَ بخيرِ دارِ
منجَّدةٌ مزخرفةَ العَلالي ... بها المَأوى ونعم هيَ القرارُ
وأنتَ تُجاور الأبْرارَ فيها ... ولولا أنتَ ما طابَ المزارُ[2]

فهذه الألفاظ التي وصفت بها ريحانة الجنة تدل على معان صوفية ، فهي المأوى وهي القرار وهي منجدة مزخرفة ، ثم تجاور الأبرار في قولها (تجاور) كل ذلك يؤدي لنا المعنى الذي أرادته بإيجاز واضح .

أما عائشة الباعونية ، التي تيمَّها حبُّها للرسول الكريم فتركز في أشعارها على الألفاظ الصوفية أيضاً ، من ذلك قولها :

---

(١) الحسيني ، جمهرة الأولياء ، ص ١٢٥ .
(٢) النيسابوري ، ص ١٥٨ .

حَلُّوا بقلبي وَحَلَّى جُودُ منَّتهمْ جِيدي وشكر الأيادي مَسمعي وفمي
ما بهجةُ الشمسِ في الآفاق مسفرةٌ يوماً بأبهجَ مِنْ لآلاء حسنهمِ
بفضلهم غَمروني من فواضِلِهمْ بما عَجزتُ بهِ عَنْ حَق شكرهم
وأقبسونيَ مُذْ آنستُ نارهم مِنْ طُورِ حَضرتهم نوراً جلا ظلمي[1]

فالحلول في قولها (حلوا) والقبس في قولها أقبسوني والحضرة (حضرتهم) وما إليه ، كلها ألفاظ مستقاة من المعجم الصوفي .

كذلك عائشة التيمورية ركزت على المعاني الصوفية ، من ذلك قولها :

أتيتُ لِبابكَ العالي بذلِّي فإنْ لَمْ تَعفُ عَنْ ذَللي فمن لي
مقراً بالجنايةِ وامتثالي لأمر النفس في عقدي وحلِّي
ومعترفاً بأوزار ثقال أقادُ لحَملها طوعاً لِجهلي[2]

من ألفاظ ذلِّي ـ لم تعفُ عن ذنبي ـ مقراً بالجناية ـ معترفاً بأوزار ـ الخ . . . كلها ألفاظ قيلت بمعرض الندم والتوبة والرجوع إلى الله تعالى .

٢ ـ الألفاظ المتراوحة بين اللين والجزالة :

إن ألفاظ الشواعر الصوفيات تتراوح بين اللين الأنثوي المنبعث من منبت ديني ، والجزالة عند بعضهن الأخريات .

أما اللِّين في الألفاظ فله ما يسوّغُهُ ، فنحن نعرف أن بعض النقاد أشار إلى أن شعر حسان بن ثابت بعد دخوله في الإسلام قد لان ، وهنا لا بد

---

(١) عائشة الباعونية ، ص ٢٠٢ .
(٢) حلية الطراز ، ص ٤٦ .

للوجهة الدينية الصوفية بما تحمله من حب خالص للخالق من حمل الشواعر إلى عدم الالتفات إلى الألفاظ الجزلة ، كما لا بد للرقة الأنثوية التي طبعت أشعارهنَّ بطابع متميز من غيرهن من أن تضفي بعض اللين على اللفظ ، من قول رابعة العدوية :

أحبُّكَ حَبَّيـن : حُـبَّ الهـوى ... وحُبّـاً لأنـك أهـلُ لـذاكـا
فـأمَّـا الـذي هـو حُـبُّ الهـوى ... فـذِكـرٌ شُغلْـتُ بـه عَـنْ سِـواكـا
وأمـا الـذَّي أنـتَ أهـلٌ لـه ... فكشفكَ لي الحُجْبَ حتى أرَاكا
فـلا الحمـدُ فـي ذا ، لا ذاكَ لـي ... ولكنْ لكَ الحمدُ في ذا وذاكا[1]

في هذه المقطوعة نجد ألفاظاً لينة رقيقة هي ألفاظ الحب : أحبك ، حبين ، حب ، حباً ، الهوى ، أهل ، ولعل موضوع الحب الإلهي بشكل خاص يتطلب ألفاظاً رقيقة تندرج تحت لواء الخضوع لله تعالى . من ذلك قول ميمونة السوداء :

قُلـوبُ العَـارفيـنَ لهـا عيـونٌ ... تَـرى مـا لا يَـراه النَّـاظـرونـا
وألسنـةٌ بسـرِّ قـد تنـاجـي ... يغيـبُ عـن الكـرام الكـاتبينـا
وأجنحـة تطيـر بغيـر ريـش ... إلـى ملكـوت ربّ العَـالمينـا
فتسقيهـا شـراب الصـدقِ صـرفـاً ... وتَشربُ من كُؤوس العَارفينا[2]

فقلوب ، وألسنة ، وأجنحة وشراب والصدق وصرفاً وكؤوس كلها ألفاظ لينة تناسب الموضوع الصوفي ، وهو ما يحسن أن نسميه الانسجام الصوفي .

أما عائشة الباعونية التي جاءت في مرحلة متأخرة فكانت تعتني بألفاظها ، وكانت أشعارها تحمل ألفاظاً جزلة اختلفت فيها عن الشواعر المتصوفات الأخريات ، وخصوصاً في بديعياتها، كما في ألفاظ:

---

(١) الروض الفائق ، ص ١١٧ .
(٢) عقلاء المجانين ، ص ١١٢ .

حندس، المواضي ، مطالعهم ، عجاج ، الأجم ، آجامها ، فمن ذلك قولها :

تهابني الأسْدُ في آجامِها وظُبا تلك الظِّبا قد أذلتني لِعزِّهِم[1]

من ذلك قولها :

أمنْ وَميض سَرى في حُنْدُس الظُّلمِ أم نسمة هاجتْ الأشواقُ من إضم[2]

وهكذا تراوحت ألفاظ الشواعر بين اللِّين والجزالة ، بما يخدم المعنى ، ويفي بالغرض ، فكان في أشعارهنَّ حرارة التصوُّف وعمق الإيمان .

٣ ـ الألفاظ المستحدثة :

مثل : يشين ـ سبوا ـ سلخ ـ المفالس ـ كؤسات ـ من ذلك قول عائشة الباعونية :

هُمْ المَفاليس ماذَاقوا الغَرامَ ولا أمّوا حِمَى خيرِ خلق الله كلِّهم[3]

فقد استعملت لفظة المفاليس وهي لفظة مستحدثة ، وكذلك في قولها :

ودَق طبلُ الهَنا من كل نَاحية وقابلتَه من الآفاق كوساتُ[4]

وأخيراً فإن الطابع العالم الذي يغلب على الألفاظ هو السهولة والرقة الأنثوية والابتعاد عن التكلف والتعقيد مما رسم الأشعار بسمة خاصة ومميزة من أشعار غيرهن .

* * *

---

(١) عائشة الباعونية ، ص ٢٠٢ .

(٢) حلية الطراز ، ص ٤ .

(٣) عائشة الباعونية ، ص ١١٢ .

(٤) الروض الفائق ، ص ١١٧ .

أنواع التراكيب

إن مذهب السهولة المعتمد على الرقة والانسجام لا يبدو في الألفاظ فحسب ، وإنما يغلب على التراكيب ، والملاحظ أن التراكيب كانت على عدة أنواع :

أ ـ التراكيب الإضافية :

وهذه التراكيب أفادت في التعريف بما يرادُ الحديث عنه من ذلك قول رابعة العدوية :

أحبَّكَ حُبَّيـن : حـبُّ الهـوى وحبّـاً لأنَّـك أهـلٌ لـذاكـا[1]

ففي قولها حب الهوى عَرفت بحب كبير ، ثم تعريف الحب بالهوى ، أضاف للحب المزيد من السمو والرفعة ومن ذلك قولها :

أنتَ روحُ الفؤاد ، وأنتَ رَجائي أنتَ لي مؤنسٌ وشَوقكَ زادي[2]

وهذه (الروح) التي أضيفت للفؤاد ، تبعث فيه دفقاً من الحياة النابضة .

والحقيقة إن التراكيب الإضافية كثيرة في أشعار رابعة العدوية من ذلك قولها : (فسيح البلاد ، عين قلبي الصادي ، مسلك الروح ، طيب

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٢) عقلاء المجانين ، ص ١١٢ .

القلب ، مؤنس الأبرار غاية المنى) والملاحظ أن هذه الإضافات أعطت شيئاً جديداً ومميزاً للتعريف بمنزلة الحبيب عندها وهذا ما نجده عند ميمونة السوداء في قولها :

قلـوبُ العـارفيـن لهـا عيـونٌ تَـرى مـا لا يَـرَاه النَّـاظـرونـا

فهنا أرادت ميمونة أن تخص قلوب العارفين بميزات ليست لسواهم ، فهي لها عيون مبصرة كذلك في قولها : رب العالمين ، وكؤوس العارفين ، كل ذلك من إضافات مختلفة .

وكذلك لو بحثنا في تراكيب عائشة الباعونية لوجدناها أكثرت من التراكيب الإضافية ، من ذلك قولها :

عبيـر الثَّنـا فـي الخَـافِقَيْـن يَفـوحُ وبشرُ الهنا في الكائناتِ يَلوحُ
بإيجادِ من لولاهُ ما كان كائنٌ ولا علمتْ نفسٌ ولا نعمتْ روحُ
ولا حـنَّ مشتـاقٌ ولا أنَّ والـهٌ تُضـاجعـهُ نـارُ الجـوى فيصيـحُ
ولا ذكروا سلعاً[1] ولا قصدوا حِمىً بـه لِختـام المُـرْسَلين ضَـريـحُ
نبـيُ لـهُ الفتـحُ المبيـنُ وكـم أتـى علـى يـدِهِ بـالبينـاتِ فتـوحُ
وجيهٌ بعرشِ اللهِ في رقم اسمه دليل على التخصيص فيه وضوحُ[2]

ففي قولها (عبير الثنا ، بشر الهنا ، نار الجوى ، ختام المرسلين ، عرش الله) . وهذا كثير في أشعارها . ومن ذلك قولها أيضاً : (جميع الرسل ، نبي الهوى ، زمرة العشاق ، وجوب الصيد ، نار الحب ، عيون الدمع ، عليل الشوق ، بهجة الشمس ، جملة الخدم ، ثياب الوصل ، عيش المستهام ، خير النبيين ، بدر الكمال ، ضياء الشمس) .

---

(١) سلع : جبل بالمدينة المنورة ، أو موضع بقربها .
(٢) عائشة الباعونية ، ص ١٣٦ .

ب ـ تراكيب ندائية :

وهذه التراكيب مهمة في موضوع التصوف ، فما دام الصوفي يتوجه دائماً في خطابه إلى الأعلى ، لذلك كثرت هذه التراكيب الندائية ، من ذلك قول رابعة العدوية :

يَـا سُـروري ومُنْيتـي وعمـادي وأنيسـي ، وَعُـدَّتـي ومـرادي
أنتَ لولاكَ ، يا حياتي وأُنسي مـا تشتَّـتُّ فـي فسيـحِ البـلادِ
إنْ تكـن راضيـاً عَلـيَّ فـإنِّـي يا مُنى القلبِ قد بدا إسْعَادي[1]

نلاحظ هنا قولها : يا سروري ، يا حياتي ، يا منى القلب ، كلها تراكيب ندائية ، وهذا يكثر في أشعار رابعة ، ومن ذلك قولها : (يا إخوتي ، يا طبيب القلب ، يا كل المنى ، يا سروري ، يا حبيب القلب ، يا رجائي ، يا عاذلي ، يا غاية المنى) كذلك الشاعرة الصوفية ريحانة تقول :

يـا حَبيبـي ومُنيتـي واشتيـاقـي طال شَوقي متى يَكونُ لقاكَا[2]

وعند عائشة الباعونية الكثير من التراكيب الندائية من مثل : يا أكرم الشفعاء ، يا أكرم الرسل ، يا عاذلي ، يا عذولي ، يا للهوى ، يا رسول الله ، يا أشرف الورى ، فمن ذلك قولها :

ألا يا رسولَ اللهِ يا أشرفَ الورى ويـا مـنْ عليـه لا يـزال تَطفلـي
ألا يا رسول الله من كنتَ غَوثه حَظيْ ببلوغ القصد في كلِّ مدخلِ
تَمَلكنـي صـدقُ الـودادِ فلـم يـزلْ يُداخلني التبريجُ في كلِّ مِفْصَل
إلـى أن تفـانـتْ جِلـقٌ بصبـابتـي ولم أرَ لي وجهاً إلى وردْ منهل[3]

---

(١) الروض الفائق ، ص ١٣٦ .
(٢) جمهرة الأولياء ، ص ١٢٥ .
(٣) عائشة الباعونية ، ص ١١٨ .

ج ـ التراكيب الإسنادية :

الملاحظ أيضاً هذه الذاتية في الحديث عن الأشواق عند المتصوفة ، حيث كثر استعمال ياء المتكلم مضافة لاسم أو مسندة لفعل ، من ذلك قول رابعة العدوية :

رَاحتي يَا إخوتي في خِلوتي وحبيبي دَائماً في حَضرتي
لَمْ أجدْ لي عن هواه عوضاً وهواه في البَريا مِحنتي[1]

وهكذا تترد ياء المتكلم في هذه المقطوعة ست مرات هي قولها : قبلتي ، مهجتي ، نشوتي ، منيتي ، وكذلك عند ريحانة في قولها :

أنت أنسي ومُنيتي وسُروري قد أَبَى القلبُ أن يحبَ سِواكا
يَا حبيبي ومُنيتي واشْتِياقي طالَ شوقِي متى يكون لِقاكا
ليسَ سؤلي من الجنانِ نعيماً غير أني أريدها لأراكا[2]

فياء المتكلم هذه ترددت تسع مرات في المقطوعة في قولها : أنسي ، ومنيتي وسروري وحبيبي شوقي ، أنسي واشتياقي وسؤلي .

أما عائشة الباعونية ففي بديعيتها (الفتح المبين في مدح الأمين) فتقول :

أقولُ والدَّمعُ جارٍ جارحٌ مقلي والجارُ جارَ بعذلٍ منه مُتَّهمي
وفي بُكائي لحالٍ حالَ مِنْ عَدمٍ لفقتُ صبراً فما أجد المنع دَمِي
أحسنتْ ظنِّي وإنْ هُمْ حَاولوا تُلفي وثم سِرّ وَضَنِّي فيه من شيمي
مالي رجوعٌ عن الأشجان في وَلهي بَلْ عَن سلوِّي رجوعي صار من لزمي[3]

نجد هنا العديد من هذه التراكيب الإسنادية مثل : مقلي ـ بكائي ـ دمي

---

(١) الروض الفائق ، ص ١١٨ .
(٢) جمهرة الأولياء ، ص ١٢٥ .
(٣) عائشة الباعونية ، ص ٢٠٢ .

ـ ألمي ـ ظني ـ شيمي ـ سلوي ـ . . . الخ .

وهكذا نجد تعدد أنواع التراكيب ، ولكن يجمعها طابع مميز هو السهولة التي تبدو واضحة في أشعار الصوفيات ، فهي لا تحتاج إلى عناء في بيانها وليس فيها تقديم أو تأخير بغرض التعقيد فهي تراكيب منسجمة مع تلك الأشعار .

ظواهر التكرار

ظاهرة التكرار موجودة في أشعار المتصوفة ، وأكثر ما نجدها عند الشاعرة عائشة الباعونية ولاسيما الأشعار التي قالتها في المولد النبوي ففي ذكر مولد النبي ﷺ تقول :

(ولدَ الحبيبُ) فمرحباً بوفائهِ ... وبحسنِ طلعتهِ ونورِ بَهائهِ
وتَشعشعَ النُّور الذي سجدتْ لهُ ... في وجهِ آدم أهلُ أفق سمائهِ
وبَدا جَمالٌ بالجلال مُمنطقٌ ... ومُتوجٌ بكمالهِ وعلائهِ
وأتَى خِتَامُ المُرسلين وخيرُ منْ ... وطىءَ الثَّرى وملا الوجودُ بآيهِ
مُتكملاً في ذاتِهِ وصفاتِهِ ... متحققاً في جمعِهِ بولائهِ
(ولدَ الَّذي لولاه) ما ذُكر الحِمَى ... كلا ولا زاروا حِمى بولايهِ
(ولدَ الَّذي) لولاهُ ما ارتاحوا إلى ... مُخضرٍّ عَيش في رُبا صفرائهِ
(ولدَ الَّذي) لولاهُ ما بلغَ المُنى ... قلب وفازَ بكشفِ غيم غطائهِ
(ولدَ الَّذي) لولاهُ ما بانَ الهُدى ... وهُدى المُحبُّ لمحوه وفنائه
(ولدَ الَّذي) لولا جلالة قدره ... لم تحشرِ الأعيان تحت لوائه
(ولدَ الَّذي) لولا مراحم عطفه ... مَا ذاقَ قلبي الرِّيَّ بعد ظمائه(ولدَ
الَّذي) لولا ما زال العَنا ... عنه بروح هبّ من تلقائه
(ولدَ الَّذي) نَعِم الفؤاد بحبهِ ... وغدا بهِ مستشفياً من دائهِ
(ولد الَّذي) صلى عليه إلهُهُ ... وأثابَ من صلى بجودِ عطائهِ

(ولدَ الَّذي) رفع المُهيمن ذكره وأمـدَّهُ سبعيـنَ مِـنْ أسمـائـهِ[1]

فقد كررت (ولد الَّذي) عشر مرات يضاف إلى ذلك قولها استهلالاً (ولد الحبيب) ، الحبيب محمد ﷺ . وفي الصلاة على النبي المختار كررت لفظ صلَّى (وصلوا عليه وصلوا على ويصلي) خمس عشرة مرة :

صلُّوا على من عليه الله خالقه صلى وسلَّمَ في الآزال والقدم
صلُّوا على بهجةِ الكونين أحمد مَنْ سما وسُمّيَ قبلَ اللوح والقلم
صلُّوا عليه يَصلي الله تكرمةً عشراً ويشملكم بالفضل والكرمِ
صلُّوا فإن صلاةَ اللهِ رحمتُهُ ورحمَةُ اللهِ عنها سائر النعمِ
صلُّوا عليه فمن صلى عليه يفزْ بالقصدِ من مِنَنٍ والأمن من نقمِ
صلُّوا على سيدي صلوا على سَندي صلوا على شافعي في نَيل ما أرمِ
صلُّوا على السَّيد المختار من مضرٍ صلوا على المُصطفى المَبْعوث للأممِ
صَلُّوا على الحامدِ المحمودِ من أزل صلوا على خير من يمشي على قدمِ
صلَّى الإله عليه دائماً أبداً والآل والصحبُ أهل العِلم والحكمِ
ما أطربَ السَّمعَ ترجيع الحداة ضحى لدى الركائب نحو البيت والحرمِ
وما سرتْ نسمةٌ من نحو كاظمةٍ[2] وأومضَ البرقُ من أكنافِ[3] ذي سلمِ[4]

وفي مخاطبته في الصلاة عليك كررت في هذه المقطوعة (الصلاة عليك) اثنتين وعشرين مرة ، ولهذا التكرار ما يسوّغه فهي تريد التقرب إلى من ندب الصلاة عليه كرامة له وتعظيماً فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) عائشة الباعونية ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .
(٢) كاظمة: مدينة على ساحل البحر بينها وبين البصرة مرحلتان .
(٣) ذو سلم: موضع في الحجاز .
(٤) المرجع السابق .

وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[1]
كما أن هناك تكراراً لاسم الإشارة واسم الموصول في الإشارة إلى النبي الكريم (هذا النبي) . .

(هذا الحَبِيبُ) وصفوةُ الجبار ... أزلاً ولا أثـــر مِـــن الآثـــار
(هَذا الذي) قرنَ المُهيمن اسمهُ ... مـع اسمِـهِ وجَـلاه لـلإظهـار
(هَذَا الذي) نَزَل القرآن بِمدحِهِ ... وعليه أثنى في القديم البَاري
(هَذَا الذي) ظهر الهدى بِظهورهِ ... وهَـدى بسيـرتِـهِ فـؤاد السَّـارِي
(هَذا الذي) خلقَ المُهيمنُ نورَهُ ... مِـنْ نـورهِ وحَبـاه بـالأنـوارِ
(هَذَا الذي) حازَ الكمالَ وغايةً ... خضعتْ لـديهـا سـائـر الأخبـارِ
(هَـذا الـذي) أسـري بـهِ لنهـايـةٍ ... مـا بعـدهـا وطـرٌ مـن الأوطـارِ
(هَذا الذي) خَدمتْهُ أعيان السما ... وغـدوا لـهُ مـن جملـةِ الأنصـارِ
(هَذَا إمام) المرسلين وذخرُهم ... (هَـذا مـلاذُ) أعـزةٍ وكبـارِ
(هَذَا الذي) لولاه ما خلقتْ سما ... كـلاًّ ولا دُحيـت ذواتُ قـرارِ
(هَذَا فريدُ) ألقابِ (هذا أحمد) الـ ... مختـار (هـذا جـامـعُ الأسـرارِ)
(هَذا ختامُ الأنبياء) الأوليا (هذا غيا ... ثُ) الأتقيا (هذا جمالُ الدار)
(هَذَا السِّرَاجُ) لمهتد (هَذَا البَشيـ ... ـرُ) لمُقتـدٍ فـي عـزلـةٍ متـوار
(هذا الحياة) لعاشق (هذا الكفيـ ... ـل) لصادق بالجير والإبرارِ[2]

هكذا تكررت (هذا) الإشارية مشفوعة بالمشار إليه ثلاثاً وعشرين مرة ، والمعروف أن اسم الإشارة هو ما يدل على معيَّن .

* * *

(١) سورة الأحزاب ٣٣/ ٥٦ .
(٢) عائشة الباعونية ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

البنى الهيكلية والفنية

نقوم في هذا المبحث بدراسة الأوزان والقوافي في القصائد والمقطوعات الصوفية. أشار المستشرق فارمر[1] ، إلى أهمية الأثر الذي أثره التصوف في ازدهار الغناء والسماع فقد حافظت أشعار المتصوفات على جرس موسيقي ينسجم مع الألفاظ والتراكيب ، ذلك أن تلك الأشعار غالباً ما كانت تنشد في المجالس الصوفية في ابتهالاتهم الدينية .

ففي الأوزان نلاحظ أن الشواعر الصوفيات نظمن على معظم أبحر الشعر ، من ذلك : البحر المتقارب ، البسيط ، الكامل ، الرجز ، الطويل في عدد من القصائد .

أما في القوافي المستعملة في القصائد والمقطوعات فلدى الإحصاء تبين لنا أن الشواعر لم ينظمن على رَوْيٍ واحد ، فرابعة العدوية استعملت في أشعارها روي الكاف والدال واللام والتاء والباء والعين والسين . أما ريحانه فقد استعملت روي النون . وحيونة استعملت روي الدال والراء .

أما عائشة الباعونية فقد نوعت في قوافيها ففي بديعيتها (الفتح المبين في مدح الأمين) استعملت البحر البسيط ، وروي الميم مثل كل من كتبوا في البديعيات وفي مدح الرسول الأعظم . وفي ما قالته بمولد النبي

---

(١) مصادر الموسيقى العربية لفارمر ، ص ٩٠ .

الكريم عددت في قوافيها فاستخدمت روي الحاء واللام والتاء والراء ، والدال ، والميم ، وقد ظهرت عند عائشة الباعونية ظاهرة الموشح ذي الدورين التي نجدها في الأناشيد الصوفية قولها :

يَـا مَـنْ أفنـى فـي مَعنـاه كَـمْ مُعنـى فـي هَـواه
جُـدْ لِـي جُـدْ لـي ومتِّعنـي وجَلِـدْنِـي بـالعيـان
فـي اتِصـالـي
يَـا مَحبـوبـي يـا مَطلـوبـي يَـا مَقصـودي يـا مَـوجُـودي
كُـنْ لِـي كُـنْ لـي واجبر كَسْـري واغـنِ فقْـري بـالتـدانـي
والـوصـال
حُبُّـكَّ يَتـمْ فيـكَ المُغـرمْ ولِـيَ هَيَّـمْ لا بَـلْ أعـدَمْ
عقلـي عقلـي واحيـرنـي واسهـرنـي وأضنـانـي
بـالـدلال[1]

أما عائشة التيمورية فقد نظمت الشعر الصوفي على روي الميم المكسورة في بردتها ، كما نظمت على روي اللام المضمومة ، وروي اللام المكسورة ، وروي التاء المكسورة ، . . إلخ .

وظهرت أيضاً عند عائشة التيمورية الأدوار المتعددة .

من ذلك قولها :

يكفي من التعذيب ما لاقيته

أفنيـتُ صَبـري فـي هَـواك وقضيتُ عُمري في جمالِكَ مغرما
وتـركـتُ سِـري بـالتجلـد مبهمـا فـأنلتنـي تيهـاً أبـادَ وأعـدا
حتـى استبـانَ لـديـك مـا رَويتـه
جفنـي لبعـدكَ بـالصـدودِ تـأرقـا ومَذَاقُ عيشي مرّ والشُّهدا ارتقى

(١) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

والقلبُ من نار الغرام تحرُّقا قل لي بحقكِ يا غزال متى اللقا[1]

وعند البحث في موسيقى بعض الأشعار نجد أنها ذات طابع صوفي هادىء ، من ذلك قول رابعة العدوية :

أحبُّك حُبَّين : حُبَّ الهوى وحُبًّا لأنَّك أهلٌ لِذَاكا
فأما الذي هو حُبُّ الهوى فذِكرٌ شُغِلْتُ به عن سِواكا
وأمَّا الذي أنت أهلٌ له فكَشفُك لي الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا ، ولا ذَاك لي ولكنْ لكَ الحمدُ في ذا وذاكا[2]

هذه الأبيات تضفي جواً خاصاً يكاد يشبه جو العبادة ، فتلك الموسيقى الهادئة التي يفرضها كل تركيب بدعم من أنوثة الشاعرة ، وروي الكاف هذا الذي جاء منسجماً مع موسيقىٰ الأبيات .

ومن ذلك قول رابعة :

كأسي وخَمْري والنَّديم ثلاثةٌ وأنَا المَشُوقةُ في المحبةِ رابعهْ
كأسُ المَسرةِ والنَّعيمِ يُديرها ساقي المُدام على المدى مُتتابعهْ
فإذا نَظرتُ فلا أرَى إلا له وإذا حضرتُ فلا أُرى إلا معهْ
يَا عَاذلي إنِّي أحبُّ جماله تاللهِ ما أذْني لعَذلك سامعهْ
كمْ بتُّ مِنْ حَرَقي وفرطِ تعلُّقي أجري عيوناً منْ عُيوني الدامعهْ
لا عَبْرتي تَرقا ، ولا وَصْلي لَهُ يَبقى ولا عَيني القريحةُ هاجعه[3]

تبدأ الشاعرة هنا بنثر روي العين مشفوعة بالهاء الساكنة وقفاً ـ وهو الأحرف الأكثر دلالة على الألم الروحي عند المتصوفة ـ ومن هنا تأخذ القافية وظيفتها الحقّ فهي ليست شكلاً تنتهي به القصيدة ، ومن عيوب

---

(١) حلية الطراز ، ص ٧ .
(٢) الروض الفائق ، ص ١١٧ .
(٣) رابعة العدوية لخميس ، ص ٩٧ .

القوافي (أن تكون القافية مستدعاة لا تغير معنى وإنما أوردت ليستوي الروي فقط)[1] . من ذلك قول عائشة الباعونية في بديعيتها :

في حسنِ مطلعِ أقمارٍ بذي سلم أصبحتُ في زمرةِ العُشاقِ كالعلم
أقولُ والدَّمعُ جارٍ جارح مقلي والجارُ جار بعذل منه مُتهمِي
يا للهوى في هَوى روحٍ سمحتُ به ولم أجدْ روح بشرى منهُمُ بهِمِ
وفي بَكائي لحالٍ حالَ من عدم لفقتُ صبراً فما أجْدَى المنع دمِي[2]

فهذه البديعية فيها من الموسيقى ما لا يخفى على القارىء ثم هذا التلاعب في الألفاظ الرائع والمثير للإعجاب ، فإذا كانت (اللغة عنصراً من عناصر الشعر المهمة ، فلا بد للشاعر من أن يسلك فيها مسلكاً خاصاً يستطيع فيها أن يؤدي معناها بطريقة تختلف عنها فيما عداها من فنون القول)[3] . وهذا ما حرصت عليه عائشة الباعونية ، ثم استعمالها لروي الميم المكسورة الذي يدل على ألم الفراق للرسول الكريم .

كذلك عائشة التيورية فقد نظمت بردتها في مدح النبي على البحر البسيط وروي الميم سالكة طريق من سبقها في مدح النبي من ذلك قولها :

أمنْ وميضٍ سَرى في حُنْدس الظُّلم أمْ نَسمة هَاجتْ الأشواق منْ إضمِ

وأخيراً فاللموسيقى الشعرية في الشعر الصوفي أهمية خاصة فقد حرصت الشواعر على إيصال أشعارهن بنغم هادىء ينسجم مع طبيعة تلك الأشعار ، وقد تمتعت عائشة الباعونية بنَفَسٍ مديد في بديعيتها التي تتألف من مائة وثلاثين بيتاً حشدت فيها مائة وثلاثين نوعاً من المحسنات البديعية التي كانت منسجمة مع موسيقاها .

* * *

(١) العسكري ، ص ٤٧١ .
(٢) عائشة الباعونية ، ص ٢٠٠ .
(٣) السامرائي ، د . إبراهيم ، لغة الشعر بين جيلين ، ص ٨ .

نتائــج الــدراســة

* إن للنساء الصوفيات باعاً في مجال الشعر ، ولكن أغلب ما وصل إلينا هو مقطعات أكثر من كونها قصائد ما عدا الشاعرتين عائشة الباعونية ، وعائشة التيمورية .

* انعكاس الشخصية الأنثوية على الأشعار مما طبعها بطابع خاص ، معتمد على السهولة ، والرقة والصدق ، والموسيقى الهادئة مما يتمشى مع الموضوع الديني .

* تأثرت الشواعر الصوفيات تأثراً بالغاً بالقرآن الكريم ، وذلك بسبب انعكاس الثقافة الإسلامية ، فلا بدَّ للبيئة والثقافة من أن تضفي أثرها على الشعر .

* تعددت الأغراض الشعرية وتنوعت ، ولكن كلاًّ منهما كان يصب في قالب الحبّ الإلهي العفوي الصادق ، فالغزل الصوفي والخمريات الصوفية والنبويات كلها أغراض للوصول إلى هدف أسمى وهو رضا الله عز وجل .

* هناك قاسم مشترك بين الشواعر الصوفيات سواء في العصر الإسلامي الأول ، أو العصور المتأخرة . وهو التزام مبدأ معين ، والدفاع عنه بقوة وجرأة حتى كأنهنَّ داعيات إلى الله وإلى محبة رسوله الكريم .

* وأخيراً لا بدَّ من الاعتراف بفضل الريادة لشاعرتين كبيرتين في

الشعر الصوفي هما رابعة العدوية التي كانت رائدة الحب الإلهي ، وعائشة الباعونية التي كانت رائدة المدائح النبوية من بين الشواعر ، ورائدة فن المولد النبوي .

ملحق الدراسة
الديـوان الصوفـي

رابعـة العدويـة .

رابعـة الشاميـة .

حيَّـونـة .

ريحانـة .

ميمونـة السوداء .

أم السعد القرطبيـة .

عائشة الباعونيـة .

عائشة التيموريـة .

رابعة العدوية
أم الخير

رابعــة العدويـــة

هي رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة لآل عتيك[1] ، وآل عتيك بطن من بطون قيس .

مولدها :

قال المؤرخون ولدت في البصرة عام / ٩٥/ هجرية أو في عام / ٩٩/ في كوخ من أكواخ الفقراء ، كان والدها صالحاً فعلى فقره ظل صابراً شاكراً لخالقه حباً لله ولرسوله .

عاشت رابعة حتى بلغت الثمانين من عمرها ، وماتت وقد خلّفت لنا أثراً تربوياً عظيماً للروح الإنسانية . نشأت رابعة في البصرة في القرن الثاني الهجري حيث كان عصر ألقها الحضاري ، (فحفظت القرآن الكريم ، وهي ما تزال صبية في الخامسة عشرة من عمرها ، واظبت على الصلاة آناء الليل وأطراف النهار ، وكانت تكثر من الصلاة النافلة غير الفريضة)[2] .

أما كنيـة رابعـة العدويـة فهـي (أمُّ الخيـر)[3] ، وتكنّى أيضاً

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ص ٢٢٧ .

(٢) كيلو ، عبد الرزاق ، المهاجرة إلى الله رابعة العدوية ، ص ١٤ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢/ص ٢٨٥ .

بأمّ عمرو[1] ، وقد سميت رابعة لأنها ولدت بعد ثلاث بنات لأبيها فهي رابعتهن .

بشَّر النبي والد رابعة :

كان من عادة إسماعيل العدوي أن يقرأ بعد صلاة العشاء خمسة أجزاء من القرآن الكريم ، ثم ينام قليلاً من الليل ، ويصحو في وقت السحر ليتهجد حتى مطلع الفجر . . . وفي تلك الليلة ما كادت تأخذه سِنَةٌ من النوم ، حتى رأى في منامه النبي ﷺ مسفر الوجه كأنه البدر في ليلة صافية الأديم . قال له النبي ﷺ كلمات كشف لها فيها عن منزلة هذه الطفلة عند الله ، فقال له النبي ﷺ : (إنَّ وليدتك سيدة جليلة القدرِ ، وإن سبعين ألفاً من أمتي ليرجون شفاعتها !)[2] .

ثم أمره أن يذهب في الصباح إلى عيسى باذان (أمير البصرة) ، ويخبره فيها بهذه الرؤيا ، ويقول له : إنك تصلي مائة ركعة كل ليلة ، وفي ليلة الجمعة أربعمائة ، ولكنك في الجمعة الأخيرة نسيت ، ألا فلتدفع إلى صاحب هذه الرقعة أربعمائة دينار كفارة عن هذا النسيان .

رابعة وزهاد عصرها :

كان الزهاد في عصر رابعة يدركون أنها تفوقهم زهداً وخشية لله ، من ذلك ما ورد أن سفيان الثوري قال عندها ذات ليلة : (واحزناه ، فقالت له رابعة : لا تكذب ، بل قل : واقلة حزناه ! لو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس)[3] .

وذات يوم قالت رابعة ، لسفيان وهي تعظه وتذكره بالآخرة :

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٨/ص ٢٤١ .
(٢) التفتازاني ، مدخل إلى التصوفي الإسلامي ، ٢٠٠ .
(٣) وفيات الأعيان ، ج ٢/ص ٢٨٦ .

(يا سفيان إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يوم ، ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل)[1]
(وسمعت رابعة سفيان يقول : اللهم إني أسألك رضاك . فقالت : تسأل رضا من لست عنه براض)[2] ! .

وقد أورد ابن خلكان أن (سفيان الثوري قد لقي رابعة ـ وكانت حالها مزرية ـ فقال لها : أرى لك حالاً رثة ، فلو أتيت جارك فلاناً لغير بعض ما أرى ، وكانت حالك أحسن ! . فقالت رابعة لسفيان : يا سفيان ، وما ترى من سوء حالي ؟ ! ألست على الإسلام ، فهو العز الذي لا ذل معه ، والغنى الذي لا فقر معه ، والأنس الذي لا وحشة معه ؟ ! .

قال سفيان : بلى يا رابعة . . . فقالت رابعة : يا سفيان ، والله إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ فقال سفيان الثوري متعجباً وهو يقول : والله ما سمعت مثل هذا الكلام)[3] .

وذكر صاحب المصارع حواراً بين رابعة ، ورياح القيسي ، فقال : (نظرت رابعة إلى رياح القيسي ، وهو يقبل صبياً من أهله ويضمه إليه ، فقالت أتحبه يا رياح ؟ فنظر إليها رياح متعجباً وقال : نعم والله ، إني أحبه ! . فقالت رابعة لرياح : والله يا رياح ، ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غير الله تعالى ؟ ! فصاح رياح صيحةً عظيمةً ، وسقط مغشياً عليه ، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، وهو يقول : رحمة منه تعالى ، ذكرى ألقاها في قلوب العباد للأطفال)[4] .

وأورد ابن الجوزي أخباراً لطيفة لرياح القيسيّ مع رابعة العدوية منها

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢/ص ٢٨٦ .
(٢) شذرات الذهب ج ٢/ص ١٥٧ .
(٣) وفيات الأعيان ، ج ٢/ص ٢٨٦ .
(٤) مصارع العشاق ، ج ١/ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

(أنه دخل مع جماعة من الزهاد على رابعة ، فتذاكروا الدنيا ، فأقبلوا يذمّونها ، فقالت رابعة : إني لأرى الدنيا بجهاتها الأربع ، وكلّ ما فيها في قلوبكم . قالوا : ومن أين توهَّمت علينا ؟ ! .

قالت : إنّكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلَّمتم عنه[1] .

مناجاتها ووصاياها :

(وكانت رابعة إذا صلَّت العشاء ، قامت على سطح لها ، وشدَّت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهي أنارت النجوم ، ونامتِ العيون ، وغلَّقتِ الملوكُ أبوابها ، وخلا كلَّ حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك . ثم تقبل على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر ، وطلع الفجر قالت : إنَّ هذا الليل أدبر وهذا النهار قد أسفر ، فوعزَّتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني ، وعزتك لو طردتني من بابك ما برحت عنه ، لما وقع في قلبي من محبتك)[2] . وكانت رابعة (إذا دخلت في صلاتها اتصلت بربها ونسيت الوجود من حولها ولم تعد تحفل بمخلوق)[3] .

ومن وصاياها :

(اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم) ، وقالت لأبيها : (يا أبتِ لست أجعلك في حلٍّ من حرام تطعمنيه ، فقال لها : أرأيتِ إنْ لم أجد إلاَّ حراماً ؟ ! قالت : نصبر في الدنيا على الجوع خير من أنْ نصبر في الآخرة على النار)[4] .

مكانتها :

كانت رابعة العدوية رائدة من رواد العشق الإلهي ، فهي التي سنَّت

---

(١) صفة الصفوة ، ج ٤/ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) الروض الفائق في المواعظ والرقائق ص ١١٨ .

(٣) نساء من التاريخ ، ص ٢٦٥ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١/ص ٢٢٧ .

سنة العشق الإلهي خالصاً لربها ، لا خوفاً من نار ولا طمعاً في جنة ، ولأهميتها كثر ما كُتِب عنها ، من ذلك :

١ ـ شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية . . . تأليف عبد الرحمن بدوي .

٢ ـ المهاجرة إلى الله رابعة العدوية . . . تأليف عبد الرزاق كيلو .

٣ ـ العاشقة المتصوّفة رابعة العدوية . . . تأليف وداد السكاكيني .

٤ ـ رابعة العدوية . . . تأليف سميح عاطف الزين .

٥ ـ عذراء البصرة البتول ، رابعة العدوية . . . تأليف عبد المنعم قنديل .

٦ ـ رابعة العدوية . . . تأليف محمد عطية خميس .

٧ ـ رابعة العدوية بين الغناء والبكاء . . . تأليف سعاد عبد الرزاق .

٨ ـ امرأة فاقت الرجال عبد الماجد الشاوي

* * *

أشعار رابعة العدوية :

من أروع ما قالته رابعة وهي تناجي ربها هذه الأبيات :

أحبُّك حُبَّيـن : حـب الهـوى ... وحُبّـاً لأنَّـك أهـلٌ لِـذاكـا
فـأمـا الَّـذي هـو حُـبُّ الهـوى ... فـذكـرٌ شُغِلْـتُ بـه عـنْ سِـواكـا
وأمـا الـذي أنـتَ أهـلٌ لـه ... فكشفك لي الحُجبَ[1] حتى أرَاكا
فلا الحمدُ في ذا ، ولا ذَاكَ لي ... ولكنْ لكَ الحمدُ في ذَا وذَاكا[2]

وكانت تقول :

يـا سُـروري ومُنْيَتـي وعمـادي ... وأنيسـي ، وعُـدَّتـي ومـرادِي
أنتَ روحُ الفؤادِ ، أنتَ رجائي ... أنتَ لي مُؤنسٌ ، وشوقُك زادِي
أنت لولاكَ ، يا حياتي وأُنْسي ! ... مـا تشتَّـتُّ فـي فسيـح البـلادِ
كَمْ بَدَتْ مِنَّةٌ ، وكم لكَ عِندي ... مِـنْ عطـاءٍ ونعـمٍ وأيـادِي
حُبُّـك الآن بُغْيتـي ونعيمـي ... وجَـلاءٌ لعيـن قلبـي الصَّـادِي
ليس لي عَنْكَ ـ ما حييتُ ـ براحٌ ... أنـتَ منِّـي مُمَكَّـنٌ فـي السـوادِ
إنْ تكـنْ راضيـاً علـيّ فـإنـي ... يا مُنى القَلْبِ ! قد بدا إسعادِي[3]

ومن مناجاتها أيضاً قولها :

وتخللـتَ مَسْلـكَ الـروحِ منـي ... وبـه سُمِّـيَ الخليـلُ خليـلا
فـإذا مـا نطقـتُ كنـتَ حَـديثـي ... وإذا مـا سَكـتُّ كنـتَ الخليـلا[4]

وتقول في الخلوة :

راحَتي ، يا إخْوَتِي ، في خُلْوتي ... وحبيبـي دائمـاً فـي حَضْـرتِـي

---

(١) الحجب: عند أهل الحق انطباع الصور الكونية في القلب المانعة لقبول تجلّي الحق .

(٢) الروض الفائق في السواعظ والرقائق ، ص ١١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٤) الزبيدي ، إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي ، ٩/ ٥٧٧ .

لـم أجـدْ لـي عـن هـواه عِـوَضـاً ... وهَـــواهُ فـــي البَـــرايـــا محْنَتِـــي
حيثمـا كنْـتُ أشـاهـدْ حُسْنَـه ... فهـو محـرابـي ، إليـه قِبْلِتـي
إن أمُـتْ وجـداً ومـا ثـمَّ رضـاً ... واعَنَائي في الورى ! واشقوتي !
يا طبيبَ القلبِ يا كلَّ المنى ! ... جُدْ بوصلٍ منك يشفي مُهْجتِي
يـا سـروري وحيـاتـي دائمـاً ... نَشْأتـي مِنْـك ، وأيضـاً نَشـوتِي
قد هجَرْتُ الخلقَ جمعاً أرتجي ... منك وصلاً ، فهو أقصى مُنيتي[1]

ولها أبيات تقول فيها :

وراحمتـا للعـاشقيـنَ ! قلـوبُهُـم ... فـي تيـهِ ميـدانِ المحبـةِ هـائمـهْ
قامتْ قيامةُ عشقهم فنفوسُهُمْ ... أبـداً علـى قـدَمِ التـذلُّـلِ قـائمـهْ
إمَّـا إلـى جَنـات وَصْـلٍ دائـمٍ ... أو نـار صـدٍّ للقلـوب مُـلازمـهْ[2]

وأكَّدت حبها الخالص لله في قولها :

كُلّهـم يَعبـدون مِـنْ خَـوفِ نـارٍ ... ويَـرونَ النَّجـاةَ حظّـاً جـزيـلا
أو بـأنْ يَسكنـوا الجِنَـان فيحَظـوا ... بقصـورٍ ويَشـربـوا سَلسبيـلا
ليسَ لـي بـالجنـان والنَّـار حـظٌّ ... أنَـا لا أبتغـي سِـوَاك سَبيـلا[3]

ومن قولها أيضاً :

يـا حبيـبَ القلـبِ مـالـي سِـواكـا ... فارحمْ ، اليوم ، مذنباً قد أتَاكَا
يَـارجـائـي وَارحتـي وسـروري ... قد أبى القلبُ أن يحبَ سَواكَا[4]

ولها أيضاً :

كأسـيْ وخَمْـري والنَّـديمُ ثلاثـةٌ ... وأنا المَشُوقَـةُ في المحبـةِ رابعـهْ

---

(١) الروض الفائق ص ١١٨ .
(٢) بدوي ، عبد الرحمن ، شهيدة العشق الإلهي ، ص ١٧٧ ، نقلاً عن (شرح الأولياء) للمقدسي .
(٣) قنديل ، عبد المنعم ، رابعة العدوية ، عذراء البصرة البتول ، ص ١٩٤ .
(٤) الروض الفائق ص ١١٧ .

كأسُ المسرةِ والنَّعيمِ يُديرها ... ساقي المُدام على المَدى متتابعهْ
فَإذا نَظرتُ فلا أَرى إلا لـه ... وإذا حَضرتُ فلا أُرىٰ إلا معهْ
يَا عَاذلي ! إنِّي أُحبُ جَماله ... تاللهِ ما أُذنِي لِعذلِك سَامعهْ
كَمْ بتُّ من حرقِي وفرط تعلُّقي ... أجري عيوناً من عيوني الدَّامعهْ
لا عَبْرتي تَرقا، ولا وَصْلي له ... يبقى، ولا عيني القريحة هاجعهْ[1]

ومن قولها :

يا مُؤنِسَ الأَبْرَارِ في خَلَواتِهم[2] ... يَا خيرَ من حَلَّتْ به النُّزالْ
مَنْ ذاقَ حبَّك لا يَزَالُ متيماً ... فرحَ الفُؤاد ـ متيماً ـ بلْبالْ[3]
مَنْ ذاق حبَّك لا يُرى متبسّماً ... مِنْ طول حزْنٍ، في الحشَا إشْعالْ[4]

وممَّا نُسِب إلى رابعة في حال الخوف :

وَزَادي قليلٌ ما أراهُ مُبَلِّغي ... أللْزادِ أبكي، أم لطُولِ مَسافتي ؟!!
أتحرقُني بالنَّارِ يا غايةَ المُنى ؟ ! ... فأينَ رَجائي فيكَ؟ أين مخافتي ؟ ![5]

ومما نُسِبَ إليها :

حبيبٌ ليسَ يعْدِلُهْ حبيب ... ولا لِسوَاه في قلبي نَصيبُ
حبيبٌ غابَ عن بَصري وشَخصي ... ولكنْ عن فُؤادي لا يغيبُ[6]

وممَا نُسبَ إليها[7] :

---

(١) شهيد العشق الإلهي ص ١٧٧ .
(٢) خلواتهم: خلا به اجتمع معه في خلوة .
(٣) بلبال: الهمّ ووسواس الصدر .
(٤) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ .
(٥) الزين ، سميح عاطف ، رابعة العدوية ، ص ١٣١ .
(٦) جمعة ، أحمد خليل ، نساء من التاريخ ، ص ٢٧٩ .
(٧) ملاحظة هذه الأبيات المنسوبة ، نسبت كلها في (صفة الصفوة لابن الجوزي) لرابعة الشامية ، ص ٢٠٢ .

إنِّي جَعَلْتُكَ في الفؤادِ مُحدِّثي وأَبَحْتُ جِسْمي مَنْ أرادَ جُلُوسي
فـالجسْـمُ منِّي للجَليْـس مُـؤانـسٌ وحبيبُ قلبي في الفُؤادِ أنيسي[1]

* * *

(١) الزبيدي ، ذكر سابقاً ، ص ٥٧٧ .

رابعة الشامية

رابعة الشامية

هي رابعة بنت إسماعيل (وهي زوجه أحمد بن محمد بن أبي محمد الحواري خادم لأبي سليمان)[1] . وهي أصغر من رابعة العدوية ، وقد تدخل حكايات هذه في حكايات هذه[2] .

وهذه رابعة شامية ، ورابعة العدوية بصرية (وكانت تقوم من أول الليل إلى آخره ، وتصوم الشهر كله ، وكانت رضي الله عنها تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون ، وربما رأيت الحور العين يستترون مني بأكمامهن ، ومن كراماتها أنها قالت : (نَحّوا عني هذا الطشت فإنما عليه مكتوب مات هارون الرشيد)[3] فنظروا فإذا هو قد مات ذلك اليوم (مات سنة ١٣٥ هـ) ودفنت برأس زيتا ببيت المقدس .

قال أحمد بن أبي الحوري : قلتُ لزوجتي رابعة وقد كانت تصلّي

---

(١) أبو سليمان الداراني ، الصوفي الشامي المشهور (المتوفى سنة ٢٠٥ هـ) وترجم لرابعة الشامية روض الرياحين في حكايات الصالحين لابن محمد عبد الله بن أسعد اليافعي ص ١٠١ ـ ١٠٢ وعقلاء المجانين لنيسابوري ، وسير أعلام النبلاء شمس الدين الذهبي ٢٠٩ ومرآة الزمان لأبي المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ والدر المنثور في طبقات ربات الخدور زينب فواز العاملي، صفة الصفوة لابن الجوزي ، ٤/ ٢٠٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ص ٢٠٩ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي ٤/ ٢٠٢ .

بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبَّدنا معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت سبحان الله ! مثلك من يتكلم بهذا إنما أقوم إذا نوديتُ قال : (أي ابن أبي الحواري) : وجلستُ آكل فجعلتْ تذكرني فقلت : دعينا يهنأ طعامنا بطعامنا ، فقالت : ليس أنا وأنت ممَّن يتنغص عليه الطعام عند ذكره الآخرة . قال أحمد : قالت لي : أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله عز وجل أطلعه الجبار على مساوىء عمله فتشاغل به دون خلقه ؟ وقال : قالت لي : إني لأضنُّ باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسي ، وإني لأرى ذراعي قد سمن فأحزن . ومعنى أضن أبخل أن أكلها ، نظراً منها إلى قوله تعالى :

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

وأما خوف السمن من ذراعها فلأجل أكل الدود له وخوفاً من وقوف يوم الحساب لأجل كثرة الأكل .

قال : وكانت تقول : (لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان ، وإنما رغبت فيك رغبة خدمتك ، وربما أحب وأتمنى أن يأكل مالي مثلك ومثل إخوتك) .

وكانت إذا طبخت قدراً قالت : كُلْهُ يا سيدي فما نضجت إلا بالتسبيح ، وقالت : (لست أستحملُ أن أمنعك نفسي وغيري ، اذهب فتزوج وكان معها سبعة آلاف درهم أنفقتها عليّ)[1] .

وحكى أبو نعيم عن سري السقطي قال : قدمت إلى الشام ، فدخلت على أحمد بن أبي الحواري المسجد ، فسلَّمت عليه ، وقلتُ عظني وأوجز . فقال : ما أُحسِنُ ، ولكن سِرْ إلى المنزلِ الذي فيه من يُحْسِنُ . قال : فخرجتُ أطلبُ منزلَهُ ، وإذا براهبٍ كبير خلفه صغير ، فقلت

---

(١) سير السالكات المؤمنات الخيرات لأبي بكر الحصني ، ص ٢٦ .

للصغير : لِمَ تتبع هذا ؟ فقال : لأنه طبيب يسقيني الدواء . قال : فورد على قلبي من كلامه شيء لا أعقله ، فجئت إلى أحمد فطرقت الباب فكلمتني امرأة من وراء حجاب فذكرت لها قول الراهب . قال فقالت : (يا ليت شعري أي دواء يسقيه ؟ دواء الإفاقة أم دواء الراحة ؟ ! فقلت بيِّني ما تقولين ! فقالت : أما دواء الإفاقة فالكف عن محارم الله تعالى ، وأما دواء الراحة فالرضا عن الله تعالى) قال سري : فوالله ما خرج كلامها من قلبي أبداً .

وكانت تقول لي : ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادي يوم القيامة ، ولا رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر .

ودعوتها يوماً فلم تجبني ، فلما كانت بعد ساعة أجابتني ، وقالت : إنما منعني أن أجيبك أن قلبي كان امتلأ فرحاً بالله عز وجل ، فلم أقدر أجيبك .

قال أحمد بن الحواري : كان لرابعة زوجتي أحوال شتى فمرة يغلب عليها الحبُّ ومرة يغلب عليها الأنس ، فسمعتها في حال الحب تقول :

حبيبٌ ليسَ يَعْدِلُه حبيبُ ... وما لِسِواه في قَلبي نَصيبُ
حبيبٌ غَابَ عن بَصَري وشَخصِي ... ولكنْ في فُؤادي مَا يَغيبُ[1]

وسمعتها في حال الأنس تقول :

ولقد جعلتُك في الفؤادِ مُحدِّثي ... وأبحتُ جسْمي من أرادَ جُلوسِي
فالجسمُ مني للجليسِ مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنِيسي[2]

وسمعتها في حال الخوف تقول :

---

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة . ٤/ ٢٠٢ .
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ٢٠٢ .

وزادي قليـــلٌ مَـــا أَراه مبلِّغـــي أللِزَّادِ أبكِي أمْ لطولِ مَسَافتِي
أتحرقُني بالنارِ يَا غَايةَ المُنى ؟ فأينَ رَجائِي فيكَ؟! أين مَخافتِي؟[1]

* * *

(١) المرجع السابق ، ٤/٢٠٢ .

(حيَّونة)

حيَّونـــة

حيونة شاعرة صوفية عاصرت رابعة العدوية وريحانة[1] وكانت تقوم الليل زُهداً وتعبداً . قال راشد بن علقمة الأهوازي : (كانت حيّونة إذا جنّها الليل تقول في دعائها : (يا واحدي ! أتمنعني بالليل التلاوة ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار ؟ إلهي لوددَّت أنَّ النهار ليل حتى أتمتع بقربك !)، قال سلام الأسود: طلعت عليها الشمس يوماً فآذتها فقالت :

إنْ كنـتَ تَعلـم أننـي بـكَ والـهٌ فاصرفْ سمومَ الشمس عَنِّي سَيِّدي ![2]

قال : فغمَّت السماء في الوقت نفسه .

قال سلام : هامت حيّونة حتى اسودَّت ، فعوتبت في ذلك ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : قد لامني خلقُك في خدمتك فَوعزتَّك وجلالك ! لأَخدُمنَّك حتى لا يبقى لي عصبٌ ولا قصبٌ . ثم أنشأت تقول :

يَـا ذا الَّـذي وعـدَ الـرضـا لحبيبـهِ أنتَ الَّـذي مَـا إنْ سِـواكَ أُريـدُ[3]

قال سلام الأسود : (نظرت إليها في يوم شديد الحرّ فقالت : اسكتْ ! عند المبْلَغ يفرح الواردون عند العرض تنقطع الأسباب ، وعند قوله خذوه تنشر أعلام العارفين . زارت رابعة حيّونة لما كان جوف الليل

---

(١) لا نعرف شيئاً عن اسمها بالكامل ومولدها ، فيما رجعنا إليه .

(٢) النيسابوري ، أبو القاسم ، عقلاء المجانين ، ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨ .

حمل النوم على رابعة : فقامت إليها حيّونة فركلتها وهي تقول : قومي ! قد جاء عُرْسُ المهتدين ، يا منْ زيّن عرائس الليلة بنور التهجّد ! .

قال سلام : وقفت حيّونة يوماً على عبد الواحد ثم نادت . . يا متكلم! تكلم عن نفسك والله لو متَّ ما تبعتُ جنازتك .

قال : ولِمَ ؟

قالت : تتكلم على الخليفة وتتقرب لهم ! ما شبهتك إلاَّ بمعلم صبي علّمه أن يحفظ بالقسي ، فإذا بكر من بيت أمه نسي ، فيحتاج المعلم إلى ضربه اذهب يا عبد الواحد اضرب نفسك بدرّة الأدب وتزوَّد زاد القناعة ، واجعل حظك ممَّا أنت فيه الكلام على نفسك ثم تكلم على الخليفة .

قال سلام : فلقد عرق عبد الواحد وأقام ما يتكلم على الناس سنة . وأنشدت :

وليسَ للمَيتِ في قبرِهِ فطرٌ ولا أضحَى ولا عشرُ
بات من الأهل عَلَى قربهِ كذلك مَنْ مسكنُهُ القبرُ

قال سلام : (سمعتُ حيّونة تقول : منْ أحبّ الله أَنِس ومن أنس طرب ، ومنْ طرب اشتاق ، ومَن اشتاق وله ، ومَنْ وِلِهَ حزم ، ومنْ حزم وصل ، ومنْ وصل اتصل ، ومنْ اتصل عرف ، ومنْ عرف قرب ، ومنْ قرب لم يرقد ، وتسوت عليه بوارق الأحزان .

وكانت تقول: اللهم هبّ لي سكون قلب بعقد الثقة بك، واجعل جميع خواطري واثقة برضاك، ولا تجعل حظي الحرمان منك ، يا أمل الآملين !

قال إبراهيم : زارت ريحانة حيّونة ، فلمَّا جنّ الليل جاء المطر والريح الشديد ففزعت ريحانة ، فضحكت حيّونة وقالت لها : يا مدبرة العمل ! لو علمتُ أنَّ في قلبي محبة غيره أو خوف سواه لوجأته بالسكين)[1] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٥ .

ريحانة

ريحانـــة

شاعرة صوفية عاصرت رابعة العدوية ، وأكثرت من قيام الليالي تعبداً وخشية من الله ، وكانت تتحدث في شعرها عن إيثارها الحياة الأخرى على الحياة الدنيا ، فحرمت نفسها من الملذات حتى تأدبتِ هذه النفس ، فلم تعد تطلب أمراً دنيوياً . . . ودعت ريحانه المتعبدين إلى قيام الليل ، ودراسة القرآن ، والتأمل في آلاء الله عز وجل ، كما دعت إلى نكران الذات ، وطرح الآمال الدنيوية[١] .

فهي العابدة المشهورة بالخوارق ، ومن كلامها ما رواه أوس الأعور قال : (رأيت ريحانة المجنونة ليلة تدعو وتقول في دعائها : ربِّ أعوذ بك من بدن لا ينتصبُ بين يديك ، وعميتْ عينان لا تبكيان شوقاً إليك ، وجفَّت شفتان لا تبتهلان بالتضرع إليك ، ومن شعرها :

أنـتَ أُنسِـي ومُنيتـي وسُـروري ... قدْ أبى القَلبُ أن يحبَّ سِواكا
يَـا حَبيبـي ومُنيتـي واشْتِيـاقـي ... طـالَ شـوقـي مَتـى يَكـون لِقـاكـا
ليـس سُؤلـي مـن الجِنـانِ نَعيمـاً ... غَيـر أنِّـي أريـدهـا لأَراكَـا[٢]

---

(١) التنير ، الشاعرات من النساء ، ص ٢١٨ .

(٢) الحسيني ، محمود ، جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف ، ص ١٢٥ .

ويذكر صاحب (عقلاء المجانين) نقلاً عن إبراهيم بن الأدهم أنه قال : ذُكرتْ لي ريحانة ، فخرجت إلى الأبلة فإذا أنا بجارية سوداء قد أثر البكاء في خديها خطاً ، فذاكرتُها شيئاً من أمر الآخرة فأنشأت تقول :

مَنْ كان راكبَ يومٍ ليسَ يأمنُهُ ... وليلَه تائهاً في عُقْبِ دُنياهُ
فيكفَ يَلتذُ عيشاً لا يطيبُ له ! ... وكيفَ تعرفُ عَيْنَ الغَمْض عيناهُ ![1]

وأنشدت تقول :

صَبرتُ عن اللذاتِ حتى تولَّتِ ... وألزمتُ نَفْسِي صَبْرَها فاستمرَّتِ
وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفَتى ... فإنْ أطعِمتْ تَاقتْ، وإلاَّ تسَلَّتِ[2]

ولها أيضاً :

وما عاشقُ الدُّنيا بناجٍ من الردى ... ولا خارجٍ منها بغيرِ غليلِ
فكم ملك قد صفر الموت بيته ... وأخرج من ظلٍ عليه ظليلِ[3]

ولها أيضاً :

حَسْبَ المُحبَّ من الحبيب بعلمه ... أنَّ المُحبَّ ببابِهِ مطروحُ
والقلبُ فيه إنْ تَنفَّس في الدُّجى ... بسهامِ لَوعاتِ الهوى مجروحُ[4]

وأنشدت أيضاً :

بوجهك لا تعذبني فإني ... أومّل أن أفوز بخيرِ دار
منجدَّةٍ مزخرفةِ العلالي ... بها المَأوى ، ونعم هي القرارُ !
وأنتَ تجاورُ الأبرارَ فيها ... ولولا أنتَ ما طابَ المزارُ

وأنشدت أيضاً :

---

(١) النيسابوري ، عقلاء المجانين ، ص ١٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

اجعلْ لفنسك في الليالي نبهةً ... تُنْبِهْك من خللِ لمقام قياما
وَأْنَسْ إلى طول القيامِ مخلداً ... واترك لذيذَ النومِ والأَحلاما

وأيضاً :

تَعوَّدْ سهر الليلِ ... فإن النومَ خُسرانُ
ولا تركنْ إلى الذَّنبِ ... فإنَّ الذَّنب خُسرانُ
فكنْ للوحِي دَرَّاساً : ... وللقرآنِ أخدانُ
إذا ما الليل فاجأهم ... فهُمْ في الليلِ رُهبانُ
يَميلُون كما مالتْ ... من الأرياحِ أغصانُ

وأيضاً :

أرىٰ الدنيا لِمن هي في يديه ... عَذَاباً كلما كَبرتْ لديهِ
تَهين المكرماتِ بها بصغرٍ ... وتكرمُ كلما هَانتْ عليهِ
إذا اسْتغنيت عَن شيءٍ فَدعه ... وخُذْ ما كنتَ محتاجاً إليه[1]

وأخيراً فإن ريحانه مشت على طريق رابعة في الحب الإلهي[2] ، وفي شعرها حديث ذو شجون عما تعانيه من ذلك العشق ، فهي واقفة على بابه تعالى ، تبكي بحرقة العاشق لعلَّها تحظى بجنات النعيم ، وهي بذلك أقل مستوى من رابعة العدوية التي أحبت خالقها لمجرد الحب ، ولكن مع ذلك فإن ريحانة ممن أفناه العشق وأنحله الشوق .

* * *

(١) النيسابوري ، أبو الحسن ، عقلاء المجانين ، ص ١٢٥ .
(٢) الطغمي ، محي الدين ، الطبقات الكبرى المجلد الثالث ، ص ١٥٨ .

ميمونة السوداء

ميمونة السـوداء

شاعرة صوفية[1] من الشاعرات المعاصرات لرابعة ، وقد تحدثت في شعرها عن (المعرفة الصوفية لله تعالى . . واعتمدت ميمونة كما هو شأن المتصوّفة على الرمز والإشارة للتعبير ، مما دفع بعض معاصريها إلى اعتبارها مجنونة لا تعمل كما يعمل غيرها ، ولا تحكي كما يحكون)[2] ، ويحدثنا صاحب عقلاء المجانين نقلاً عن إبراهيم بن الأدهم أنه قال : رأيتُ في المنام كأن قائلاً يقول : (إن ميمونة السوداء زوجتك في الجنة) قال : فكنتُ أطلبها حتى وجدتُ أثَرها بحمص ، فطلبتها فقيل : (إنها مجنونةٌ لا تألف أحداً) قلت فأين هي ؟ قيل : (دفعنا إليها أغناماً ترعاها بالجبانة) فخرجت إلى الجبانة فإذا هي قائمة تصلي ، والشاة والذئب في مكان واحد ، فوقفت متعجباً فلَّما قضت الصلاة قالت : (يا إبراهيم ، الموعد في الجنة لا هنا) فتعجَّبتُ من فطنتها فقلت : يا سبحان الله ! ألست مؤتمنة على هذه الأغنام ؟ قالت بلى ، قلت : لا ، فلم عطلتها حتى توسطتها الذئاب ؟ قالت : سلمتها إلى مُنشئها ، ثم قالت : (ارتفعت الحشمة بيني وبين منْ أنا قائمة بين

---

(١) لم نجد في المصادر تاريخ مولدها أو وفاتها .

(٢) التنير ، الشاعرات من النساء ، ص ٢٢١ .

يديه فهو الذي رفع الوحشة بين الشاة والذئاب)[1] ثم ولّت وانشأت تقول :

قلـوبُ العـارفيـن لهـا عيـونُ ... تَـرى مـا لا يَـراه النَّـاظـرونـا
وألسنـة بسـرِّ قـد تنـاجـي ... يغيـبُ عـن الكـرامِ الكَـاتبينـا
وأجنحـةٌ تطيـرُ بغيـر ريـشٍ ... إلـى ملكـوتِ ربِّ العـالمينـا
فتُسقِيهـا شـرابَ الصِّـدقِ صـرفـاً ... وتشـربُ مـن كـؤوس العَـارفينـا

وعن عبد الواحد بن زيد[2] قال : سألت الله عزَّو جل ، ثلاث ليال أنْ يريني رفيقي في الجنة فقيل لي : يا عبد الواحد رفيقك في الجنة ميمونة السوداء ، فقلت : وأين هي ؟ فقيل لي : في بني فلان بالكوفة ، فخرجتُ إلى الكوفة وسألت عنها ، فإذا هي مجنونة ترعى غنيمات فقلت : أريد أن أراها ، فقالوا لي : اخرج إلى الجبانة فخرجتُ ، فإذا هي قائمة تصلي ، وإذا بين يديها عكاز ، وعليها صوف مكتوبٌ عليها (لا تباع ولا تشترى) وإذا الغنم مع الذئاب ، فلا الذئاب تأكل الغنم ، ولا الغنم تخاف من الذئاب ، فلما رأتني أوجزت في صلاتها ثم قالت : يا ابن زيد فليس الموعد هنا إنما الموعد غداً ، فقلت : يرحمك الله منْ أعْلَمَكِ أني ابن زيد ؟ فقالت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

فقلت لها : عظيني ، فقالت : واعجباً لواعظٍ يوعظ ! ! إنه بلغني ما من عبدٍ أعطى في الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً إلاَّ سلبه الله حبّ الخلوة معه ، وبدله بعد القرب بعداً وبعد الأنس وحشة .

* * *

(١) النيسابوري ، أبو القاسم ، عقلاء المجانين ، ص ١١٢ .
(٢) النبهاني ، يوسف بن إسماعيل ، جامع كرامات الأولياء ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

أم السعد القرطبية

أمّ السعد القرطبية

أم السعد بنت عصام بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن يحيى الحميري ، من أهالي قرطبة وتُعرف بـ(سعدونة) .

قال البدرُ النابلسي في (التذليل) : لها رواية عن أبيها وحدِّها وغيرهما من أهل بيتها[1] .

وهي من النساء المشهورات في الأندلس[2] .

أنشدت لنفسها في تمثال نعل النبي ﷺ تكملة لقول من قال :

سألتم التمثال إذْ لم أجد
للثم نعلِ المصطفى من سبيل

فقالت :

لعلّني أحظى بتقبيله
في جنَّة الفردوس أسنى مقيل
في ظلِّ طوبى ساكناً آمناً
أسقى بأكواسٍ من السَّلسبيل
وأمسحُ القلبَ به علّه

---

(١) السيوطي ، نزهة الجلساء: ٨٨ ، لم نجد في المصادر تاريخ ولادتها أو وفاتها .
(٢) المقري ، النفح ، ج ٤ ، ص ١٦٦ .

يسكـــن مـــا بـــي شـــربـــه مـــن غليـــل
فطـــالمـــا استشفـــى بـــأظـــلال مَـــنْ
يهـــواه أهـــل الحـــبِّ فـــي كـــلِّ جيـــل[1]

* * *

(١) السيوطي ، ذكر سابقاً: ٨٨ .

عائشة الباعونية

عائشة الباعونية

اسمها ومولدها :

هي عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر الدين الشافعي ، الباعوني[١] ، والباعوني نسبة إلى باعون وهي قرية صغيرة من قرى الموصل ، أما الزركلي فيقول هي قرية من قرى شرقي الأردن[٢] والقول الأول هو المرجح مادام قد نصَّ على ذلك في (الكواكب السائرة)[٣] .

مولدها في دمشق وعاشت فيها طفولتها وسنيّ شبابها ، ودراستها الأولى ، فحفظت القرآن الكريم ولها من العمر ثماني سنين ، ثم تابعت تحصيلها العلمي ، فقرأت كتب الفقه والعربية على أشهر علماء عصرها ، وكان في مقدمتهم والدها ، وتنسكت على يد السيد الجليل إسماعيل الخوارزمي ثم على يد الخليفة محيي الدين ، ثم سافرت إلى القاهرة

---

(١) درر الحبب في تاريخ أعيان حلب ص ٢٢٧ ، ابن العماد شذرات الذهب ج ٨ ص ١١١ ، زينب فواز: الدر المنور في طبقات ربات الخدور ، الزركلي: الأعلام ، ج ٤ ص ٧٢٦ ، الذهبي والخيمي مجلة التراث العربي ج ٤ ، ص ١٠٩ ، ص١٢١ ، أبو زيد ، البديعيات في الأدب العربي ص ٩٢ ـ ٩٤ .

(٢) الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٨٧ .

(٣) موسى باشا (د . عمر): الأدب العربي في العصر المملوكي والعصر العثماني ج ١/ ٣٦٤ .

ونالت من العلوم حظاً وافراً وأجيزت في الإفتاء والتدريس[1] .

وعادت من القاهرة إلى دمشق عام واحد وعشرين وتسعمائة للهجرة .

آثارها الأدبية :

١ ـ ديوان شعر .

٢ ـ الفتح الخفي من منح التلقي : وقد صحح الاسم الدكتور عمر موسى باشا في كتابه العصر المملوكي والعصر العثماني ، فقد ذكر بالكواكب السائرة بالفتح الحنفي ويشتمل على كلمات لدنية ومعان صوفية ، ومعارف ذوقية[2] .

٣ ـ الملامح الشريفة من الآثار اللطيفة يشتمل على إنشادات صوفية ذوقية .

٤ ـ در الغائص في بحر المعجزات والخصائص : قصيدة رائية .

٥ ـ الإشارات الخفية في المنازل العلية : أرجوزة في التصوف .

٦ ـ أرجوزة القول البديع لخصت فيها القول البديع في الصلاة على الشفيع .

٧ ـ فيض الفضل وهو ديوان شعر مخطوط .

٨ ـ المورد الأهنا في المولد الأسنى .

مكانتها الأدبية والصوفية :

(يصفها محمد كرد علي بأنها (المحدثة الصوفية الشاعرة المجيدة)[3] لقد أسهمت بدورها الفعّال في تطور الشعر العربي ، وتجديد بعض

---

(١) الكواكب السائرة ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .
(٣) كرد علي ، محمد ، خطط الشام.

أغراضه في هذا الالتزام الشكلي المضموني ، كما ظهر في فن المدائح النبوية إذ أصبحت بديعياتها ، وقصائدها تتردد في الحلقات الصوفية والمجالس الأدبية . وقالت في التصوف :

حبيبي أنتَ مِنْ قلبي قريبُ ... وعن سرّي جَمالُك لا يغيبُ
خلعتَ الحُسن في خِلَع التَجلّي ... فشاهدتُ الجمالَ ولا رقيبُ
وأبديتَ الوصالَ فلا صدودٌ ... ولا وهمٌ ولا شيء يريبُ
تُنادِمُني وتَسقيني مُدامي ... ويحضرني لديك فلا أغيبُ
وتُذكرني وتشْهدني جَمالاً ... تَقدمَ أن يكونَ له ضريبُ
فلا خوفٌ وأنت أمانُ قلبي ... ولا سقمٌ وأنت لي الطبيبُ
ولا حزنٌ وأنت سروري سرِّي ... ولا سؤالٌ وأنتَ لي الحَبيبُ[1]

ولها أيضاً :

يا من أفنى في مَعناهُ ... كم مُعنًّى في هواهْ
جُدْ لي جُدْ لي ومتعني ... وجَلِّدْني بالعيان
في اتصالي
يا محبوبي يا مطلوبي ... يا مقصودي يا موجودِيْ
كُنْ لي كُنْ لي واجبرْ كَسري ... واغْنِ فَقري بالتَّدانِي
والوصال
حبّك تَيّم فيك المغرم ... ولي وهيَّم بل اعدامْ
عَقلي عقلي واحيرني ... واسهرني وأضناني
بالدلالِ
مُجلي المظهرُ فيما أظهرْ ... أفنى منِّي لما نوَّرْ
ظلي ظلي واجردني ... وأفردني وأفناني
بالجلالِ

---

(١) الغزي ، نجم الدين ، الكواكب السائرة ، ١/ ٢٥ .

غبتَ عني رحتَ مني زالت حُجبي وافى قربي
وصلي وصلي قد أدهشني وأنعشني وأحياني
بالجمالِ
في مجلاه لما حيَّا من وافاه بالحميَّا
خلي خلي قم وتِّرني وتملِّى بالإحسان
من نوالي
هذي الخمرة فيض منان عند العرفان لنا ندمان
أهلي أهلي وساداتي وأحبابي وإخواني
في أحوالي[1]

من أشعارها :

لها ديوان مشتمل على قصائد ومدائح الحبيب الأعظم والرسول الكريم ﷺ .

فاتحة القصيدة الأولى (القول الصحيح في تخميس بردة المديح) في ديوانها :

كتمتُ عشقِي فأضحىٰ غيرَ مكتتمِ بمدمعٍ عَنْدَمِيّ اللَّونِ منسجمِ
وقالَ صَحبي ووجدِي صارَ كالعَلمِ أمِنْ تَذكُّر جيرانٍ بذي سَلمِ
مزجتُ دمعاً جَرى مِنْ مقلةٍ بدمِ
أمْ منْ لواعجِ أشواقٍ ملازمةٍ أم من شجون هوىً بالقتلِ حاكمةٍ
أمْ من سيوف ملامٍ فيك كالمةٍ أم هبت الريح من تلقاء كاظمةٍ
وأومضَ البرقُ في الظلمات من إضمِ

خاتمة القصيدة :

اذكرْ صلاةً تنيلُ القَصدَ والطَّلبا من الوفا وتُؤدي بعضَ ما وَجَبا
وتشهدُ العَبْدَ في ألطافِهِ عَجَبا ما رَنَّحتْ عنْدَ عذباتِ البانِ ريحُ صبا

---

(١) العلاوي ص ٤٢ .

وأطـربَ العيـس حَـادي العيـسِ بـالنَّغـم[1]

القصيدة الثانية (الفتح المبين في مدح الأمين) التي تقول في براعة المطلع :

في حسنِ مطلعِ أقمارٍ بذي سَلم أصبحتُ في زمرةِ العشَّاقِ كالعلمِ

وأما خاتمة القصيدة :

مدحتُ مجدكَ والإخلاصُ ملتزمي فيه وحُسنُ رَجائي فيكَ مَختَتِمي

القصيدة الثالثة (فتوح الحق في مدح سيد الخلق) ، فاتحة القصيدة :

بَراعتي في اِبتدا حَالي بِحبّهمِ بـراعـة تقتضـي فـوزِي بقـربهـمِ
وحِيلتـي ذلتـي فـي بـابِ عـزهـم الأعلى وتعفيرِ خدِّي في تُرابهمِ
ومَذهبي في الهَوى أن لا أَحول ولا ألـوي عِنـانـي لحـيٍّ غيـر حيّهـمِ

خاتمة القصيدة :

صَلَّـى عليـك إلهـي دائمـاً أبـداً أزكى صلاةٍ تَديم الفيض بالكرمِ
وتشملُ الرسْلَ والآلَ الكرامَ وَمَنْ بصحبـةٍ فـازَ والسَّـاري بنهجهـمِ
ما جادَ جود الوفا فضلاً لرائحةٍ ومتَّـع السِّـر بـالمحلى وبـالكَلِـمِ
وما سرتْ نسمةٌ من أرضِ كاظمةٍ وهيَّج الوجدُ حادي الوفدِ بالنَّغمِ

٤ ـ القصيدة الرابعة : (نفائس الغرر في مدح سيد البشر) .

فاتحة القصيدة :

أنـورُ بـدرٍ مـن جـانـبِ العَلَـمِ أم وجهُ ليلى على الجرعاءِ من إضمِ
نعم بدا نورٌ جلا حُسنها فَسبى صَـونـي وصيّـرنـي غيـرُ مكتتـمِ
وكيـفَ أكتـمُ حبَّـاً والشـؤون بـه تنبي بشـأني ومـا ألقـاه من ألـمِ

خاتمة القصيدة :

صلى عليك إله العرش أفضل ما صلى على أحد ممن سما وسمي

---

(١) مجلة التراث ، العدد الرابع ، السنة الثانية ـ آذار/ ١٩٨١ ، ص ١٢٢٠ .

والآل والصحب والأتباع قاطبةً أهل الصفا والوفا والفضل والعَلَمِ
ما فاحَ نشرُ الخُزامى من ربا عرب مخيمين على الجرعاء من إضمِ
وما سرتْ نسمةٌ من نحو كاظمةٍ ولاح برقٌ على أكناف ذي سلمِ
وأنشدَ المُتفاني في الغرامِ بكم أونورُ بدرٍ بَدا من جانبِ العلمِ[1]

* * *

(١) مجلة التراث ، العدد نفسه ، ص ١١٧ ـ ١١٩ .

الفتح المبين في مدح الأمين
بديعية عائشة الباعونية

في حُسنِ مطلعِ أقمارٍ بذي سَلَمِ[1] أصبحتُ في زمرةِ العُشَّاقِ كالعَلمِ
أقولُ والدَّمعُ جارٍ جارحٌ مُقَلي والجارُ جار بعذْلٍ فيه مُتَّهمي
يَا للهَوى في الهَوى روحٌ سمحْتُ بها ولم أجدْ روحَ بُشرى منْهُمُ بِهِمِ
وفي بكائي لحال حالَ من عدمٍ لفقت صبراً فما أجدى لمنعِ دَمي
يا سعدُ إن أبصرَتْ عيناكَ كاظمةً[2] وجئتَ سَلْعاً[3] فسَلْ عن أهلها القِدَمِ
فثمَّ أقمارُ تَمٍّ طالعين على طُويلعٍ[4] حَيَّهمْ وانزلْ بِحَيِّهمِ
أحبةٌ لم يزالوا مُنْتَهى أملي وإنْ هموا بالتَّنائي أوجبوا أَلَمِي
علَّوْا كمالاً، جلوْا حسناً سبوا أمماً زادوا دلالاً، فَني صَبري فيا سَقمي
أحسنتُ ظنِّي وإن همْ حَاولوا تَلَفي وثمَّ سِرّ وضَنِّي فيه من شِيمي

---

(١) ذو سلم: واد ينحدر على الذنائب . وسوق الذنائب قرية دون زبيد من أرض اليمن .

(٢) كاظمة: جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شورب ، واستسقاؤها ظاهر .

(٣) سلع: جبل بسوق المدينة وقال الأزهري: سلع موضع بقرب المدينة .

(٤) طويلع: هضبة بمكة . أو لبني تميم .

اليَحْمدَيْ[1] وأبو تمَّام كل شج ... عانى الغرام إلى قلبي لأجلهم
قيل اسْلَهُمْ، قُلتُ إن هبَّتْ صبَا سَحَراً ... وأشرقَ البدرُ تَمَاً سَلْخَ شهرهِمِ[2]
مَالي رَجوعٌ عن الأشجانِ في وَلهي ... بل عن سُلُوّي رجوعي صارَ من لزمي
رجَوتهم يعطفوا فضلاً وقد عَطَفوا ... لكنْ على تلفِي من فرْط عِشقِهمِ
هـان السُّهـادُ غـراماً فيـه أقلقنـي ... شوقاً وعزّ الكَرى وجداً فلم أَنَم
وعَـاذل رامَ سُلْـوانـي فقلـت لـه ... (من المُحال وجود الصَّيد في الأجَم)[3]
عذلتني وادَّعيتَ النُّصح فيه فلا ... بَرِحْتُ أسعى بلا حدّ إلى النَّعَمِ
كيف السُّلو ونارُ الحُبِّ موقدَةٌ ... وسْطَ الحَشا وعيونُ الدمع كالديِّم[4]
ولي جفونٌ بغير السُّهدِ ما اكتحلتْ ... ولي رسومٌ بغيرِ السُّقْم لم تسمِ
تهابني الأسْدُ في آجامها وظُبا ... تلـك الظِّبـا قـد أذلتنـي لعـزّهـم
أزروا بشمس الضُّحى والبدر حين بدوْا ... وأومـضَ البَـرقُ مـن ثلْقـاء مبتسـمِ
يا نفسُ ، ماذا الوَنى؟[5] جِدِّي فإنْ يَصلوا ... فالقَصدُ أولى، فموتي موتُ محتشم
لِذِكرهمْ صارَ سَمْعي العَذْلَ يُطربني ... من اللَّواحي[6] ويُلجيني لِشِكرهمِ
بلغتُ في العشق مَرمىً ليس يُدركُهُ ... إلا خَليعٍ صبَا ، مثلي ، إلى العَدَمِ
كتمتُ حالي ويأبى كَتْمَهُ شَجني ... بُحكمي الفَاضِحَيْن، الدَّمع والسَّقَمِ
قالوا ارْعوي[7] قلتُ قلبي ما يُطَاوعني ... قالوا انثني قلتُ عهدي غيرُ منفصم
قالوا سلوتِ فقلتُ الصَّبر في كَلَفي ... قالوا يئستِ فقلت البُرْء في سقمِي

---

(١) أرادت عائشة باليحمدي (الخليل بن أحمد) منشىء علم العروض .
(٢) سلخ شهرهم: سلخت أشهر إذا أمضيته .
(٣) الأجم: شجر كثيف ملتف .
(٤) الدِّيم: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق .
(٥) الونى: الضعف .
(٦) اللواحي: العوازل .
(٧) ارعوى عن القبيح: أي كفَ .

يا عاذلي أنتَ معذورٌ فسوف ترى ... غدا بدا الصُّبحُ، ما غطَّى غشا الظُّلمِ
أبرْمتَ عذلاً ويخشى أن تُجرّبه ... إلى السُّلوّ وما السلوانُ من شِيَمي
أجْرِ الأمورَ على إذلالِها فعسىٰ ... تَرى بِعينيكَ وجْهَ النُّصح في كَلَمي
عَـنْ ذمِّ مِثلـكَ تبيـانـي أنـزِّهُـه ... إذْ أنتَ عنديَ معدودٌ من النَّعمِ
الجهل أغواك[1] أم الطرف منك عمي؟ ... أغابَ رشدكَ ، أم ضرٌ من اللِّممِ ؟
أتعبتَ نفسَك في عَذلي ، ومعذرةً ... مِني إليكَ، فسمعي عَنْكَ في صَمَمِ
اِعلّ وعَنّفْ وقل ما اسطعتَ لا تَرني ... إلا كَما شاءَ وجْدي حَافظاً ذِممي
تسومُني الصَّبرَ عمّن لي حَلا بهمِ ... جميعُ ما مَرَّ من حالاتِ عِشقهمِ
لم يا عذولي وشاهد حسنهم ، فإذا ... شَاهدتهُ واستَطَعْتَ اللَّومَ بَعْدُ ، لُمِ
ابـنْ أنـلْ ، عَـرّفـن فـرّع لنـا نبـأً ... مـن المَـلام ، وحشّيـهِ بـوصفِهـمِ
وامزُجْ مَلامَك بالذّكرى فإنّ بها ... تَعلُّـلاً لعِلِيـلِ الشَّـوقِ مـن أَلَـمِ
كرّرْ أعِدْ أطربْ ابْسُطْ ثنِّ غَنِّ أجِبْ ... قُلْ سَلْ وجُدْ وترنَّمْ[2] برَمْن دمِ
أعِد حديث أحبائي فَهُمْ عَربٌ ... قد أعربَ الدَّمعُ فيهم كلّ منعجم
واستوطنوا السر مني فَهْو منزلهم ... ولـم أفـوه بـه يـومـاً لغَيـرهـمِ
بدا الصُّدودُ ببعدي عن جِوارهِمِ ... فعـادَ وصـلٌ بِقُـربـي مـن مَحَلّهـمِ
أحبّـةٌ مـا لقلبـي غيـرُهُـم أرب[3] ... وحُبُّهم لم يزلْ يربو من القِدَمِ
لزَمتُ صدقَ ولا هَم والتزَمتُ بهِ ... فلسـتُ أسلـوهُ إلا عَـنْ سُلُـوِّهِـمِ
حَلـوا بقلبـي وحَلَّـى جـود منّتِهـمِ ... جيدي وشكر الأيادي مَسمعي وفَمي
ما بهجةُ الشمسِ في الآفاق مُسفرةً ... يـومـاً بـأبهـجَ مـن لألاء حُسنهـمِ
لا مَكّنتني المَعالي من سِيادتها ... إن لم أَكُنْ لهُمُ من جملةِ الخَدَمِ
بفضلِهِمْ غَمَروني من فواضِلِهم ... بما عجِزتُ به عن حقّ شُكرهِمِ

---

(١) أغواك: الغي الضلال والخيبة .
(٢) ترنمك إذا رجع صوته .
(٣) أرب: الأرب الحاجة .

وأقبسوني مُذ آنستُ نارهُمُ ... من طُورِ حضرتِهمُ نوراً جَلا ظُلَمي
وألبسوني ثيابَ الوَصلِ مُعْلمةً ... بقربِهم وأقَروا في العُلاَ علَمي
وحوَّلوني مُلكاً فيه فزتُ بهمْ ... فوْزاً العُفاةِ بوافي فيض فَضلِهمِ
لهم شمائلُ بالإحسانِ قد شمَلتْ ... وعلّمتْ كَرمَ الأخلاقِ والشِّيَمِ
ولي عوائدُ منهم بالجَميلِ لها ... بمنِّهمْ إتّصالٌ غيرُ مُنحَسِمِ
قالوا الوفا، راقَ عيشُ المُستهامِ بهم ... فلا جفَا بعدما جادوا بوَصلِهمِ
حلُّوا بَقَلْبي ، فَيَا قَلْبي تَهَنَّ بِهِمْ ... وافْرَحْ ولا تلتفتْ عنهم لغيرهِمِ
قد طالَ شوقي وقلبي منزلٌ لهُمُ ... إلى الطُّلول التي تسمو بإسْمهمِ
فليتَ شِعريَ هل حالي بمُنتظمٍ ... قبل الوَفاةِ وهل شَملي بمُلتئمِ ؟
نَعْمَ ، نَعمْ ، حَدثتني وهي صادقةٌ ... ظنونُ سّري حَديثاً غيرَ مُتَهَمِ
عن جودهِمْ، عن نَداهُمْ، عن فضائِلهمْ ... عن مَنِّهمْ عن وَفاهُم نيل بِرِّهِمِ
سَادوا فجودهُمُ جَمٌّ وبَذْلُهمُ ... حتمٌ ، ومورِدُهُمْ غُنمٌ لكلّ ظَمِي
يا سعدُ، إن ساعَدَ الإسعادُ واجتمعتْ ... لك الأمَاني وجئتَ الحَيَّ عن أمَمِ
عرَّج[1] على قاعة الوعَساءِ[2] منعطفاً ... على العَقيقِ[3] على الجَرعاءِ[4] من إضَمِ[5]
واقصدْ مصلّىً به باب السَّلامِ[6] وقِفْ ... لَدى المُقامِ وقبّلْ مَوطِئَ القَدمِ
فلي فُؤادٌ بذاك الحَي مُرتهنٌ ... سلا السُّلُوّ وعانى ، وجدّهُ بهمِ
ناشدتُهُ الله ، والأنوارُ مشرقةٌ ... تَعلو المعالمُ من سكانِها القِدَمِ
أنت الكليمُ ، وهَذَا طُور حَضرتهم ... أقبلْ ولا تَخَفِ الواشِين بالكَلِمِ

---

(١) عرج: عرج فلان على المنزل تعريجاً: إذا حبس مطيته عليه وأقام .
(٢) الوعساء: موضع بين الثعلبية والخزعية على جادة الحاج .
(٣) العقيق: بناحية المدينة وفي عيون ونخل . والعرب تقول: لكل ميل ماء شقه السيل في الأرض عقيق .
(٤) الجرعاء: جرعاء مالك بالدهناء قرب حزوى .
(٥) إضم: ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السمنة .
(٦) باب السلام: باب من أبواب مكة .

وشاهدِ الحسنّ والإحسان جزوُهمُ ... ولا تدعْ منك جزءاً غير مقتسمِ
ولا يصُدَّكَ عن بذلِ الوجوهِ لهم ... نُصحُ اللَّواحي وما صاغوا بنُطْقِهِمِ
هم المَفاليسُ ما ذاقوا الغرامَ ولا ... أمّوا حِمى خيرِ خلقِ الله كُلِّهمِ
محمد المصطفى، وابنُ المذبيح أبو أبي الز ... هراء ، جدُّ أميرَيْ فِتيَة الكَرمِ
الوَافر العَظمِ ابن الوَافر العَظم ابـ ... ن الوافر العَظم ابن الوَافر العَظمِ
المُرتضى المُجتبى[1] المَخصوص، أحمدَ ... اختارَه الله قبل اللَّوحِ والقَلمِ
من خيرِ النَّبيينَ والبرهانُ مُتضحٌ ... عقلاً ونقلاً فلم نَرْتبْ ولم نَهمِ
أسناهُمْ نَسَباً ، أزكاهُمُ حَسَباً ... أعلاهُمُ قرباً من باريءِ النَّسَمِ
طَه المُنادى بألقابِ العُلا شَرَفاً ... وغيرُهُ بالأسامي ، ضِمْنَ كُتبِهِمِ
عَزَّت جَلالتهُ ، جَلَّت مَكانتُهُ ... عمَّت هِدايتُهُ للخلْقِ بالنِّعمِ
أعظِم بهِ من نبي مُرسلٍ نزلتْ ... في مدحِهِ مُحكمُ الآيات[2] من حكمِ
ينبي مفصَّلها عن عزّ مرتبةٍ ... من قابِ قوسين[3] لم تدركْ ولم ترمِ
تَبارَكَ الله من أوحى إليه بما ... أوحى ، وخصَّصهُ بالمُنتهى العظمِ
برتبةِ ألقابِ ، بالأدنى ، بحظوتِهِ ... برويةِ اللهِ ، بالإيناس ، بالكَلمِ
دنا ونال فلا ثان يشاركُهُ ... في ما حواهُ من التَّخصيص والكرمِ
أتى وكان نبياً عِنْد خَالِقِهِ ... قِدْماً وآدم طيناً بعدُ لم يَقُمِ
ذو الجَاه حيث يضمُّ الخَلقَ محشرُهم ... ولا يُرى غيرُهُ في الكَشف للغَممِ
ذو المجدِ حيثُ أهَيْلُ المجدِ قاطِبةً ... تسيرُ تحت لواهُ يومَ حشرِهِمِ
ذو المُعجزات التي منها الكتابُ فيا ... بُشرى لمقتبسٍ منْهُ لكلِّ جَمِ[4]

---

(١) المجتبى: المصطفى .

(٢) في القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران ، ٣/ ٤ .

(٣) جاء في القرآن (قاب قوسين) في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ النجم ٥٣/ ٨ ـ ٩ .

(٤) جم: الجمّ الكثير ، قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

يُتلى ويحلو ولا يَبلى وليس لهُ ... مُبَدّلٌ وهو حبل الله ، فاعتَصمِ[1]
قـلْ للّـذي ينتهـي عَمّـا يُحـاولُـهُ ... من حصر مُعْجِزِ طه الطَّاهر الشيَمِ
كم أعقَبَتْ راحةً باللَّمْس راحَتُهُ ... وكـم مَحـا محنـةً ريـقٌ لـه بفَـمِ
والنِّيـران أطـاعـاهُ ، فتلـك بَـدَتْ ... بعد الأفُولِ ، وهذا شقّ في الظُّلمِ
والماءُ من إصبعيهِ فاض فيضَ ندا ... كفّيهِ ، مردود هذا مُعدم العَدمِ
فريدُ حُسْنٍ تَسامى عَنْ مُماثلةٍ ... في الخَلْق والخُلق والأحكام والحِكمِ
بدرُ الكمالِ ، كمالُ البدرِ مُكتَسبٌ ... من نورهِ وضياءُ الشَّمس ، فاعتلمِ
أعظِـمْ بـه مـن نبـيٍّ سيّـدٍ سنـدٍ ... هادٍ ، سراجٍ منير ، صفوةِ القدمِ
بالحقّ مشتغلٍ في الخلقِ مُكتملٍ ... بـالبـرِّ مُلتـزمٍ ، بـالبّـر مُعتصـمِ
للبّـذلِ مغتنـمٍ بـالبِشـر متسـمٍ ... يسمـو بمبتسـمٍ كـالـدُّرِّ منتظـمِ
ممجَّدِ الذِّكر في الفُرقانِ بالعظَمِ ... مُحَمد الأمر في التِّبيان من حكَمِ
جَمـالُ صُـورتـهِ عُنـوانُ سيـرتِـهِ ... هَـذَا بـديـعٌ وهـذي آيـةُ الأُمَـمِ
ولو غدا البَحْر[2] براً الفضا ورقاً ... في حصر أوصافهِ ضاقا ببعضِهِمِ
وذكـرُهُ كـادَ ، لـولا سُنَّـةٌ سبقـتْ ... إذا تكـرر يُحيـي بـاليَ الـرَّمَـمِ[3]
عـلا عـن المِثْـل فـالتَّشبيـهُ ممتنـعٌ ... في وصفه ، وقصورُ العقل كالعلمِ
إذ كلّ حسْنٍ مفاض من محاسنهِ ... وكلّ حُسنَى فمن إحسانِهِ العَممِ
محمّـدٌ إسمُـهُ نعـتٌ جملـةِ مـا ... في الذّكر من مدحهِ في نون والقَلمِ
عُلاهُ كالشَّمس لا يَخفى على بصرٍ ... والوَجهُ كالبدرِ يجلو حالكَ الظَّلَمِ
لـو كـان ثَـمَّ مثيـلٍ قلـتُ طلعتُـه ... كالبَدرِ حَاشا تعالى كامل العَظمِ
قالوا هو الغَيثُ قلتُ الغَيثُ آونةً ... يَهمي ، وغيثُ نَداهُ لا يزالُ هَمي
يَعطي العُفاةَ أمانيهُمْ فلستَ ترى ... فـي حبّـهِ غيـرَ ممنـوحٍ ومُغْتنـمِ

---

(١) فاعتصم: اعتصم بكذا واستعصم به إذا تقوّى وامتنع .

(٢) في القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ الكهف: ١٨/١٠٩ .

(٣) الرمم: العظام البالية .

في النُّورِ لاح عُلاهُ لا نظيرَ لـه ... نور القُرآن قُرآنا من لَدُنْ حكَم[1]
حازَ الجمالَ فما في حسنِ مُتَّصفٍ ... بشطرهِ بعض ما في سيّدِ الأُمَم
هو الحبيبُ من الرحمنِ رحمتُهُ ... للعـالَمينَ بـإيجـادٍ مـن العَـدَمِ
غَوْثُ[2] الورى، كعبةُ الآمال ملتزمي ... في حبِّه بالتَّفاني صارَ من لَزمي
جرَّدتُ حجّي له من كلّ مَفسدَةٍ ... ولم تزلْ بالصَّفا تَسعى لهُ قدمي
بحرُ الوَفاءِ دَعاني بالوَفاءِ إلى ... نَيـل الـوفـاء وروَّانـي مـن النَّغـمِ
بَلغـتُ مـا رُمتـهُ منهـم فلـم أرُم ... عمّن جلا غُممي بالعزم والهِمَمِ
وأفردته المَدحَ استثني بِمدحك مَنْ ... حازوا عُلا الفَضلِ مذ فازوا بسبقهمِ
البَاذلو النَّفس بَذْل المالِ من يدهم ... والحَافظو الجَار حفظَ العَهد وَالذِّممِ
لا يُسلَبون بفضـلِ اللهِ مـا وهبـوا ... ويَسلبـوا ضـرر الإمـلاقِ بـالكَـرَمِ
سودُ الوقائع، حُمرُ البيض في حَرَبٍ ... خضرُ المرابع بيضُ الفعْل في سلَمِ
كأنهم في عجاجِ النَّقعِ حين بَدوا ... بُدورُ تَمٍّ بدت في حُنْدس[3] الظلمِ
للجَمع فَلُّوا وما فلَّت عزائمهم ... وهي المَواضي على استئصالِ كلّ عمِ
هُمُ النُّجومُ فما أسنى مطالعهم ... فـي أفـق ملتِـهِ البيضـا بهـديهـمِ
لا يمزحُ الشَّكُ منهم صفوَ معتقدٍ ... ولا يشيـن التُّقـى بـاللَّـمِّ واللَّـممِ
بالسبقِ فازوا بتخصيصٍ تَقَدَّمَهُمْ ... فيـه خليفتـه الصَّـديـق ذو القـدَمِ
لا عيبَ فيهم سوى أن لا يُضامُ لهم ... وفدٌ ولا يبخلوا بالرِّفْدِ في العَدمِ
طَه الَّذي إن أخفْ ذنبي ولُذتُ به ... آمنت خوفي ونجَّاني من النِّقَمِ
ولا طمحتُ إلى نيلٍ من الكَرَم ... إلا وبَلَّغنـــي فـــوق الَّـــذي أرُمِ

---

(١) في القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود ١/١١ .

(٢) غوث: غوّث الرجل تغويثاً قال: واغوثاه بالضم والفتح ، قال الفراء أجاب الله دعاءه .

(٣) الحُنْدس: الظلمة .

ما هبَّتِ الريحُ إلا شمْت برق[1] وفا ... لي فيهِ وبلُ عطا من ديمة النِّعمِ
يا أكرمَ الرُّسْلِ سُؤلي منك غيرُ خَفِ ... وأنت أكرمُ مدعوّ إلى الكَرَمِ
حسبي بحبكَ أن المرء يحشَرُ مع ... أحبابهِ فهنَائي غير منحَسِمِ
مَدحتُ مجدَكَ والإخلاصُ ملتَزَمي ... فيه وحُسنُ امتداحي فيك مُختَتَمي[2]

* * *

(١) أرم: رام الشيء أي طلبه .
(٢) شمت برق: شام البرق: نظر إلى سحابته أين تمطر .

عائشة التيمورية

عائشة التيمورية

هي عائشة عصمت بنت إسماعيل تيمور بن محمّد كاشف التيمورية القاهرية المصرية[1] . كان مولدها في أواسط القرن الثالث عشر الهجري ، حيث رأت النور في القاهرة (١٢٥٦ هـ) . كانت عائشة ذات أصل تركي من جهة أبيها إسماعيل باشا تيمور ، أما والدتها (معتوقة) فهي من أصل جركسي من الأسر الجركسية ، التي قدمت مصر واستقرت فيها منذ أمدٍ سحيق .

وهي أديبة فاضلة ، وحكيمة عاقلة ، شاعرة ناثرة ، رضعت أفاويق الأدب ، وهي في مهد طفولتها وتحلّت بحَلْي لغات العرب قبل تضلّعها من التركية بالتركية ، وفاقت أقرانها ، اختصها الله بالفصاحة عند بلوغها سن الرشاد ، وصارت ندرة زمانها بين أهل الإنشاء والإنشاد ، وحباها البلاغة والبيان ، كانت معروفة بالافتتان في أفانين البلاغة والنّظم المعتدل الأوزان ، وهي نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر في نظم الشعر .

رغبت عن العمل بالإبر وخياطة الثياب ، ورغبت في العلم ، تربّت تربية إسلامية ، فقد أحضر لها والدها اثنين من الأساتذة أحدهما يدعى : إبراهيم أفندي مؤنس الذي كان يعلّمها القرآن الكريم ، وعلومه والفقه الإسلامي ، والخط العربي الذي تزيّن فيه كتابتها ، وأما الأستاذ الآخر

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب يوسف فواز ، ص ٣٠٣ .

فيدعى خليل أفندي رجائي وكان يعلّمها النحو ، وعلم الصرف؛ بالإضافة إلى تلقيها اللغة الفارسية؛ حتى برعت فيها ، وصارت تكتب الشعر والنثر بهذه اللغة[1] .

ولمّا صارت قريحة عائشة تجود بمعانٍ مبتكرة؛ لم يسبقها إليها غيرها رأى والدها أن يحضر لها أساتذة عروضيين من النساء الأديبات ، والشواعر الكاتبات ، ثم انتقلت إلى الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية آنذاك، وهناك اقتصرت عائشة على المطالعة، والقراءة، وإنشاد الأشعار.

(وأخذت طموحات عائشة التيمورية تشرئبّ بأعناقها نحو المعالي ، وأحبت أن تتسنّم ذروة الشعر ، وتتسم معرفة عروضه وبحوره ، لتبحر في بحاره ، وتشدو بأرق الكلمات ، وهي تمخر عباب عذب العبارات ، لذلك عجمت عيدان عزيمتها وأرهنت حد ظبائها ، كيما تحقق هذا الهدف المنشود ، والأمل المعقود ، فقصدت عالما تتدرس على أيديهن هذا الفن ، ولم تلق عصا التيار بعيداً ، وإنما ألفت ما ترنو إليه عند امرأتين أديبتين عالمتين هما «فاطمة الزهرية» و«ستيتة الطبلاوية» ، وهكذا وجدت لها معلمات وزميلات يقرأن الأدب ويعرفن فنّ الشعر والعروض ، وأحضرتهما وتتلمذت عليهما) .

وتلّقت علوم العربية عن امرأة أزهرية هي «فاطمة الزهرية» التي تخرجت من الأزهر ، وبرعت في العلم والأدب ، كما أخذت النحو والعروض . وعلى يد هاتين الأديبتين العالمتين أسّست عائشة التيمورية معارفها في فن الشعر عمود الأدب ، كما أنها اقتبست من أخلاقها الفاضلة ، ومن معارفها ما جعلها بارعة في مجال الأدب والأخلاق ، حتى غطّت شهرتها هاتين الأستاذتين الفاضلتين .

---

(١) شاعرات العرب ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

لقد درست عائشة من الفنون خير ما كان يدرسه أبناء الجيل ، وضارعت في النَّظم أحسن من نظموا فيه ، وأتقنت بحور الشعر ، وأحسنت نظمه ، فصارت تنشد القصائد المطولة والأزجال المنوعة ، والموشحات البديعة التي لم يسبقها أحد إلى معانيها أو شدو مغانيها .

جمعت عائشة ثلاثة دواوين شعرية بثلاث لغات عربية ، تركية ، فارسية ، ولكن هذا الديوان لم يكتب له الخلود ، فقد عاجل الموت ابنتها (توحيدة) فماتت معها تطلعات عائشة وتبعثرت درر أقوالها ، فقد أثر فيها موت ابنتها تأثيراً كبيراً . وبموتها تركت عائشة الشعر وأعرضت عن العروض . ثم إن عائشة جعلت ديدنها الرثاء والنوح مدة سبع سنوات ومن أبدع ما قالته في ذلك :

سُتِرَ السَّنا وتحجَّبتْ شمسُ الضُّحى ... وتنقَّبتْ بعد الشروقِ بدورُ
ومضَى الَّذي أهوى وَجرَّعني الأسى ... وغَدتْ بقلبي جذوةٌ وسعيرُ
لو بُثَّ حُزني في الوَرى لم يلتفتْ ... لمصابِ قيسٍ والمصاب كثيرُ
طافتْ بشهرِ الصومِ كاسات الرَّدى ... سحراً وأكوابُ الدموعِ تدورُ
فتناولتْ منها ابنتي فتغيرت ... جنات وخد شأنها التغييرُ
فذوتْ أزاهيرُ الحياةِ بروضها ... والقدُّ منها مائسٌ ونفيرُ[1]

أبدعت عائشة في الرثاء حتى سميّت (خنساء العصر) ، وأميرة شعر الرثاء في عصرها .

أخلاقها ومعالم سيرتها :

عاشت السيدة عائشة التيمورية ـ رحمها الله ـ حياة العفاف والعبادة ، وكانت تدعو في أشعارها وأقوالها إلى كريم الأخلاق ، وأخلاق الكرام ، وفي مقدمة دعوتها إلى ميدان الأخلاق :

---

(١) نساء من التاريخ ، ص ٤٥٧ .

نداؤها العذب الفرات للتحلي بالعفاف والحجاب ، وهما مما يجب أن تكون كلّ امرأة في كل عصر تتَحلَّى وتتجمل بهاتين الخصلتين الشريفتين[١] ، ومن ذلك قولها :

ما ضرَّني أدبي وحسن تعلمي ... إلاَّ بكـــونـــي زهـــرةَ الألبـــاب
ما ساءني خِدْري وعقد عصابتي ... وطـراز ثـوبـي واعتـزاز رحـابـي
ما عاقني حجلي عن العليا ولا ... ســدل الخمــار لِلُمَّتــي ونِقــابــي
بل صولتي في راحتي وتفرسي ... في حسن ما أسعى لخير مآبِ[٢]

نشأت السيدة عائشة التيمورية نشاة إسلامية خالصة بعيدة عن كل ما يسمى المشاعر التي كانت سائدة في عصرها .

ولقد شهد شاهد من أهلها بحسن قيامها بأمور الدين ، وحبها للعبادات ، وأدائها جميع الطاعات ، واجتنابها المحرمات ، يجمع ذلك كله التقوى ، فقد قال أخوها وربيبها «أحمد تيمور»[٣] عنها : (إن عائشة كانت تقية ، تصلي ، وتصوم ، وتقوم بكل الفرائض الدينية)[٤] .

* * *

(١) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٥٧ .
(٢) حلية الطراز ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .
(٣) حلية الطراز ، ص ٢٥٦ ـ ٢٦٦ .
(٤) نساء من الإسلام ، ١/ ٥٤ .

من أشعار عائشة التيمورية

١ ـ بردتها في مدح النبي :

أعنْ وميضٍ سَرى في حُنْدسِ الظُّلم ... أم نسمةٍ هاجتِ الأشواقُ من إضمِ[١]
فجددتْ ليَ عهداً بالغرامِ مَضى ... وشَاقنِيْ نَحو أحبابي بذي سَلَمِ
دَعا فؤاديَ من بعدِ السَّلَو إلى ... ما كنتُ أعهدُ في قلبي من القِدمِ
وهَاجني لحبيبٍ عشق منظره ... يَمحوْ ويثبتُ مَا يَهواه من عدمِي
يمحوْ سُلُوِّي كما يمحوْ إساءَته ... حبِّي له فعذابي فيه كالنَّعمِ
رامَ الوشاةُ سلُوِّي عن محبَّتِهِ ... ولَمْ أوفِّ لهم عذلاً ولَمْ أرمِ
كيفَ استنار الجَوى[٢] يا من تَمَلَّكَني ... وشَاهدُ العِشق في العُشاق كالعَلَمِ
فيا له معرضاً عني ومعترضاً ... بين الفراغِ وقلبي وهو مُتهمي
حَسبي من الحبِّ ما أفضى إلى تلفي ... وما لقيتُ من الآلامِ والسَّقمِ
إنِّي رددتُ عناني عن غوايته ... وقلتُ يا نفس خلّي باعث النَّدمِ
ولذتُ بالمُصطفى ربّ الشفاعةِ إذْ ... يدعو المُنادي فتحيا النَّاسُ من رحمِ
طه الَّذي كللتْ أنوار سُنَّته ... تيجانَ أُمته فضلاً على الأممِ
نِعْم الحَبيب الَّذي مَنَّ الرَّقيب به ... وهْوَ القَريبُ لِراجي المَجد والنعمِ
روحي الفِداء لِمَنْ لي أن أكون لهُ ... هَذا الفِداء ومَوجودي كمُنعدمِ

---

(١) إضم: ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السُّمينة .
(٢) الجوى: الخرقة وشدّة الوجد .

وما هي الروحُ حتى أفتديهِ بها ... وهي البُعاث بغار الظُّلم والظُّلمِ
والعمرُ أفنتْ ثقال الوزر لمحته ... وبددته صروف الدهرِ بالتهمِ
أين الرشادُ الذي أعددتُهُ لغدٍ ... غَويتْ عنه فزلَّتْ بالهوى قدَمي
من لي بتربِ رحابٍ لو أفوز بها ... كحَّلْتُ عيناً أفاضتْ دَمعها بدمِ
من لي بأطلال بانٍ عزَّ منظرها ... تسقي بطَلٍّ من الآفاق مُنسجمِ
تحطُّ أثقالَ وِزْرٍ لا تقومُ بها ... شمُّ الرَّواسيَ مِنْ رأسٍ ومنهدمِ
فكمْ بنبعِ زلالٍ فاضَ من يدهِ ... أروى الأوام[1] وأسقى منه كلَّ ظَمي
والجذع أنَّ له من بعده جزعاً ... لمّا نأى عنه مولى العرب والعجمِ
لانتْ لهُ الصخرةُ الصمَّاءُ طائعةً ... مُذْ مسَّها سيّد الكونين بالقَدمِ
فيالها معجزات ما لها عددٌ ... أقلُّها مَا بدا ناراً على عَلمِ
ولا يحيطُ به مدْحي ولو جُعلَت ... جوارحي ألْسُناً ينطقن بالحكمِ
وإنَّما أرتجي من مدحهِ قبَساً ... يهدي الصراطَ ويُشفي الرُّوح من ألمِ
وكيفَ لي باتِّعاظِ النَّفس آمرتي ... بالسوءِ ناهيتي عَنْ موردِ النِّعمِ
فما التماسيَ عن خيرٍ يُقرّبني ... زُلفى[2] النَّعيم ولا نُسقي بمنتظمِ
لكنَّ لي أسوةً أشفي بها وَصَبي ... حُسن ارتباطي بحبلٍ غير منفصمِ
ومنَّه اللهِ دَيْن وصفهُ قِيمٌ ... بجعبتي[3] إن أخفْ يوم اللقا يَقُمِ
وما سوى فوز كوني بعض أمته ... ذخراً أفوزُ به من زلَّةِ الوَصمِ
إلاَّ التماسي عفواً بالشَّفاعةِ لي ... من خاتِم الرُّسلِ خيرِ الخلقِ كلِّهمِ
مددتُ كفَّ الرجا أرجو مرحمةً ... وقد حللتُ به في مهرةِ الحرمِ
محمَّد المصطفى مِشكاةُ رَحمتنا ... مصباحُ حِجَّتنا في بعثةِ الأممِ

---

(١) الأوام: بالضم حر العطش .

(٢) في القرآن: ﴿مَانَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الزمر ، ٣/٣٩ .

(٣) بجعبتي: الجعبة كنانة النشاب والجمع جعاب . وفي الحديث فانتزع طلقاً من جعبته .

يا مَنْ به أقتدي يوم الزِّحام إذا ... أبديتُ ناصيةً[1] مغمومةَ الوسمِ[2]
أقول حين أوافي الحَشر في خَجلٍ ... إنَّ الكبائر أنست ذكرة اللممِ
يا خير من أرتجي إن لم تكنْ مَددي ... وازَلَّتي يوم وضع القِسطِ واندمي
فاشفعْ بحبِّ الَّذي أنتَ الحبيب لهُ ... لولاك ما أبرز الَدُّنيا من العدم
عَليك أزكى صلاة الله ما افتتحتْ ... أدوارُ دهرٍ وما دلَّتْ بِمُخْتَتَمِ[3]

٢ ـ لها أشعار توصي بالحجاب :

بيدِ العفافِ أصونُ عزَّ حجابي ... وبعصمتِي[4] أسمو على أترابِي
وبفكرةٍ وقَّادة وقريحةٍ ... نقَّادة[5] قد كُمِّلَتْ آدابِي
ولقد نظمت الشعر شيمة معشر ... قبلي ذوات الخدْر والأحسابِ
ما قلتُهُ إلاَّ فكاهةَ ناطقٍ ... يهوى بلاغة منطق وكتابِ
فبنيةُ المهدي وليلى قدوتي ... وبفطنتي أعطيتُ فصلَ خطابي
لله درَّ كواعبٍ منسوالها ... نسجُ العُلا لعوانس وكعابِ
وخصصتُ بالدرِّ الثَّمين وحامتْ الـ ... ـخنساء في صخر وجوب صعابِ
فجلعتُ مِرآتي جبين دَفاتري ... وجعلتُ من نَقْشِ المِدادِ خضابي
كَمْ زخرفت وجنات طرٍ لي أغلى ؟ ... بعذارِ خطٍ أو إهابِ شبابِ
ولكم زَها شمعُ الذَكا وتضوّعت ... بعبيرِ قولي روضةُ الأحبابِ
منطقتُ ربَّات البَهَا بمناطقٍ ... يَغبطنها في حضرتي وغيابي
وحللتُ في نادي الشُّعور ذَوائباً ... عرفتْ شَعائرها ذَوو الأنسابِ
عوَّذت من فكري فنون بلاغتي ... بتميمة غرَّا وحرز حجابي
ما ضرَّني أدبي وحسنُ تَعلُّمي ... إلا بكوني زهرةَ الألبابِ

---

(١) النَّاصية: مقدم الرأس .
(٢) الوسم: وسم الرجل سمة: إذا أثر فيه بسمة .
(٣) حلية الطراز ص ٤ ـ ٦ .
(٤) بعصمتي: اعتصم بالله امتنع بلطفه عن المعصية .
(٥) نقادة: مناقشة في الأمور .

مَا ساءني خِدري وعَقدُ عِصابتي ... وطـراز ثَـوبِـي واعتـزاز رِحَـابي
ما عَاقني خَجلي عن العليا ولا ... سـدلُ الخِمـارِ بلِمتـي ونقـابـي
عن طيِّ مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعب السِّباق مطامح الرُّكابِ
بلْ صولتي في راحتي وتَفرّسي ... في حسن ما أسعى لخير مآبِ
ناهيك من سرٍّ مصون كنهُهُ[1] ... شـاعـتْ غَـرَابتـه لـدى الأغـرابِ
كالمسكِ مختوم بدرجِ خزائن ... ويضـوعُ طِيِّـب طيبـه بمَـلابِ
أو كالبحارِ حوتْ جواهر لؤلؤٍ ... عـن مَسِّهـا شُلَّـتْ يَـدُ الطَّـلاَّبِ
درٌّ لشـوقِ نـوالهـا ومنـالهـا ... كَمْ كابدَ الغوَاصُ فصلَ عذابِ
والعنبرُ المشهـودُ وافـقَ صـونهـا ... وشُـؤونـه تُتلـى بكـلِّ كتـابِ
فأنرتُ مُصباح البراعةِ وهيَ لي ... مِنحَ الإلـه مـواهـبَ الـوُهـابِ[2]

* * *

(١) كنْهه: كنْه الشيء نهايته .
(٢) حيلة الطراز ص٤ ـ ٦ .

المصادر والمراجـع

١ ـ أبادي (فيروز) .
القاموس المحيط ـ مؤسسة الرسالة ـ بروت ط ٢ ـ ١٩٨٧ .
٢ ـ الاختيار (نسيب) .
الشعر الصوفي ـ مطبعة دار اليقظة بدمشق ـ ١٩٥٠ .
٣ ـ الآثاري (شعبان بن محمد القريشي الآثاري) .
بديعيات الآثاري ـ تحقيق وتقديم هلال ناجي ـ بغداد ١٩٧٧ .
٤ ـ الأصبهاني (أبو الفرج) .
الأغاني ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
٥ ـ أرسطو طاليس .
فن الشعر ـ ترجمة وشرح وتحقيق د . عبد الرحمن بدوي ـ ط ٢ بيروت ـ دار الثقافة ـ ١٩٧٣ .
٦ ـ أمين (أحمد) .
ظهر الإسلام ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .
٧ ـ بدوي (د . عبد الرحمن) .
رابعة العدوية ـ الكويت ـ وكالة المطبوعات. تاريخ التصوف الإسلامي .
٨ ـ البرزنجي (جعفر بن إسماعيل) .
نزهة الناظرين في مسجد الأولين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

٩ ـ البيروني (محمد بن أحمد) .
الفلسفة الهندية ـ صيدا ـ بيروت ـ المكتبة العصرية ـ (د . ت) .

١٠ ـ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ طبع مطبعة دار الكتاب المصرية ـ ط ١ ـ ١٤٣٩ ـ ١٩٣٠ .

١١ ـ التفتازاني (أبو الوفا الغنيني) .
مدخل إلى التصوف ـ القاهرة دار الثقافة ـ ١٩٨٩ .

١٢ ـ التنير (سليم) .
الشاعرات من النساء ـ دار الكتاب العربي ـ دمشق ١٩٨٨ .

١٣ ـ الجاحظ (أبو عثمان)
الحيوان ـ ج ٣ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ .

١٤ ـ جمعة (أحمد خليل) .
نساء من التاريخ ـ دار اليمامة دمشق ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤١٨ ـ ١٩٩٧ .

١٥ ـ الجوزي (سبط) .
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ـ تحقيق إحسان عباس ـ بيروت ـ دار الشروق ١٩٨٥ .

١٦ ـ الجوزية (ابن القيم) .
مدارج السالكين ـ دار الكتاب العلمية ـ بيروت .
طريق الهجرتين وباب السعادتين ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي .

١٧ ـ الحريفيش (شعيب) .
الروض الفائق في المواعظ والرقائق ـ المكتبة الملكية ـ القاهرة ـ ١٣٠٤ هـ.

١٨ ـ الحداد (الطاهر) .
امرأتنا في الشريعة والمجتمع ـ دار العارف ـ سوسة ـ تونس ـ ١٩٢٩ .

١٩ ـ حسيني (محمود أبو الفيض المنوفي) .
جمهرة أولياء التصوف ـ القاهرة ـ مؤسسة الحلبي ـ ١٩٦٠ .
٢٠ ـ الحفني (د . عبد المنعم) .
معجم مصطلحات الصوفية ـ ط ١ ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .
٢١ ـ حلمي (د . مصطفى) .
ابن الفارض والحب الإلهي ـ القاهرة المؤسسة المصرية العامة ـ ١٩٦٣ .
٢٢ ـ أبو خزام (د . أنور فؤاد) .
معجم المصطلحات الصوفية ـ مراجعة ـ د . جورج متري عبد المسيح ـ مكتبة لبنان ط ١ ـ ١٩٩٥ .
٢٣ ـ ابن خلكان .
وفيات الأعيان ـ تح د . إحسان عباس ـ دار صادر ـ ج ١ ـ ٢ .
٢٤ ـ خميس (محمد عطية) .
رابعة العدوية دار الدعوة حلب ـ ١٩٥٨ م .
٢٥ ـ السخاوي .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ مكتبة القدسي ـ ال قاهرة ـ ١٣٥٣ هـ .
٢٦ ـ السراج (أبو النصر الطوسي) .
ـ **مصارع العشاق** دار صادر بيروت ـ ١٩٥٨ م .
ـ **اللمع في التصوف** ـ تصحيح ـ رينولد نيكولون طهران ـ انتشارت جهان ١٩١٤ .
٢٧ ـ السامرائي (أحمد) .
لغة الشعر بين جيلين ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان) .

٢٨ ـ سرور (عبد الباقي) .
الحياة الروحية في الإسلام ـ دار الثقافة العربية للطباعة ـ القاهرة ـ ط ٣ ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .
٢٩ ـ سليطين (وفيق) .
الشعر الصوفي بين الانفصال والتوحد ـ تقديم نصر حامد أبو نصر ـ القاهرة مصر العربية ـ ١٩٩٥ .
٣٠ ـ السلمي (أبو عبد الرحمن) .
طبقات الصوفية ـ تح نور الدين شربجي ـ دار الكتاب النفيس ـ ط ١ ـ ١٩٨٩ .
٣١ ـ السكاكيني (وداد) .
العاشقة المتصوفة ـ دار طلاس دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٩ .
٣٢ ـ السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي) .
الأنساب ـ تعليق عبد الله البارودي ـ بيروت ـ دار الجنان ـ ١٩٨٨ .
٣٣ ـ السيوطي (جلال الدين) .
طبقات الحفاظ ـ تح علي محمد عمر . مكتبة وهبة ـ مصر ط١ ـ ١٩٥٨م.
٣٤ ـ الشايب (أحمد) .
أصول النقد الأدبي ط ٢ ـ مكتبة المصرية ـ ١٩٤٢ م .
٣٥ ـ الشرقاوي (محمود) .
رابعة العدوية ـ دار الشعب ـ القاهرة .
٣٦ ـ الطعمي (محيي الدين أبو عبد الله محمد بن علي) .
الطبقات الكبرى ـ بيروت ـ مكتبة الثقافة ـ ١٩٩٤ .
٣٧ ـ عبد الرزاق (سعاد) .
رابعة العدوية بين الغناء والبكاء ـ القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ـ ١٩٨٢ م.

٣٨ ـ عبد البديع (لطفي) .
الشعر واللغة ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة .
٣٩ ـ العتر (د . نور الدين) .
ماذا عن المرأة ـ دار الفكر ـ دمشق ط ٣ ـ ١٣٩٩ هـ .
٤٠ ـ عتيق (عبد العزيز) .
علم البديع بيروت ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٨٥ .
٤١ ـ **ابن عربي** (محيي الدين) .
ـ **ترجمان الأشواق** ـ بيروت دار صادر ـ ١٩٦١ .
ـ **التنزلات الليلية في الأحكام الإلهية** ـ تعليق عبد الرحمن حسن مسعود ـ القاهرة عالم الفكر ١٩٨٧ .
ـ **الفتوحات المكية** ـ دار صادر ـ بيروت .
٤٢ ـ عريقي (طارق) .
التصوف في شعر بدوي الجبل ـ رسالة ماجستير .
٤٣ ـ عساف (ساسين) .
الصورة الشعرية ـ دار مارون عبود ـ ١٩٨٥ م .
٤٤ ـ العسكري (أبو هلال) .
كتاب الصناعتين ـ ت علي محمد بجاوي ـ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى البابي .
٤٥ ـ عصفور (جابر) . **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب** ـ مركز الثقافة العربي لبيروت ـ لبنان ط ٢ ـ ١٩٨٣ م .
٤٦ ـ العفيفي (أبو العلا) .
التصوف الثورة الروحية في الإسلام ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٥٦ .

٤٧ ـ العفيفي (عبد الله) .
المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ لبنان ط ٢ ـ ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .
٤٨ ـ العقاد (عباس محمود) .
الديوان . دار الشعب ، القاهرة .
٤٩ ـ ابن العماد الحنبلي .
شذارت الذهب في أخبار من ذهب ـ طبع مطبعة القدس بالقاهرة ـ ١٣٥١م.
٥٠ ـ عياد (شكري محمد) .
اللغة والإبداع ، ١٩٨٨ .
٥١ ـ غريب (جورج) .
شاعرات العرب في الإسلام ـ بيروت دار الثقافة ١٩٨٢ .
٥٢ ـ الغزي (نجم الدين محمد بن محمد) .
الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ـ تح ـ د . جبرائيل سليمان جبور ـ دار الفكر ـ بيروت .
٥٣ ـ فارمر (المستشرق هنري جورج) .
مصادر الموسيقى العربية ـ ترجمة د . حسين مؤنس ـ منشورات إدراة الثقافة في جامعة الدول العربية ـ طبع مصر ـ القاهرة ١٩٥٧ .
٥٤ ـ ابن الفارض عمر بن علي بن مرشد بن علي الحمور (المتوفى ٦٣٢ ـ ١٣٢٥ م) .
ديوان ابن الفارض ـ القاهرة ، مطبعة الحجازي .
٥٥ ـ فواز العاملي (زينب) .
الدرر المنثور في ربات الخدور ـ مصر القاهرة ـ المطبعة الكبرى ـ ١٨٩٤ .

٥٦ ـ قريبيز (محمد) .
الشعر الصوفي في الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ـ رسالة ماجستير ـ حلب ١٩٨٦ .

٥٧ ـ القشيري (أبو القاسم عبد الكريم) .
الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القاهرة ـ مكتبة محمد علي صبح ١٩٧٢ .

٥٨ ـ القط (عبد القادر) .
الاتجاه الوجداني المعاصر ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨١ م .

٥٩ ـ قنديل (عبد المنعم) .
رابعة العدوية عذراء البصرة البتول ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ .

٦٠ ـ كحالة (عمر رضا) .
أعلام النساء ـ ج ١ ـ ج ٥ ـ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٠٤٢ ـ ١٩٨٢ .

٦١ ـ كيلو (عبد الرزاق) .
المهاجرة إلى الله رابعة العدوية ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٣ .

٦٢ ـ الكتبي (ابن شاكر) .
فوات الوفيات ـ تح، د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٣ .

٦٣ ـ كرد علي (محمد) .
خطط الشام ـ بيروت ١٩٩٦ .

٦٤ ـ الكلاباذي (محمد أبو بكر) .
التعرف لمذهب أهل التصوف ـ بيروت المكتبة العلمية ـ ١٩٨٠ .

٦٥ ـ ماسينيون (المستشرق لويس) .
الإسلام والتصوف ـ ترجمة مصطفى عبد الرازق ـ إعداد إبراهيم زيك خورشيد ، والقاهره مطابع دار الشعب ١٩٧٩ .
٦٦ ـ مبارك (د . زكي) .
التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ . المدائح النبوية في الأدب العربي ـ القاهرة مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٥ .
٦٧ ـ الملطي (أبو الحسيني محمد بن أحمد بن عبد الرحمن) .
التنبيه في الرد على أهل الهوى والبدع ـ تعليق محمد زاهد بن الحسن الكوثري ـ بيروت ـ مكتبة المعارف ـ ١٩٦٨ .
٦٨ ـ مرعشلي (نديم وأسامة) .
موسوعة الحديث النبوي الشريف ـ دار الحضارة العربية ـ بيروت ١٩٩٤ .
٦٩ ـ المناوي .
الطبقات الكبرى ـ مخطوطة دار الكتب المصرية .
٧٠ ـ المقري .
نفح الطيب ـ تح د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ١٤٠٨ ـ ١٩٩٨ .
٧١ ـ موسى باشا (د . عمر بن محمد) .
ـ **الأدب العربي في العصر الملوكي والعصر العثماني** ـ مطبقة الإنشاء ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ .
ـ **قطب العصر عمر اليافي** ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٩٦ .
٧٢ ـ نصر (عاطف جودة) .
شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي ـ دار الصوفي ـ دار الأندلس ـ الرمز الصوفي عند الصوفية ، دار الأندلس .

٧٣ ـ النيسابوري (أبو القاسم) .
عقلاء المجانين ـ علق حواشيه وجيه فارس الكيلاني ـ المطبعة العربية المعاصرة بمصر ١٣٤٣ ـ ١٩٢٤ .
٧٤ ـ أبو نعيم (أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني .
حلية الأولياء وطبقة الأصفياء ـ طبع في القاهرة ١٩٣٧ م .
٧٥ ـ اليافي (د . عبد الكريم) .
دراسات فنية في الأدب العربي ـ مطبعة دار الحياة دمشق ـ.
٧٦ ـ ياقوت (شهاب الدين) .
معجم البلدان ـ دار صادر ودار بيروت ـ ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .
٧٧ ـ يموت (بشير) .
شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ـ المكتبة الأهلية بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٥٣ ـ ١٩٣٤ .
٧٨ ـ هلال (د . محمد غنيمي) .
الصورة الفنية في نقد الأدب الحديث ـ دار العودة ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٢ ؛ النقد الأدبي الحديث ـ دار العودة ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ .

* * *

المحتوى

المقدمة ٥
التمهيد ٧

الباب الأول
في التصوّف

الفصل الأول: التصوف معناه والمؤثرات فيه ١٣
المعنى اللغوي لكلمة الصوفي ١٥
أقوال المتصوفة في التصوف ١٩
المؤثرات في التصوف ٢٣
١ ـ المؤثر الديني ٢٣
٢ ـ المؤثرات السياسية والاجتماعية ٢٣
مدارس التصوف ٢٧
أ ـ مدرسة البصرة ٢٧
ب ـ مدرسة المدينة المنورة ٢٩
ج ـ مدرسة الكوفة ٣٠
د ـ مدرسة مصر ٣٢
التصوف حياة روحية ٣٥

الفصل الثاني: المرأة في الإسلام ٣٩
مكانة المرأة في الإسلام ٤١
نساء صوفيات ٤٩
نفيسة بنت الحسن ٤٩
أم البنين بنت عبد العزيز ٥٠
مخة بنت الحارث ٥١
أُنْس بنت عبد الكريم ٥٣
فاطمة بنت علي اليشرطية الشاذلية الحسنية الحسينية ٥٤

الباب الثاني
موضوعات شعر المتصوفات

الفصل الأول: الحب الإلهي عند الصوفيات ٦٣
توطئة عن الحب الإلهي ٦٥
ماهية الحب الإلهي ٦٧
الحب الإلهي ٧١
الحب الإلهي والمقامات الأخرى ٧٧
١ ـ مقام الخُلَّة ٧٧
٢ ـ مقام التوبة ٧٨
٣ ـ مقام الخوف ٨٤
٤ ـ مقام الرضا ٨٨
الفصل الثاني: الخمريات الصوفية ٩٣
الخمرة حالة من حالات المتصوفة ٩٥
الخمرة عند الصوفيات ١٠١
الفصل الثالث: الرمز الصوتي ١٠٩
الرمز الصوفي ١١١

الرمز الصوفي عند الصوفيات ١١٥
الفصل الرابع: النبويات ١٢٥
النبويات ١٢٧
المولد النبوي ١٢٩
المدائح النبوية ١٣٣

الباب الثالث
الدراسة الفنّيّة

الفصل الأول الصورة الفنية في شعر الشواعر الصوفيات ١٤٧
تعريف الصورة الشعرية ١٤٩
لمحة عن الصورة الفنية في النقد العربي ١٥١
مكونات الصورة الفنية عند الشواعر الصوفيات ١٥٥
١ ـ القرآن الكريم ١٥٥
٢ ـ الثقافة الإسلامية ١٥٨
الصورة الفنية في شعر شواعرنا الصوفيات ١٦١
الفصل الثاني: المذاهب الفنية والبنى الجمالية ١٦٧
الألفاظ والتراكيب ١٧٠
أنواع الألفاظ ١٧٣
١ ـ الألفاظ الصوفية ١٧٣
٢ ـ الألفاظ المترواحة بين اللين والجزالة ١٧٥
٣ ـ الألفاظ المستخدمة ١٧٧
أنواع التراكيب ١٧٩
أ ـ التراكيب الإضافية ١٧٩
ب ـ تركيب ندائية ١٨١
ح ـ التراكيب الإسنادية ١٨٢

ظواهر التكرار ١٨٥
البنى الهيكلية والفنية ١٨٩
نتائج الدراسة ١٩٣

ملحق الدراسة
الديوان الصوفي

رابعة العدوية ١٩٧
رابعة الشامية ٢٠٩
حيّونة ٢١٥
ريحانة ٢١٩
ميمونة السوداء ٢٢٥
أم السعد القرطبية ٢٢٩
عائشة الباعونية ٢٣٣
عائشة التيمورية ٢٤٩
المصادر والمراجع ٢٥٩
المحتوى ٢٦٩